النـــدوة الثانيـــة

حول مشروع كتابة تاريخ العرب

١٢ ـ ١٤ تشرين الاول ١٩٨٥

ان لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، وقد قطعت شوطا اساسيا في انجاز الخطوط الرئيسية لهذا المشروع على صعيد الاعداد الفكري الاولي ، رات انه مـن النافع عقد ندوة في رحاب جامعة دمشق من اجل عرض مـا تم انجـازه حتى الان ، ولتدارس تفصيلات الخطوات التنفيذية الضرورية كي ينتقل مشروع كتابة تاريخ العرب الى حيز التحقيق .

عقدت الندوة في مكتبة الاسد تحت رعايـة السيد الدكتور كمال شرف وزيـر التعليم العالي ، وافتتحها السيد الدكتور محمد حـرب فرزات بكلمة رحـب فيها بالحضور ، وذكر بأن انعقاد الندوة الثانية هذه بعد مرور سنوات على انعقاد النـدوة الاولى تأكيد على استمرار المسيرة نحو الهدف المنشود ، وهو كتابة تاريخ العـرب برؤية عربية واقلام عربية ليخرج الى النور موسوعة عربية كاملة تتيح للاجيال الناشئة وعي تاريخ امتهم على حقيقته وصفاء رؤيتهم لحاضرها ومستقبلها الذي تصبو اليه ، تكون اسهاما متواضعا في التهيئة للوحدة العربية التي عمل من اجلها المناضلون وضحى الشهـداء .

والقى السيد الدكتور عادل العوا عضو لجنة كتابة تاريخ العرب كلمة اللجنـة ، فأشار الى الاطار العلمي الذي يطرح فيه مشروع كتابة تاريخ العرب والمراحل التي اجتازها منذ ان كان فكرة . وبعد ان تحدث عن التاريخ عامة وأهميته وتنوع وجهات النظر في فهمه وتقويمه ، تطرق الى الغرض من كتابة تاريخ العرب وبين انها تأتي تلبية لحاجة عصرية ملحفة تستهدف المعرفة للمعرفة من جهة ، ومن جهة اخرى وفي الوقت ذاته العمل بوعي واختيار ومسؤولية ، وهو هدف يشترك فيه ابناء الامـة جميعـا ويستجيب لتحديات ذاتية تتطلع الى تحرير الارادة القومية المبدعة ، ودعوة انسانية للاسهام في صنع تاريخ البشر القريب ، وربما البعيد أيضا . واشار الدكتور العوا في ختام كلمته الى النقاط الرئيسية في جدول اعمال الندوة ، وهي لا تخرج عن مسعى كتابة تاريخ عربي يتسم بانه قومي وحضاري وانساني.

ثم القى السيد الدكتور محمد زياد الشويكي رئيس جامعة دمشق رئيس لجنة كتابة تاريخ العرب ممثل راعي الندوة كلمة ذكر فيها بما اجتمعت عليه الاراءحول ما كتب في التاريخ العربي ، وانه لايمكن ان يعد تاريخا متكاملا لامة تشغل رقعة من الارض تمتد من المحيط الى الخليج ، اسهمت في اثراء الحضارة الانسانية بعطاء غير محدود ، وكانت في جميع مراحل تاريخها منفتحة على كل ما هو خير . وقال الدكتور الشويكي ان عودتنا الى تاريخنا القومي يجب ان تكون عودة صادقة اصيلة ، تسير بهدي العقل وتعتمد على فهم وادراك صادقين لعلاقة ماضينا بحاضرنا ومستقبلنا ، ليكون الوعي التاريخي مصدر قوة وعامل نماء وتقدم وخلق وابداع ..

ووجه الخطباء التحية والاجلال للقائد المناضل حافظ الاسد رئيس الجمهورية، راعي العلم والثقافة باني نهضة سورية المعاصرة ، التي تنعقد هذه الندوة في معلم بارز من معالمها في عهده ، مكتبة الاسد ، الصرح الثقافي الضخم الذي طال انتظارها له ، كغيره من الانجازات التي تمت في هذا العهد الميمون .

وبعد استراحة قصيرة انعقدت الجلسة العامة الاولى بحضور خمسة واربعين باحثا من القطر العربي السوري واقطار عربية ، وممثلي بعض مراكز البحث التاريخي، وطرحت فيها بعض قضايا تتناول صلب المشروع ، منها انه مشروع قومي يتوجه للافادة من امكانات المؤرخين والباحثين العرب في كل مكان ، ومدى توافر الكفاءات اللازمة له ، وتهيئة الاسباب الكفيلة بمشاركة الجامعات والمؤسسات العلمية العربية والعلماء والباحثين العرب مشاركة فعالة في تنفيذه .. ومنها وجود اكثر من جهة طرحت وتطرح الفكرة كل من زاويتها الخاصة ودونما اية محاولة للتعاون والتنسيق فيما بينها ، مع عدم وجود مدرسة تاريخية عربية واحدة او وحدة في التوجه ، ومنها ضرورة اللقاءات والاتصالات المباشرة بين المؤسسات العلمية والاكاديميةالعربية والعلماء والمؤرخين العرب ،واهمية التواصل الدائم المستمر واثره في توحيد الرؤية وتعبئة الطاقات ، والنشاط الاعلامي واهميته بالنسبة لمثل هذه المشروعات الكبيرة .. وقد اتفقت الاراء على ان العمل في هذا المشروع المهم عمل دائم وليس آنياً ، وهو بالتالي عمل مؤسسة دائمة ذات امكانات علمية وادارية ومادية كبيرة .

واستؤنفت الجلسة العامة في الساعة السادسة مساء ، وتركز النقاش فيها حول وضع تصور لخطة العمل ، مع النظر بعين الاعتبار الى القضايا التي طرحت فيالجلسة الصباحية وتقدير اهميتها وابعادها .

دار النقاش حول احداث « هيئة عربية » تتولى الاشراف على سير العمل ومتابعته وتحديد صلاحياتها ووسائلها ، وحول المسؤولية العلمية وتوحيدها في جهة واحدة او تعددها بتعدد فترات التاريخ العربي، والمسؤولية الادارية ومركزيتها وتوفير مستلزماتها البشرية والمادية ، وحول حصر الكفاءات العلمية العربية وكيفية تأمين

التواصل معها ، وعقد الندوات العلمية والتنظيمية وتحديد موضوعات عملها ، والامور المالية .. وتناولت المناقشات كيفية تنظيم عمليات التاليف والمراجعة والتقويم والتحرير والتنسيق .. وتحديد مسؤولياتها ، والافادة من النشاط الاكاديمي في الجامعات التي تتبنى الفكرة ، كما تناولت الدور الذي يمكن ان تقوم به مجلة « دراسات تاريخية » في هذه المرحلة .

وقد بينت المناقشات ان الاتفاق قائم على اهداف المشروع ومنطلقاته ومبادىء العمل فيه ، وان تعددت الاراء في اسلوب العمل وتفصيلاته ، والظروف والامكانات التي يجب ان تهيأ له . و كان التوجه العام يميل الى الجمع بين أمرين : وضع خطة العمل وتكوين الاطر اللازمة للمباشرة بالتنفيذ ، والعمل في الوقت نفسه على تهيئة الظروف والمستلزمات الضرورية ، وسد الثغرات التي ابرزتها المناقشات .

وفي اليوم الثاني اجتمعت اللجان المتخصصة (لجنة التاريخ القديم ، لجنة التاريخ الاسلامي والوسيط ، لجنة التاريخ الحديث والمعاصر) كل على حدة لدراسة مايخص كلا منها من المشروع ووضع توصياتها بشأنه .

توصيات الندوة

وفي الساعة الحادية عشرة من يوم الاثنين في ١٤/١٠/١٩٨٥ ، عقدت الجلسة العامة الختامية وانتهت الى اقرار التوصيات التالية :

أولا : في تشكيل الاطر العلمية والادارية .

١ ـ تشكيل لجنة اشراف متخصصة لكل فترة من فترات التاريخ العربي ، يكون أحد اعضائها مسؤولا عن متابعة سير العمل .

٢ ـ تشكيل هيئة اشراف عربية عدد اعضائها من ستة الى ثمانية ، مهمتها الاشراف على سير العمل ومتابعته حتى يخرج الى حيز الوجود .

٣ ـ تتألف هيئة الاشراف من اعضاء لجان الاشراف المتخصصة ، بالاضافة الى عضوين أو اكثر من ذوي المكانة العلمية ، ويراعى في اختيار اعضائها التمثيل الجغرافي .

٤ ـ يكون لكل لجنة اشراف متخصصة مقرر يشارك في اعمال هيئة الاشراف .

٥ ـ تتألف من مقرري هيئة الاشراف واللجان المتخصصة لجنة ادارية مسؤولة .

٦ ـ يراعي في اختيار المقررين ان يكونوا من المقيمين في دمشق ، مقر المشروع .

٧ ـ احداث امانة دائمة للجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق تتولى الاجراءات الادارية والتنفيذية ، وتوفير الامكانات اللازمة لها .

٨ ـ توصي الندوة بالعمل على احداث هيئة علمية ذات استقلال اداري ومالي ،تتولى مسؤولية المشروع كاملة .

ثانيا : في اسلوب العمل .

١ ـ توثيق الصلات مع اقسام التاريخ في الجامعات العربية ومراكز البحث العلمي والتعاون معها ، والتواصل الدائم مع المؤرخين والباحثين العرب . ويتم ذلك بتحرك مدروس وبوساطة شخصيات علمية معروفة ، وعن طريق الندوات الدورية ، وتسمية ممثلي ارتباط في الجامعات والمؤسسات العلمية .

٢ ـ اعطاء قدر أكبر من الاهتمام للنشاط الاعلامي .

٣ ـ السعي للتنسيق مع مؤسسات اخرى ، في الاردن والكويت والمغرب العربي .. وغيرها ، والافادة من تجاربها في هذا المضمار .

٤ ـ العمل على اعداد ببلوغرافيا تاريخية عربية .

٥ ـ اجراء حصر كامل للباحثين العرب وتخصصاتهم الدقيقة ، تمهيدا للاتصال بمن تراه اللجان المختصة منهم .

٦ ـ العمل على الافادة من النشاط الاكاديمي في الجامعات التي تتبنى الفكرة ،كتوجيه مهمات البحث العلمي لتتسق مع مشروع كتابة تاريخ العرب، واختيار موضوعات الرسائل التي تعد لنيل الشهادات بشكل يساعد على ملء الفجوات في ميدان التاريخ العربي .

٧ ـ اعداد ملفات تدور حول محاور معينة، تنشر في مجلة « دراسات تاريخية » وتطرح المناقشة والتقويم .

٨ ـ تكليف باحثين بكتابة موضوعات محددة خلال فترة معينة، وعقد ندوات متخصصة لدراسة البحوث المكتوبة وتقويمها ، والاحتفاظ بالجيد منها ليكون رصيدا للمشروع ، ونشر بعضها في مجلة « دراسات تاريخية » .

٩ ـ حصر مسؤولية التنسيق باللجنة الادارية .

١٠ ـ تتولى عملية التحرير النهائي هيئة محررين من ذوي الخبرة (من ثلاثة محررين او اكثر)

١١ ـ يراعي في تقدير المكافآت المالية المؤلفين والمراجعين والمحررين .. الخ ، مادرجت عليه المؤسسات والمنظمات المشابهة بالنسبة لامثالهم .

١٢ ـ صرف نصف المكافآت المقررة عند التكليف ، والنصف الاخر عند انجاز العمل.

١٣ ـ رفع التوصيات الى الجهات المسؤولة .

بيان هام لاتحاد المؤرخين العرب

اصدر اتحاد المؤرخين العرب بيانا يفضح اساليب الكيان الصهيوني في تشويه تاريخ الامة العربية ، ويدعو المؤرخين والمثقفين العرب بعامة ، في الوطن العربي وخارجه، للوقوف في وجه الهجمة الوحشية الصهيونية الحاقدة على الامة العربية وتاريخها وتراثها ، والتي تخطط باستمرار لهدم الوجود العربي والذات العربية وتجعل من الانسان العربي متشككا في امجاد امته وحضارتها الانسانية التليدة .

جاء في البيان :

لم تعد مواجهة الكيان الصهيوني للامة العربية مقتصرة على التحدي العسكري وحده ، وانما اتجه هذا العدو الى استغلال الفكر العربي ، والنيل منه ، ومحاولة تسخير مايصدر في هذا الكيان من مؤلفات باللغة العربية ، وخاصة الموضوعات التاريخية لخدمة اهدافه ، هذه الاهداف التي تصب في مجرى معروف هو الحقد على العرب وعلى تاريخهم وقيمهم من أجل طمس ما قدمته الحضارة العربية لحركة الانسان على الارض من معطيات في الماضي وتعطيل كل دور حضاري يمكن ان يقوم به العرب في الوقت الحاضر .

ومن هنا تقع على عاتق المؤرخين العرب مسؤولية الانتباه لما يصدر عن الكيان الصهيوني في فلسطين من منشورات ومطبوعات تخص القضية العربية عموما، والتاريخ خصوصا ، وذلك بدراسته دراسة واعية عميقة ، واكتشاف ما فيه من سموم حاقدة وافكار مريضة تبثها دور النشر الصهيونية لضرب الفكر العربي في الصميم .

ان الكيان الصهيوني يعني عناية كبيرة بالدراسات المتعلقة بالوطن العربي والعالم الاسلامي ، وقدا خذت الجامعات الصهيونية على عاتقها توجيه البحوث والدراسات نحو قضايا تباشر التاريخ العربي والاسلامي في كثير من ابوابه ومنافذه ، وهي في سبيل تحقيق هذه الغاية راحت تتابع بشكل دقيق كل ما يصدر عن الوطن العربي من مؤلفات وبحوث ودراسات وتجميعها وتحليلها ، لتعطيل كل ما فيها من معطيات تخدم الحقيقة التي يعززها التاريخ وتسندها الحقائق ، وذلك بطرح اراء ودعاوى باطلة من لدن الكتاب والباحثين اليهود ، تفسد الاوجه المشرقة في التفكير العربي قديما وحديثا .

ان الاعمال اليهودية التي تنشر في الوطن الفلسطيني المحتل تحتاج من المؤرخين العرب وقفة جدية لتجميعها ودراستها وتحليلها خدمة لمرحلة الحسم القادمة مثلما يفعل الكيان الصهيوني نفسه .

ومن اجل ذلك ترى الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ان الضرورة الواقعية والحضارية للامة العربية تقتضي ضرورة العناية القصوى من لدن اقسام التاريخ في الجامعات العربية ومراكز البحث العلمي وكل المثقفين العرب ، بالنتاج الفكري وخاصة التاريخي اليهودي المنشور في الارض المحتلة ، او عن مؤرخين يهود مكتسبين جنسيتها، وينشرون اعمالهم في دول غربية ، فتسعى بكل حرص الى الوصول الى كل ما يصدر منه ، ومن ثم احالته الى اتحاد المؤرخين لدراسته من قبل متخصصين الدراسات الاسرائيلية للوقوف على ما فيه من افكار تزيف الحقائق وتشوه الوقائع . وما هذا العمل الا تأكيد الاهتمام بالقضية المصيرية للامة العربية التي نرى ان من مصلحتها فهم العقلية الصهيونية وسبلها في معالجة القضايا والاحداث التي مرت وتمر بها المنطقة العربية اليوم .

ويختتم البيان :

واننا اذ نوجه الدعوة للمؤرخين العرب كافة فاننا ندعوهم الى ان يكونوا يدا واحدة من اجل الوقوف امام الزحف الاستعماري الثقافي الخطير .

وما النصر الا من عند الله ((**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**)).

صدر عن الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب في غرة جمادى الاخر من عام ١٤٠٦هـ ، الموافق اليوم الرابع عشر شهر شباط ١٩٨٦.

د. مصطفى عبد القادر النجار

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

النظام المالي
في عهد الخلفاء الراشدين

د. محمد ضيف الله بطاينة
جامعة اليرموك

انطلقت حركة الفتوح في خلافة ابي بكر نحو العراق والشام ، وحقق المسلمون في هذا الوجه نجاحا أوليا اسفر عن عقد معاهدات صلح مع بعض المدن والقرى في هذه البلاد ، فصالحت الحيرة عام ١٢ هـ على سبعين الف درهم ، وقيل مائة الف درهم(١)، وقيل الف درهم ورحل(٢) ، وحمل الخمس من ذلك الى المدينة فكان أول مال يحمل الى المدينة من العراق(٣) . وصالحت من العام نفسه الّيس على الف دينار(٤) ، وبانقيا على الف درهم وطيلسان(٥) ، واهل نهر المرأة في الابلة على اثني عشر الف درهم(٦) ، واهل الانبار وعين التمر على شيء عليهم(٧) ، وصالحت بصرى الشام ، وبعث خالد بالاخماس الى ابي بكر ، وكانت أول مدينة فتحت بالشام(٨) .

ثم جاءت الفتوح العظيمة بعد وفاة ابي بكر في خلافة عمر بن الخطاب ، ففتحت بلاد الشام والعراق ، وجاوزتها الى البلاد الواقعة الى شرق العراق وشماله وجنوبه، وفتحت مصر ، وبلغت في خلافة عثمان بلاد سجستان وخراسان من الشرق ، وارمينية واذربيجان من الشمال ، وبلاد افريقية من الغرب .

والذي نلاحظه بخصوص البلاد المفتوحة ، ان المصادر التاريخية والفقهية تصنفها عند الحديث عنها ، الى بلاد فتحت عنوة ، وبلاد فتحت صلحا ، والتمييز الذي يتضمنه هذا التصنيف ، ان البلاد التي فتحت عنوة ، وضعت عليها ضريبة مالية على

الرؤوس (جزية) ، وضريبة مالية على الارض (خراج)(٩) ، ويكون بمقدور ولاة امر المسلمين أن يعدّلوا ، بلا حرج ، وضع هذه الضرائب المالية وفق المعطيات المتجددة . اما البلاد التي فتحت صلحا فان العلاقة المالية بينها وبين المسلمين محـدودة بالعهود والعقود ، وثابتة في الغالب ، وتتمثل عادة بضريبة مالية اجمالية واحدة .

ومعرفة البلاد التي فتحت عنوة ، والبـلاد التي فتحت صلحا أمـر غير متيسر تماما(١٠) ، فالاختلاف بين الروايات حول ما فتح عنوة ، وما فتح صلحا قائم ، فالبلد الفلاني في رواية فتح صلحا ، وفي رواية ثانيـة فتح عنـوة ، وأحيانا فتح عنـوة أو صلحا(١١) . ولعل فتح البلد غير مرة ، والاختلاف في مقدار الضرائب وأنواعها في البلاد المفتوحة من العوامل المسؤولة عن ذلك . قيل فتحت بلاد الشام عنوة دون مدنها التي فتحت صلحـا(١٢) ، وفتح السـواد في العراق عنـوة(١٣) ، باستثناء قريات فتحت صلحا(١٤) ، وحدّ السواد في العراق طولا من تخوم الموصل مادا مع الماء الى ساحـل البحر ببلاد عبادان من شرق دجلة ، وحده عرضا من منقطع الجبل من أرض حلـوان الى منتهى طرف القادسية المتصل بالعذيب من أرض العرب(١٥) .

وفتحت الاهواز وفارس واصبهان وافريقية عنوة(١٦)، وصالحت الريّ ،وكرمان، وسجستان ، وخراسان ، وانطابلس وطرابلس وهما من بلاد ليبيا اليوم(١٧) . وقيـل فتحت مصر صلحا ، وقيل فتحت عنوة ، وقيل فتحت صلحا عـدا الاسكندرية(١٨) ، وفتحت الجزيرة صلحا وقيل فتحت عنوة(١٩) .

وبعد ان اطمأن المسلمون في الشـام والعراق وبخاصة بعد معركة اليرمـوك التي جرت على أرض الشام عام ١٥ هـ ، ومعركة القادسية التي تلتها مباشـرة على أرض العراق ، أثيرت قضية الارض في هذه البلاد المفتوحة ، ويبدو من المناقشات التي دارت بين الصحابة بشأن هذه القضية ، ان قسمة الارضين بين الجند الغانمين نحو ما كان يصنع من قبل بغنائم الحروب السابقـة ، كان مما يظنه عامـة المسلمين(٢٠)، ولكن عمر بن الخطاب وبعض الصحابة(٢١) لم يروا هذا الراي ، وابقوا الارض بيـد من كان يعملها على خراج يؤدونه عنها .

أثار موقف عمر بن الخطاب من الارض المغنومة ، وعـدم توزيعها بين الغانمين اهتمام الباحثين من مؤرخين وفقهاء ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى ، فمنهم من رأى استننانا بفعل عمر بن الخطاب ، ان لولي الامر الخيرة في ذلك ، ان شاء قسم الارض، وان شاء حبسها على المسلمين عامة ولم يقسمها(٢٢) ، ومنهم من رأىان عمر بن الخطاب عندما وقف الارض المغنومة ولم يقسمها بين الغانمين انما استطاب نفوسهم على نحـو

ما استطاب الرسول (ص) نفوس من صار في ايديهم سبي هوازن بحنين ، وعلى نحو ما استطاب عمر بن الخطاب نفس جرير بن عبد الله البجلي واعطاه ثمانين دينارا عوضا عن حقه في ارض السواد (٢٣) .

وقد يكون للاوضاع العامة في هذه المرحلة المبكرة من الفتوح اثر في اتخاذ هذا القرار لتأليف أهل البلاد المفتوحة ، وقطع مظاهرتهم للاعداء من الفرس والبيزنطيين ، واعمار الارض(٢٤) ، هذا الى ما كان من الحرص على ضرورة بقاء المسلمين امة مجاهدة ، وخوف الفتنة بينهم لو قسمت الارض (٢٥)، ولما هم عليه من ضعف الخبرة بامور الزراعة وقلة العدد بالنسبة لاهل البلاد المفتوحة(٢٦) ، واحتج عمر بن الخطاب لموقفه بقوله تعالى : « وما افاء الله على رسوله منهم ... الى قوله تعالى ... والذين جاءوا من بعدهم »(٢٧) ، وهداه فهمه لهذه الايات الى ان جعل للمسلمين وحتى يوم القيامة حقا في هذه الارض(٢٨) .

ومهما تنوعت الاقوال والآراء بشأن موقف عمر بن الخطاب ، فان القرار وفّق الى ايجاد مورد مالي ثابت يصرف منه على الجند ، ويدفع منه العطاء والارزاق، وينفق منه على ادارة مصالح الدولة ، ويعطى منه المحتاجون على الدوام(٢٩) . وصار هذا الحل منهجا عاما اتبعه ولاة الامر في معاملة الارضين التي فتحت عنوة من بعد .

وضع الضرائب وتقديرها في البلاد المفتوحة :

يلاحظ المتتبع لحركة الفتوحات في هذه البلاد ان المسلمين كانوا في المرحلة المبكرة من الفتح يأخذون من اهل البلاد مؤونة عينا رزقا لهم ، ومقدارا من المال نقدا. والروايات في موضوع الاموال النقد التي كان يأخذها المسلمون على جانب من المبالغة كبير ، واضرب على ذلك مثالين اولهما : لما جاء رسول عتبة بن غزوان من منطقة البصرة الى عمر بن الخطاب في المدينة ، اكبّ الناس عليه يسألونه عن المسلمين هناك فقال :ان المسلمين يهيلون بها الذهب والفضة هيلا(٣٠) ، وكان مقدار ما اصابه المسلمون في الابلة التي قيل ان المسلمين اصابوا فيها الذهب والفضة ، ستمائة درهم ، فأخذ كل رجل درهمين(٣١) . وثانيهما : نذكر مدينة حمص مثالا من بين مدن الشام ، قيل انها صالحت على مائة الف وسبعين الف دينار (٣٢) ، ولكن لما قدم عمر بن الخطاب الجابية دفع امراء الاجناد اليه ما اجتمع عندهم من الاموال ، فقسم عمر بين الغانمين حظهم منها ، فنال الرجل منهم نصف دينار ان كان اعزبا ، وان كانت معه امرأته ناله دينار(٣٣) ، هذا ولا يتجاوز عدد المسلمين في جبهة الشام آنذاك الثلاثين الفا اعتمادا

على الروايات التي تذكر عدد المسلمين الذين وجهوا في الجيوش والامدادات الى بــلاد الشــام .

ولما استقر المسلمون في هذه البلاد ، صار تنظيم الحقوق والواجبات الماليــة المترتبة على هذه البلاد حاجة لازمة وضرورة قائمة . وبخصوص الواجبــات الماليــة التي وضعت على البلاد المفتوحة ، يذكر يوليوس فلهوزن ان المسلمين وضعوا اتــاوة واحــدة اجمالية لا اكثر في البلاد التي فتحت عنوة والبلاد التي فتحت صلحا ، ولــم يكن يهمهم سوى حمل هذه الاتاوة الى بيت المال(٣٤) ، غير ان الاتــاوة في البــلاد التي فتحت صلحا ، قدرت بحسب الشروط التي نص عليهافي كتاب الصلح ولا يجوزتغييرها على الهوى(٣٥) ، ويرفض فلهوزن وجود ضريبتين منفصلتين في هذه البلاد اسمهمــا « جزية وخراج »(٣٦) طيلة القرن الهجري الاول ، ويرى ان لفظي « جزية وخــراج » ظلا مترادفين لاكثر من قرن ، ويطلقان بنفس المعنى على الاتاوة التي فرضها العرب على البلاد المفتوحة ، ولم يكن لهما مدلول ضرائب حقيقية حتى حوالي منتصفالقرن الثاني الهجري عندما اتخذ كل من لفظي خراج وجزية لاول مــرة معنى محــددا من معاني الضرائب الحقيقية : جزية بمعنى ضريبة الرأس وخراج بمعنى ضريبة الارض ، وكان ذلك في عام ١٢١هـ ، عندما اصدر نصر بن سيار والي خراسان قرارا يقضي بانيؤدي الناس جميعا ضريبة الارض (الخراج) ويؤدي غير المسلمين ضريبة الراس (الجزية). واتهم فلهوزن لذلك الفقهاءوالمؤرخين المسلمين الذين لم تطاوع اقوالهم ما ذهب اليه، اتهمهم بنسبة نظم عصرهم الى ايام الرسول (ص) والخلفاء الراشــدين حتى يحيطوها بجو من التبجيل والاحترام(٣٧) ، وأيده في ذلك بكر وكايتاني . ويقول كايتاني بخصوص ذلك : انه نظام (نظام الاسلام ونظام الاقتصاد منــه) مثالي ، ولد ونشأ في معظمــه خارج الحياة الواقعية ، وكانخلقاصنعته الدراسة والمدارس الفقهية ، ولا يتفــق الا قليلا مع النظم التي كان الناس يسيرون عليها بالفعل في الحياة اليوميــــة للجماعــة الاسلامية، ويتهم الفقهاء بأنهم زيفوا ما جاء عن اصول النظــم الاولى ، وحاولــوا ان يثبتوا ان الدولة في عهد الرسول (ص) والخلفاء الأول كانت الامور تجري فيها دائما بالشكل الذي تصوروه وارادوه(٣٨) .

ولكن دينيل دينيت أنكر عليهم ذلك ، وقال لدينا نصوص قاطعة صريحة شديدة الوضوح ، تقول ان المسلمين قرروا شيئا بعينه في مصر ، وشيئا آخر في سوريــة ، وشيئا ثالثا في العراق ، وشيئا يختلف عن هذا كله في خراسان(٣٩) . وان لفظي «جزية وخراج » ليسا مترادفين على الاطلاق ، وان لكل من اللفظين معنى عاما ومعنى خاصا ، اما المعني العام فلا يعدو ما تفيده كلمة ضريبة بشكل عام دون تحديد أو تخصيص ، فاذا استعمل اللفظ بهذا المعنى العام وقصد به ضريبة بعينها ، فان مايليه من عبارة

هو الذي يحدد اي ضريبة قصدها صاحب النص الذي بين ايدينا ، وبذلك فان جزية على الرأس تعني ضريبة على الرأس ، وان جزية على الارض تعني ضريبة الارض . وقل الشيء نفسه مع كلمة « خراج » ، فالى جانب المعنى العام ، كان لكل من الجزية والخراج معنى خاص ، فالجزية كانت تعني ضريبة الرأس ، والخراج كان يعني ضريبة الارض(٤٠) . وتمكن دينيل دينيت بهذا الفهم للفظي « جزية وخراج » من تذليل الصعوبات التي تعترض القارىء لدى مطالعته للروايات التاريخية التي تدور حول موضوع الجزية والخراج ، وتقديم صورة متماسكة لاتبعد أقوال الفقهاء فيها عن واقع الحياة العملية للمجتمع الاسلامي .

وسنتناول موضوع تنظيم الضرائب في كل بلد على انفراد :

في العراق :

احتاج المسلمون بعد فتح العراق الى تنظيم امور المال فيه ، وجباية الاموال الموظفة عليه بطريقة ميسورة ، ذكر ابو هلال العسكري رواية عن المدائني ، وعن غيره برواية جمعية قال : لما ظهر المسلمون على السواد وفارس لم يعلموا كيف يصنعون بالخراج وجباية أهل الذمة ، وكان سعد يستعمل العامل على طسوج (الناحية) ، فيأتيه بما يجد ولا يدري كيف يعمل(٤١) ، فلما زال الخطر الفارسي وبخاصة بعد معركة نهاوند التي جرت عام ٢١ هـ ، وتوطدت اركان الحكم الاسلامي في العراق ، تيسر لعمر بن الخطاب ان يقوم بتنظيم امور السواد(٤٢) ، فكتب الى عثمان بن حنيف، وحذيفة بن اليمان اللذان كان جعلهما على سواد العراق ، ان يبعثا اليه بنفر من الدهاقين ، فلما حضروا ، سألهم عمر عما كانت ملوك الفرس تستعمله في جباية الخراج(٤٣) .

وكان ملوك فارس قبل انو شروان يقاسمون الناس على ثمارهم وغلاتهم على النصف والثلث والربع والخمس الى العشر على قدر قرب الضياع من المدن ، فأعاد قباذ بن فيروز النظر في ذلك ، وأمر بمساحة الارض وعدد النخل والشجر واحصاء الجماجم لوضع تقدير للضرائب جديد ، ومات قبل ان يتم العمل، فاستتمه انوشروان، ووضع الخراج على الحنطة والشعير والكرم والرطب والنخل والزيتون والارز على كل نوع من هذه الانواع شيئا معلوما ، ووضع الجزية على الناس ضمن اربع فئات هي: ١٢ درهما ، ٨ دراهم ، ٦ دراهم ، ٤ دراهم ، واسقطها عن أهل البيوتات ، والمرازبة، والاساورة ، والكتّاب ، ومن كان في خدمة الملك ، ومن لم يأت له عشرون سنة ، او جاوز الخمسين سنة ، ومن كان فقيرا او زمنا ، وامر ان يجبى ذلك في ثلاثة انجم من

السنة(٤٤) . فانتفع عمر من هذا الذي كان فعلــه الا كاســرة(٤٥) ، ومسح الســواد واستثنى من المساحة كل تل وأجمة ، ومستنقع ماء ، ولما لايبلغه الماء(٤٦) ، فبلغت المساحة ستة وثلاثين الف الف جريب (الجريب يعادل ٢٤٠٠ م٢) ، فوضع على كل جريب عامر او غامر يناله الماء ويطاق زرعه درهما وقفيــزا من حنطــة او قفيزا من شعير(٤٧) ، واعفيت المساكن والدور من الخراج ولم يجعل عليها شيئا(٤٨) .

ويبدو ان تعديلا طرأ على التقدير الاول للخراج بعد عام ٢٢هـ(٤٩) ، اتخذ نــوع المحصول اساسافي التقدير مراعاة للاختلاف بين الغلات والتفاضل بينهافي القيمة(٥٠)، فوضع على جريب الكرم عشرة دراهم ، وعلى جريب النخل ثمانية دراهم ، وعلىجريب القصب ستة دراهم ، وعلى جريب البر اربعة دراهم ، وعلى جريب الشعير درهمين، وعلى جريب الزيتون اثنا عشر درهما ، هذا الى غلات أخرى ، واختلافات في المقادير التي فرضت خراجا على هذه الغلات(٥١) ، اختلافات ترجع في الغالب الى التباين في الخصوبة بين المناطق المختلفة من ارض السواد ، والتمايز بين ثمار وغلاتالنوع الواحد من المحصول ، وقرب الارضين والضياع من الاســواق وبعدها (٥٢) . وظــل اتخــاذ الغلات اساسا لتقدير الخراج على الارض الى زمان علي بن ابي طالب ، اذ امر عامله على بعض الرساتيق والقرى التي يسقيها الفرات ، ان يضع على كل جريب زرع قمحا زراعة كثيفة درهما ونصفا وصاعا من طعام ، وعلى كل جريب وسط درهما ، وعــلى كل جريب رقيق الزرع ثلثي درهم ، وعلى الشعير نصف ذلك ، وعلى الجريب مــن بساتين النخل والشجر عشرة دراهم ، وعلى جريب الكرم اذا اتت عليه ثــلاث سنين ودخل في الرابعة واطعم عشرة دراهم ، واعفى كل نخل شاذ عن القرى يأكله من مر به، واعفى الخضروات مثل المقاثي(٥٣) .

واستثني من السواد ولم يعامل معاملة الخراج ، كل ارض كانت للاسرة الحاكمة (كسرى وآل بيته) ، وارض من قتل في الحرب او هرب ، وارض المعابد ، وكل مغيض ماء (المكان المنخفض الذي يجتمع فيه الماء) ، فصيرت صوافي(٥٤) تعود ملكيتها للدولة، وترك امر استغلالها الى نظر الخليفة يديرها بما هو انفع للمسلمين وبيت مالهم .وكان من يستغلها يؤدي ضريبة عنها خراجا ان كان ذمة ، او عشرا ان كان مسلما(٥٥) ، وقيل بلغت غلتها في خلافة عمر بن الخطاب سبعة الاف الف درهم(٥٦) .

كما استثني من معاملة السواد اراضي البلاد التي صالحت ، كالحيرة وبعض قرى الفرات ، وهي قليلة نسبيا ، وتركت يملكها اصحابهــا ، ويؤدون ما صولحــوا عليــه (٥٧) .

اما بالنسبة للناس في السواد ، فقد تجاذبتهم في البقاء فيه ، او الجلاء عنه ، احوال الحرب بين المسلمين والفرس من المد والجزر والامان على النفوس وغيرها ، ويذكر ان المسلمين دعوا من جلا من اهل السواد الى الاسلام والرجوع ، او الجزاء ولهم الذمة والمنعة ، فتراجعوا على الجزاء والمنعة ، ولم يبق غربي دجلة الى ارض العرب سوادي الا امن واغتبط بملك الاسلام ، وصار لهم عهد(٥٨) ، واحصوا وختموا في رقابهم ، وهو عمل يشبه اصدار الوثائق الشخصية(٥٩) (الهويات وجوازات السفر وامثالها اليوم) وبلغ من ختم عثمان بن حنيف خمسة مائة الف وخمسين الفا(٦٠) ، واخذوا بالجزية ، واسقطت عن النساء والصبيان(٦١) .

وبخصوص الجزية ، قيل ان عمر بن الخطاب اخذ اهل السواد بخراج كسرى ، وكان خراج كسرى على رؤوس الرجال على ما في ايديهم من الحصة والاموال(٦٢) ، ففرض على كل رجل منهم اربعة وعشرين درهما(٦٣) ، وقيل اخذ من كل رجل منهم اربعة دراهم في الشهر اي ما يساوي ثمانية واربعين درهما في السنة(٦٤) . والاختلاف في هذه الروايات وامثالها قد يكون اشارة الى احوال التنظيم الذي خضع له تقدير الجزية ، ويبدو ان سلم تقدير الجزية انتهى الى اتخاذ درجات ثلاث هي :

اهل اليسار ، ويدفع كل رجل منهم ثمانية واربعين درهما ، ومتوسطو الحال ، ويدفع كل رجل منهم اربعة وعشرين درهما ، ويدفع كل رجل كان من دون هذين الصنفين اثني عشر درهما(٦٥) . وروي عن علي بن ابي طالب انه امر في خلافته ان يؤخذ من اهل الذمة من كل رجل من الدهاقين الذين يركبون البراذين ، ويتختمون بالذهب ثمانية واربعين درهما ، ومن اوسطهم من التجار من كل رجل اربعة وعشرين درهما في السنة ، ومن الاكرة (الفلاحين) وسائر من بقي منهم من كل رجل اثني عشر درهما(٦٦) ، مما يشير الى سريان مفعول هذا التصنيف زمان الخلافة الراشدة .

واشتملت العهود التي اعطيت لهم ، اضافة الى الجزية ، على تقديم بعض الخدمات كاصلاح الطرق ، والجسور ، والقناطر ، وارشاد الضال من المسلمين المسافرين ، والضيافة لابن السبيل منهم يوما وليلة ، لا يتعدى ما عندهم من طعام او علف ، واذا حبسه مطر او مرض انفق من ماله(٦٧) .

واوكلت مهام جباية الاموال في السواد الى موظفين ، كان الخليفة يعينهم في كل من الكوفة والبصرة ، اطلق عليهم عمال الخراج(٦٨) . وكان هؤلاء الموظفون ، وهم مسلمون ، يستعينون في اداء وظيفتهم ب « الدهاقين » الذين كانوا يقومون بوظيفة الجباية زمان الاكاسرة . وكان عمال الخراج يتركون ما على اهل القرية من الاموال للدهقان ليقوم الدهقان بجبايتها وتسليمها لهم(٦٩) .

بلغت الجباية السنوية للسواد في خلافة عمر بن الخطاب ثمانين مليون درهم ، ثم ارتفعت الى مائة مليون درهم(٧٠) ، وقيل اكثر ، وبلغت في خلافة عثمان بن عفان مثل ذلك(٧١) . والاختلافات في مقادير الجباية ، يشير الى احوال تنظيم الجباية والزيادة في الزراعة(٧٢) . ومما يجدر ذكره ان هذه الارقام المذكورة كانت تمثل مجموع الاموال النقد وقيمة الاموال العينية ، فقد مر سابقا ان الضرائب المفروضة على الارضين كانت نقدا وعينا ، وروي عن عمر بن الخطاب ، انه كان ياخذ في الجزية من اهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة مايجب عليهم ، وكذلك كان علي بن ابي طالب يفعل ، فكان يأخذ الجزية من اصحاب الابر الابر ، ومن اصحاب المسال المسال ، ومن اصحاب الحبال الحبال(٧٣) .

الشـــام :

يلاحظ ان المسلمين كانوا يأخذون في المرحلة الاولى من فتح الشام اموالا نقـــدا وعينا رزقا لهم . ويظهر هذا في صلح بصرى الشام التي صالح اهلها خالـــد بن الوليد على ان يؤدوا عن كل حالم دينـــارا وجريب حنطة . وعلى مثـــل صلحهم صالح اهـــل مآب من ارض البلقاء ، واهل اذرعات من أرض البثنية(٧٤) ، كماصالح أهل دمشق على ان يؤدي كل رجل منهم دينارا وجريب حنطة وخلا وزيتا لقوت المسلمين(٧٥) .

ويبدو لما استقر فتح الشام ، بدأ المسلمون تنظيم العلاقة المالية مع أهل البلاد، ففرض عمر بن الخطاب الجزية على الرجال والخراج على الارض ، وذكر البلاذري ان صاحب بصرى الشام جاء عمر بن الخطاب في اثناء زيارة الاخير للشام ، فذكر له انـــه كان صالح المسلمين على طعام وزيت وخل ، فسأل عمر ان يكتب له ، فكذّب ابو عبيدة صاحب بصرى وقال : انما صالحناه على شيء ينتفع به المسلمون لمشتاهـــم ، ففرض عليهم الجزية على الطبقات والخراج على الارض ، وجعلت الجزيـــة في رقـــاب اهل الذمة ، والخراج على الارض ، في فلسطين والاردن وباقي بلاد الشام(٧٦) .

وبخصوص الجزية على رؤوس اهل الذمة ، جعل عمر على اهل الورق منهم على كل رجل اربعين درهما ، وعلى اهل الذهب اربعـــة دنانير ، وصيرهم طبقـــات لغنى الغني ،واقلال المقل ، وتوسط المتوسط ، أي اربعين وعشرين وعشرة من الدراهم ، واربعة واثنين وواحدا من الدنانير . ويروى عن الاوزاعي بهذا الخصوص ان الجزيـــة بالشام ، كانت في باديء الامر جريبا ودينارا على كل جمجمة ، ثم وضعها عمر على اهل الذهب اربعة دنانير ، وعلى اهل الورق اربعين درهما ، وجعلهم طبقات لغنى الغني ، واقلال المقل وتوسط المتوسط(٧٧) .

واذا قدرنا سعر الصرف للدينار الواحد باثني عشر درهما ، تكون طبقات الجزية في بلاد الشام ثمانية واربعين ، واربعة وعشرين ، واثني عشر من الدراهم ، واربعة ، واثنين ، وواحدا من الدنانير ، وهو ما يشبه حال الجزية على اهل الذمة في العراق .

وقد تكون الارزاق التي قدرها عمر بن الخطاب للمسلمين في بلاد الشام على اهل الذمة من أهل الرساتيق والريف ، تمثل الخراج الذي وضع على الارضين ، حيث ذكرت الروايات ان المسلمين وضعوا الجزية على اهل الذمة في الشام ، وجعلوا على اهل الرساتيق والريف ارزاق المسلمين من الحنطة والزيت : مديان من الحنطة وثلاثة اقساط زيتا في كل شهر لكل انسان ، وشيئا من الودك (الدهن) والعسل ، وضيافة من نزل بهم ثلاثا ، يأكل الضيف مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة ولا ذبح دجاجة ، وان عليهم ارشاد الضال ، وان يبنوا القناطر من اموالهم(٧٨) .

الا ان بعض المناطق في الشام كان لها اوضاع مختلفة ، فروي ان اهل اللاذقية صالحوا على خراج يؤدونه ان قلوا او كثروا(٧٩) ، وصولح اهل السامرة وهم يهود ، على جزية رؤوسهم ، واعفوا من خراج الارض ، لانهم كانوا عيونا وادلاء للمسلمين على البيزنطيين(٨٠) .

وبخصوص الارزاق للمسلمين ، جاء تقديرها على اساس ما يكفي الواحد من المؤونة في الشهر . ويذكر ابن عساكر بخصوص ذلك ، ان عمر بن الخطاب ، في اثناء زيارته للشام ، دعا (ابن قاطورا) صاحب الارض ، فدبر معه مقدار مايكفي الرجل الواحد في الشهر ، فوجد انه يكفيه مديان من قمح ، وقسط زيت ، وقسط خل ، فأمر عمر بذلك (٨١) .

وورود اسم (ابن قاطورا) صاحب الارض في خبر ابن عساكر ، اشارة الى استعانة المسلمين بغيرهم في امور الخراج في الشام ، على نحو ما استعانوا بالدهاقين في سواد العراق .

اما الاراضي التي كانت زمن البيزنطيين من الضياع الامبراطورية ، والملكيات الصغيرة ، والضياع الخاصة وامثالها(٨٢) من تلك التي هرب قوامها والمشرفون عليها وملاكوها ولحقوا بالبيزنطيين ، او قتلوا في المعارك ، فانها صيرت من « الصوافي » ، وجعلت الى نظر الخليفة مثل صوافي السواد في العراق ، وكان من صوافي الشام ، اندركيسان بدمشق ، وقبيس بالبلقاء ، وجيعانا على باب حمص(٨٣) .

وبخصوص جباية الشام فالمقدار غير متيسرة معرفته زمن الخلفاء الراشدين ، الا ان نعتد بما ذكره اليعقوبي عن جباية الشام في خلافة معاوية بن ابي سفيان التي بلغت قرابة مليون ونصف دينار (٨٤) ، وبلغت في خلافة هارون الرشيد مثل ذلك ، أي مليون ونصف دينار ، اضافة الى ثلاثمائة الف رطل من الزبيب(٨٥) ، في حين انخفضت في خلافة المأمون الى سبعمائة وخمسة وسبعين الف دينار(٨٦) .. ويبدو ان ذلك الانخفاض يعود في بعض اسبابه الى الحرب الاهلية التي وقعت بين الامين والمأمون .

الجزيرة :

كانت الجزيرة تخضع في بعضها الذي يقع شمال العراق لسلطان الساسانيين ، وتخضع في بعضها الاخر الذي يقع شمال الشام لسلطان البيزنطيين . فلما فتحت الشام ، توجه عياض بن غنم الى فتحها ، فحاصر مدينة الرقة حتى طلب بطريقها الامان منه ، فاجابه عياض الى ذلك ، واقر الارض في ايديهم على الخراج ، ووضع الجزية على رقابهم ، دينارا في كل سنة على كل رجل منهم ، وجعل عليهم مع الدينار اقفزة من قمح ، وشيئا من زيت وخل وعسل(٨٧) .

ويبدو انه على مثل هذا الصلح ، اضافة الى ارشاد الضال واصلاح الجسور والطرق ، عوملت مدن الجزيرة : الرها ، وحران ونصيبين ، وميافارقين ، وقرقيسيا ، وآمد ، وحصن ماردين ، ودارا ، وغيرها من مدن الجزيرة(٨٨) .

ولما فتحت عانات وسائر حصون الفرات ، اراد عمير بن سعد الانصاري من كان هناك من بني تغلب على الاسلام فأبوه ، وهموا باللحاق بارض الروم ، فصالحهم المسلمون على ان اضعفوا عليهم الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل زرع وماشية ومال(٨٩) .

استمر اخذ المال النقد والمواد الغذائية من اهل الجزيرة فترة ، ثم خفف عمربن الخطاب عنهم ، وقومها جميعا مالا نقدا وجعلها على الطبقات : ٤٨ ، ٢٤ ، ١٢ من الدراهم ، أو ٤ ، ٢ ، ١ من الدنانير(٩٠) . وتداول الدراهم والدنانير في الجزيرة يعود الى خضوع بعض الجزيرة لحكم الساسانيين وعملتهم الدراهم ، وخضوع بعضها الآخر لحكم البيزنطيين وعملتهم الدنانير(٩١) .

ومبلغ جباية الجزيرة في السنة زمن الخلفاء الراشدين غير مذكور ، ولكن اليعقوبي يذكره في خلافة معاوية بين ابي سفيان بخمسة وخمسين مليون درهم(٩٢) ، وهي اشارة تدل على خصوبة المنطقة وثرواتها الوفيرة .

مصر :

فرض عمرو بن العاص في اثناء دخوله مصر عام ١٩هـ الجزية على أهل (ام دنين) دينارا لكل رجل من اصحابه ،وجعل مع الدينار جبة وبرنسـا وعمامة وخفـين لكل واحد منهم(٩٣) .

وبعد ان تم فتح حصن اليونة (الفسطاط) ، اقر عمرو اهلـه على انهم ذمـة ، ووضع الجزية في رقابهم والخراج في ارضهم(٩٤) .

ويبدو ان البلاد من حول اليونة، دخلت فيما دخلت فيه اليونة، فقيل أن صاحب اليونة ، لما فرغ من امر الاتفاق عن مدينته مع عمرو ، صالح عن جميع أهل مصر على مثل صلح مدينته(٩٥) . الا ان حسم الموقف في مصر جاء من الاسكندرية معقل البيزنطيين الاخير في مصر ، ومركز تجمعهم بعد فتح اليونة ، فلما هزم البيزنطيون في المرة الاولى عام ٢١ هـ ، والثانة عام ٢٣ هـ وعجزوا عن الاحتفاظ بالاسكندرية فضلا عن استعادة مصر ، صارت مصر كلها في سلطان المسلمين .

وبالرغم مما جاء عن الاسكندرية وبعض قرى مصر مثل : سلطيس ، ومصيل ، وبلهيب ، التي عاندت المسلمين وساندت البيزنطيين ، وقيل فتحت عنوة ، وان لاعهد ولا عقد لها ، فان الروايات تكاد تكون متشابهة في ذكر الفرائض الماليـة التي وضعت على مصر .

ففي رواية ، قيل ، كان صلح اهل مصر دينارين على كل انسان جزية وارزاق المسلمين(٩٦) .

وفي رواية ثانية، قيل،كانت مصر كلها صلحا بفريضة دينارين دينارين، على كل رجل، لا يزاد على أحد منهم في جزية رأسه أكثر من دينارين ، الا انه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الارض والزرع(٩٧) . والاشارة الاخيرة في هذه الرواية تقوم مقام الارزاق للمسلمين التي ذكرت في الرواية الاولى .

وفي رواية اخرى ، قيل اقر عمرو بن العاص أهل مصر على انهم ذمة ، ووضـع الجزية في رقابهم ، والخراج في ارضهم(٩٨) .

وتكاد الروايات تتفق على ان جزية الرأس كانت دينارين على كل حالم ليس فيهم امراة ولا صبي ولا شيخ ، وتتفق كذلك في وضع ضريبة الخراج ، الا انها تختلف بعض

الشيء في مقدارها ، فقيل ألزم كل ذي أرض مع جزية راسه ثلاثة أرادب حنطة ، وقسطي زيت ، وقسطي عسل ، وقسطي خل ، رزقا للمسلمين(٩٩) ، وقيل جعل على كل جريب من الارض دينار ، وثلاثة ارادب طعاما(١٠٠) .

ومما يشير الى اخذ جميع مصر بنفس المعاملة من وضع الجزية والخراج ، أن ابن شهاب الزهري يذكر ان فتح مصر كان بعضها بعهد وذمة ، وبعضها عنوة ، فجعلها عمر بن الخطاب جميعا ذمة وحملهم على ذلك(١٠١) .

والى جانب ما ذكرنا من الفرائض المالية ، قيل ان المسلمين احصوا في مصر ، والزم أهل مصر بتقديم كسوة كاملة من الملابس لكل واحد من المسلمين في كل عام، وكانت كسوة الشخص الواحد تتألف من جبة صوف ، وبرنس ، وعمامة ، وسراويل، وخفين ، هذا الى جانب اقامة الانزال ، والضيافة للمسلمين ثلاثة ايام(١٠٢) .

ويبدو ان الفرائض العينية ، على نحو ما يذكر الليث بن سعد ، قومت في فترة تالية من خلافة عمر بن الخطاب نقدا ، وصار كل حالم من اهل الذمة بمصر يدفع اربعة دنانير ، دينارين جزية رأسه ، ودينارين عوضا عن الفرائض العينية(١٠٣) .

ولكن الروايات التي تذكر ما كانت تقدمه ولاية مصر من الغلال الى اهل الحجاز في خلافة عمر بن الخطاب ومن جاء بعده(١٠٤) ، والكتاب الذي اورده دينيل دينيت في مؤلفه موجها من قرة بن شريك الى أهل باكونيس من كورة افروديتي وفيه :انه اصابكم من جزية سنة ثمان وثمانين ، اربعمائة دينار وثمانية وتسعون ، ومن ضريبةالطعام ، مائة وثمانية وعشرون اردب قمح ونصف اردب ، ونصف ويبة(١٠٥) ، لتدل على ان الالتزام بهذه القاعدة ، والغاء الفرائض العينية التي كانت تؤخذ الى جانب الفرائض النقدية ، لم يكن عاما ودائما .

انتفع المسلمون في ادارة الامور الماليةفي مصر بالخبرات الادارية المحلية، واستعانوا بالجهاز الاداري السابق في امور الخراج على نحو ماجرى في العراق والشام، ويبدو هذا واضحا في الرواية التي يذكرها المقريزي(١٠٦) عن زيد بن اسلم قال ، لما استبطأ عمر بن الخطاب عمرو بن العاص في الخراج ، كتب اليه ان يبعث رجلا من القبط من أهل مصر ، فلما حضر القبطي ، استخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الاسلام ، وعن وجوه عمارتها ، كما يبدو ذلك واضحا في طريقة جباية الخراج .

وبخصوص طريقة جباية الخراج ، روى ابن عبد الحكم (١٠٧) قال ، لما استوسق

الامر لعمرو بن العاص اقر قبط مصر على جباية الروم ، وكانت جبايتهم بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر اهلها زيد عليهم ، وان قل اهلها وخربت نقصوا ، فكان يجتمع عرفاء كل قرية (ورويت عرافسوا ، وعرافسى ، وعسرافسوا) وماروتها ، ورؤساء اهلها ، فيتناظرون في العمارة والخراب ، حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة ، انصرفوا بتلك القسمةالى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى ، فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ، ثم ترجع كل قرية بقسمهم ، فيجمعون قسمهم ، وخراج كل قرية وما فيها من الارض العامرة ، فيبتدئون ويخرجون من الارض فدادين لكنائسهم، وحماماتهم ، ومعدياتهم من جملة الارض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ، ونزول السلطان ، فاذا فرغوا ، نظروا الى ما في كل قرية من الصناع والاجراء، فقسموا عليهم بقدر احتمالهم ، فان كانت فيهم جالية قسموا عليهابقدر احتمالها، ثم ينظرون مابقي من الخراج ، فيقسمونه بينهم على عدد الارض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم ، فان عجز احد وشكا ضعفا عن رزع ارضه ، وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال ، وان كان منهم من يريد الزيادة أعطي ما عجز عنه اهل الضعف ، فان اختلفوا قسموا ذلك على عدتهم ، وكانت قسمتهم على قراريط الدينار اربعة وعشرين قيراطا يقسمون الارض على ذلك .

بلغت جباية مصر السنوية مليونين من الدنانير في ولاية عمرو بن العاص ، ثم ارتفعت في ولاية عبد الله بن سعد زمان عثمان بن عفان الى اربعة ملايين(١٠٨) ، فقال عثمان لعمرو : يا عمرو ، هل تعلم ان تلك اللقاح درت بعدك !، فقال عمرو ،ان فصالها هلكت(١٠٩) . وقد لاتكون الزيادة راجعة الى التشديد والزيادة في الجباية فحسب،بل قد تعود ايضا الى تقويم الضرائب العينية وأخذها نقدا .

وقيل بلغت جباية مصر زمن عمر بن الخطاب اثني عشر مليون دينار(١١٠) ، وقيل اربعة عشر مليون دينار(١١١)، وقيل جناها عمرو بن العاص عشرةملايين(١١٢)، وجباها في العام المقبل اثني عشر مليونا(١١٣) ، وجباها عبد الله بن سعد اربعة عشر مليونا(١١٤) ولكن المرحوم الريس ، يستبعد اكثر هذه التقديرات ، ويرى ضمن الادلة التي يحتج بها ، ان جباية مصر في عهد الامويين والعباسيين كانت اربعة ملايين ، ولم يحدث مابين خلافة عثمان بن عفان وخلافة معاوية من فساد او خراب في الارض نحو ما يذكر المقريزي(١١٥) ، حتى تهبط جباية مصر من اربعة عشر مليون دينار كانت تؤديها في عهد الراشدين ، الى أربعة ملايين في عهد الامويين والعباسيين . لذلك فانه يرجح ان جباية مصر كانت زمن الراشدين اربعة ملايين دينار(١١٦) .

هذا الى ما كان من فتح برقة زمن عمر بن الخطاب ، حيث صالح عمرو بن

العاص اهلها على جزية قدرها ثلاثة عشر الف دينار سنويا ، كانوا يدفعونها الى والي مصر مـن غـير ان يأتيهـم حـاث او مسـتحث(١١٧) . وفتحت أطرابلـس عـام ٢٢هـ (١١٨) ، وفتحت افريقية عام ٢٧ هـ في خلافة عثمان ، وصالحأهلها على مليونين ونصف من الدنانير ، ولكن المسلمين لم يدخلوها ثانيـة الا في خلافة معاويـة بن ابي سفيان(١١٩) ، وغزا المسلمون جزيرة قبرص عام ٢٨ هـ ، وقيل عام ٢٩ هـ في خلافـة عثمان ، وصالح اهلها على جزية سنوية مقـدارها سبعة الاف دينـار(١٢٠) . وغـزا المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب النوبة وصالحوهـم على الهدنة واقامـة علاقات تجارية بين الجانبين(١٢١) .

شرق العراق وخراسان :

لما جاء عمر بن الخطاب خبر فتح نهاوند عام ٢١هـ ، أذن للمسلمين بالانسـياح في البلاد الشرقية(١٢٢) . وقد حقق المسلمون في هذا الوجه نصرا كبيرا ، وبدأت حواضر هذه البلاد تجيب المسلمين الى الجزاء والمنعة ، فعقد المسلمون لهم الذمـة وكتبـوا العهود والمواثيق .

قيل صالح أهل مدينة نهاوند عام ٢١هـ على الخراج والجزية(١٢٣) ، وصالح على مثل صلحهم ، اهل الدينور ، وما سبذان ، ومهرجا نقذق ، وقزوين ، وزنجان ، وهمذان . ونكثت همذان ، ففتحت ثانية في خلافة عثمان ، ودفعت للمسلمين مائـة الف درهم(١٢٤) . ولا تذكر الروايات بصدد الفريضة المالية على هذه المدن ، شيئا عن مقاديرهـا .

وقيل صالحت بعض المدن الاخرى على الجزية في كل سنة على قدر طاقـة كل حالم فيها ، وعلى ان ينصحوا للمسلمين ، ويدلوهم على الطريق ، ويقروا ضيفهم يوما وليلة(١٢٥) ، وعلى مثل هذا ، صالحت ماه بهراذان ، وماه دينار عام ٢١هـ ، وصالحت ألري وقومس عام ٢٢هـ ، وقيل صالحت على الجزية والخراج ، واعطوا خمس مائـة الف درهم ، وان يكونوا اسوة أهل نهاوند في خراجهـم(١٢٦) . وصالحت اذربيجـان عام ٢٢هـ وقيل صالحت على ثمان مائة الف درهم ، وقيل صالحت على مائـة الف درهم(١٢٧) . وصالحت الباب وتوّج ، واصطخر ، وقم ، وقاشان ، واصبهان ، وقيل صالحت على الجزية والخراج ، وان اشرافها ، أي اشراف اصبهان ، انفوا من الجزية فاسلموا ، وادوا الخراج(١٢٨) .

وصالحت الاهواز عام ١٦ هـ على مليونين وثمان مائة وتسعين الف درهم ، ثـم

نقضت ، ففتحت ثانية عام ١٧ هـ ، ووظف عمر بن الخطاب عليها عشرة ملايين واربع مائة الف درهم ، ثم ردها الى الجزية(١٢٩) . وصالح اهل سابور عام ٢٦هـ على ثلاثة ملايين وثلاث مائة الف درهم(١٣٠) ، وصالح اهل ارجان واهل دارابجرد عام ٢٧ هـعلى مليونين ومائتي الف درهم لكل منهما (١٣١) .

وقيل فتحت خراسان خلا مرو عام ٢٢ هـ وصالحت على مليونين ومائتي الف اوقية(١٣٢) ، ثم نقضت زمان عثمان بن عفان فسار اليها عبد الله بن عامر عام ٣١هـ وفتحها . وصالحت مرو على مليونين ومائتي الف درهم(١٣٣) ، وصالحت ابرشهر على مليون درهم وطعام ، وصالحت بلخ على اربع مائة الف درهم ، وصالحت سرخس على مائة وخمسين الف درهم(١٣٤) ، وصالحت نيسابور على مليون ، ويقال سبع مائة الف درهم ، وصالحت نسا على ثلاث مائة الف درهم ، وصالحت ابيورد على اربع مائة الف درهم ، وصالحت طوس على ست مائة الف ، وصالحت هراة وبوشنج وباذغيس على الجزية ، وقيل على مليون درهم تقسم على الارض عدلا بينهم(١٣٥) ، ثم انتقضت خراسان في خلافة علي بن ابي طالب ، فلم تزل منتقضة حتى قتل(١٣٦) .

وصالحت زرنج من سجستان عام ٣٠ هـ على الف وصيف ، مع كل وصيف جام من ذهب(١٣٧) . وصالح دهقان زالق من سجستان المسلمين ، وان يكون بلده كبعض ما افتتح من بلاد فارس وكرمان(١٣٨) . وغزا الحارث بن مرة العبدي في خلافة علي بن ابي طالب السند فظفر واصاب مغنما وسبيا(١٣٩) .

اما بخصوص طريقة الجباية ، فنلاحظ ان الذين تولوا مصالحة المسلمين ، كانوا اولي الامر في الحكومة المحلية في المدينة ، او امير المدينة الحاكم ، او صاحب الاقليم ، فيروى ان (الفرخان) صالح المسلمين عن الري وقومس ، وصالح مرزبان اذربيجان على جميع اهل اذربيجان ، وكان اليه جباية خراجها ، وصالح دهقان الاهواز المسلمين على مال ، وصالح الهربذ على دارابجرد ، وصالح عظيم فسا على مثل صلح دارابجرد ، وصالح دهقان زالق ، ودهقان زرنج من سجستان ، وصالح مرزبان نيسابور على جميع نيسابور بوظيفة يؤديها للمسلمين قيل كانت مليون درهم ، وصالح مرزبان الطالقان والفارياب ، وصالح صاحب نسا ، وصاحب سرخس . وفي خلافة علي بن ابي طالب ، قدم مرزبان مرو الى علي بن ابي طالب في الكوفة ، فكتب له علي الى الدهاقين والاساورة والدهشلارية ، ان يؤدوا اليه الجزية ، وكانت مرو صالحت المسلمين على مليونين ومائتي الف درهم ، وان عليهم قسمة المال ، وليس على المسلمين الا قبضها(١٤٠) ، وهذه اشارات تدل على ان المسلمين جعلوا جمع الفرائض المالية الى الرؤساء المحليين ، والعظماء ، والامراء ، فكان اذا جمع هؤلاء المال ، دفعوا للمسلمين ما صالحوا عليه ،

وهذا خلاف ما كان عليه الحال في سواد العـراق ، حيث كان عمـال الخراج مـن المسلمين يمسكون بزمام الامور الماليـة في سواد العراق ، ويستعينون على جمعهـا بالدهاقين ، اما في هذه البلاد ، فكان الرؤساء المحليون هم الذين يمسكون بزمام الامور المالية ، ويدفعون من المال للمسلمين ما صالحوهم عليه .

اما مقدار الجباية السنوية فغير معلوم ، ولا يمكن اجراء حساب عام لها ، لعدم توافر المعلومات عن مقدار الجزية في كل بلد ، وما ذكره الجهشياري عن جباية هـذه البلاد زمن الخليفة الرشيد ، ومقداره يزيد على مائة وخمسين مليون درهم فضلا عـن الاشياء العينية(١٤١) ، لا يفيد شيئا في اعطاء فكرة عن جباية هذه البلاد زمن الراشدين، لاسباب يعود بعضها الى اختلاف رقعة البلاد بين العهدين .

★ ★ ★

والى جانب الفرائض الماليـة التي كانت تجبى من النـاس والارض في البـلاد المفتوحة ، تناولت التنظيمات زمن الراشدين فرائض المال على التجارة .

عرف المال الذي كان يؤخذ من اهل التجـارات في فترة ما قبـل الاسلام باسم العشور او المكوس ، وكانت العرب تتعامل به في اسواقها التي كانت تعقدها للتجارة. ويروى من هذا القبيل ان اكيدر السكوني ، وقنافة الكلبي كان من ولي منهما سـوق دومة الجندل يأخذ العشور من التجار الذين كانوا يحضرون السوق ويبيعون بضاعتهم فيها ، وكان بنو تميم يعشرون التجار في سوق المشقر ، وكان الجلنـدي بن المستكبر يعشر التجار في سوق دبا وفي سوق صحار بعمان ، وكانت الابناء تعشر التجار في سوق عدن وسوق صنعاء(١٤٢) ، فلما جاء الاسلام الغيت المكوس ، ولم يجز الرسول (ص) لمسلم ان يأخذ مكساً من تجار المسلمين ، ومما روي عنه (ص) لا يدخل الجنة صاحب مكس » (١٤٣) ، وكتب لمن اسلم من اهل الامصار مثل ثقيف واهـل البحرين ودومـة الجندل وغيرهم ، انهم لا يحشرون ولا يعشرون(١٤٤) ، فلما كان زمن عمر بـن الخطاب وفتحت البلاد ، كتب زياد بن حدير اليه في تجار الحرب الذين يأتون ديـار الاسلام ، فكتب اليه عمر ، ان يأخذ منهم مثلما يأخذون من تجار السلمين(١٤٥) ، وقيل أخذ من تجارات أهل الحرب العشر على حسب ما كانوا يفعلون بمن يدخـل اليهم من تجـار المسلمين ، فانهم كانوا يأخذون من اموال المسلمـين وامتعتهم اذا أدخلوهـا بلدهم العشر(١٤٦) . وروي عن عمر انه كتب ايضا بخصوص تجار الحرب ، قال : « من اقام

منهم ستة اشهر فخذمنه العشر ، ومن اقام سنة فخذ منه نصف العشر»(١٤٧) . ولعل عمر بن الخطاب فعل ذلك بقصد الدعاية للاسلام او تقوية الحركة التجارية(١٤٨) ، ومن هذا القبيل ، كان الخليفة عمر يأخذ من تجـار النبط الذين كانوا يأتون سوق المدينة بالزيت والحنطة من الشام نصف العشر لكي يكثر الحمل الى المدينة(١٤٩) .

ولم يقتصر اخذ العشور على تجار اهل الحرب ، وانما شمل تجار اهـل الذمة وتجار المسلمين . روى ابو عبيد أن انس بن سيرين كتب لانس بن مالك سنة عمـر فجاء فيها : يؤخذ من المسلمين من كل اربعين درهما ، درهم ، ومن أهل الذمة من كل عشرين درهما ، درهم ، ومن لاذمة له (تجار الحرب كانوا يفدون الى دار الاسلام) من كل عشرة دراهم ، درهم . وذكر زياد بن حدير قال ، استعملني عمر على العشر فأمرني أن آخذ من تجار المسلمين ربع العشر ، ومن تجار اهل الذمـة مثلي ما آخـذ من تجار المسلمين ومن نصارى بني تغلب العشر(١٥٠) .

غير ان العشور على تجار الذمة ، وتجار المسلمين ، لم توضع على جهـة مكوس الجاهلية وعشورها ، وانما وضعت على جهة اخرى . فبالنسبة لاهـل الذمـة قيل صالحوا على ذلك صلحا ، واقروا على ان يدفعوا من اموالهم التي يختلفون بها للتجارة من كل عشرين درهما ، درهما ، فكان يؤخذ منهم نصف العشر .

واما بالنسبة لتجار المسلمين ، فالفريضة التي كانت تؤخذ من تجارتهم ، كانت تؤخذ منهم على جهة الزكاة المفروضة في اموالهم كل سنة ومقدارها ربع العشر ، واموالهم التي يؤخذ منها ربع العشر ، هي الاموال التي يطلق عليها « الصامتة » ، أو « الاموال الباطنة » من الذهب والفضة وعروض التجارة ، وسميت بذلك لامكان اخفائها ، وهي غير الاموال الظاهرة من الماشية والحرث والنخل (١٥١) .

كان الخليفة ابو بكر ، اذا اراد ان يعطي المرء نصيبه من المال سأله ان كان عنده مال قد حلت فيه الزكاة ، فان اخبره ان عنده مالا قد حلت فيه الزكاة ، قاصه مما يريد ان يعطيه . وكذلك كان عثمان بن عفان يفعل في خلافته ، فكان اذا خرج عطاء احدهم ، سأله ان كان عنده مال وجبت فيه الزكاة ، فان كان عنده مال وجبت فيـه الزكاة ، حاسبه به من عطائه(١٥٢) ، وقيل ترك عثمان أمر زكاة الاموال الظاهرة الـى اصحابها يخرجونها بأنفسهم(١٥٣) .

فلما كثرت الفتوح ، وتصرفت التجار في البلدان ، جعل الخليفة عمر بن الخطاب العشارين ليأخذوا زكاة ما يمر بهم من اموال التجار ، ويعتبروا النصاب والحول(١٥٤) .

قال انس بن مالك ، بعثني عمر بن الخطاب على جباية العراق وقال : اذا بلـغ مال المسلم مائتي درهم فخذ منها خمسة دراهم ، وما زاد على المائتين ، ففي كل اربعين درهما ، درهم(١٥٥) . وذكر الشيباني ان عمر بن الخطاب بعث زياد بن جرير (وقيل بن حدير) مصدقا الى عين النمر ، وأمره بان ياخذ من كل من يمـر عليه بمالـه مـن المسلمين ولم يؤد ذكاته ، ان يأخذ من أموالهم ربع العشر ، ومن اهل الذمة اذا اختلفوا بها للتجارة نصف العشر ، ومن اموال اهل الحرب العشر ، وجعل عمر بن الخطاب نفقـة العاشر ، اي المصدّق ، من المال الذي يأخذه منهم(١٥٦) .

اما بخصوص زكاة الاموال الظاهـرة ، فان ابا بكر حارب القبائـل التي منعتها ورفضت تأديتها الى عمال الصدقات الذين كان بعثهم اليهم ليأخذوها ، فلما اعيدوا الى الطاعة صار عمال الصدقات يخرجون اليهم يأخذونها منهم في مياههم وبأفنيتهم ، ولا يكلفونهم الانتقال بمواشيهم من مواضعهم اليهم يبتغون التيسير عليهم ، وقد ارشد الرسول عليه السلام الى ذلك من قبل قال : « ... ولا تؤخذ صدقات المسلمين الا على مياههم وبأفنيتهم »(١٥٧) . وكان الخلفاء ، ابو بكر وعمر وعثمان وعلي ، يوصون عمـال الصدقات الا يأخذوا حرزات المسلمين ، اي خيار اموالهم ، فلا يأخذوا الربي ، وهي الشاة التي يتبعها ولدها ، ولاالماخض ، أي الحامل ، ولا ذات الدر ، ولا الشاة السمينة التي اعدها اهلها للذبح ، لما يحدث ذلك من الضرر لاصحاب المال ، والضفينة عندهم ، وان لا يأخذوا الهرمة وذات العوار وامثالهما ، لما في ذلك من الحاق الاذى بالمصلحـة العامة ، وكان عمال الصدقات يفرقون المال ثلاث فرق ، ثم يختار صاحب المال ثلثا ، ويأخذ المصدق الزكاة من الثلث الثاني . وكان بمقدور رب الماشية ان يبادل بما عنده الى صنف اخر ، كأن يبادل معزى ببقر ، او ابلا ببقر ، أو أن يدفع مالا نقدا ، دون أن يجبر احد على ذلك ، وانما كان يقبل ذلك تيسيرا على الذين يؤخـذ منهـم ، ووفاء للذين تؤخذ لهم(١٥٨) .

روي عن ابي بكر قال ، اذا تباينت أسنان الابل في فرائض الصدقات ، فمن بلغت عنده صدقة الجذعة ، وليست عنده جذعة ، وعنده حقة ، فانها تقبل منه ، ويجعل معها شاتين ، ان استيسرتا له ، او عشرين درهما ، ومن بلغت عنده صدقة الحقة ، وليست عنده الا جذعة ، فانها تقبل منه ، ويعطيه المصدق عشرين درهما ، أو شاتين . وجاء عن معاذ بن جبل وعلي بن ابي طالب مثل ذلك(١٥٩) .

كانت جباية الصدقات تتم بعد ان يكون اصحاب الماشية قد تجمعوا على مياههم وبأفنيتهم ، ورجعوا بمواشيهم من المواضع التي كانوا يرتادونها في فصـل الربيع للكلأ والمرعى ، وكان ذلك يحدث عادة في فصل الصيف ، وروي عن عمر بـن الخطاب انـه

كان يبعث عمال الصدقات في قبل الصيف ، وروي عن مالك بن انس قال ، سنة السعاة (عمال الصدقات) أن يبعثوا قبل الصيف ، وحين تطلع الثريا ويسير الناس بمواشيهم الى مياههم ، لان ذلك رفق بالناس باجتماعهم على الماء، وعلى عمال الصدقات لاجتماع الناس بالناس . واحب الشافعي ان يكون اخذها في شهر المحرم ، كان المحرم في الصيف او في الشتاء(١٦٠) .

وكانت الصدقة بعد ان تجمع ، تقسم في فقراء القوم الذين من ارباب الاموال فيهم اخذت الزكاة ، فان فضل شيء ، ففي فقراء القوم الذين يلونهم وهكذا(١٦١) . فاذا توفر شيء من اموال الزكاة بعد ان يكون قد فرغ من سد حاجة اصناف مستحقيها ، حمل الى المدينة . ومما روي في هذا السبيل ان معاذ بن جبل كان يصدق الناس في اليمن زمن النبي (ص) وابي بكر ، ثم زمن عمر ، فبعث الى عمر بثلث صدقة الناس ، فانكر ذلك عمر وقال ، لم ابعثك جابيا ولا آخذ جزية ، ولكن بعثتك لتأخذ من اغنياء الناس فتردها على فقرائهم ، فقال معاذ ، مابعثت اليك بشيء وانا أجد احدا يأخذه مني ، فلماكان العام الثاني بعث اليه شطر الصدقة ، فتراجعا بمثل ذلك ، فلما كان العالم الثالث بعث اليه بها كلها، فراجعه عمر بمثل ما راجعه قبل ذلك ، فقال معاذ: ما وجدت احدا يأخذ مني شيئا(١٦٢) .

ودفع من كان مسلما من اهل البلاد المفتوحة ما عليه من زكاة في مواشيه وزروعه. ذكر البلاذري ان الاعشار في بلد ، وديار ربيعة ، هي اعشار ما اسلمت عليه العرب او عمرته من الموات(١٦٣) . وبامتداد الاسلام الى خارج شبه الجزيرة ، صادف المسلمون في البلاد المفتوحة من الزروع مااختلف في الوفرة والنوع عما كان مألوفا في شبه الجزيرة، وهو امر سيؤدي الى اختلاف الآراء حول ما يجب فيه الزكاة من الزروع وما لا يجب فيه ، للتنوع من جهة ، والوفرة التي جعلتها في عداد الثروة الاقتصادية في هذه البلاد من جهة اخرى ، ونذكر من هذه الزروع ، القطاني بانواعها ، والزيتون ، والسلت والذرة(١٦٤) .

اما بخصوص مقادير اموال الزكاة التي كانت تجبى كل عام فأمر غير معروف ، والاشارات التي تذكر بعض الارقام اشارات جزئية وغير دقيقة ، ولا تنفع في اعطاء تقدير كلي ، قيل ان عمر بن الخطاب حمى ارض الربذة لنعم الصدقة ، وكان يحمل عليها في سبيل الله ، وكان مقدار ما يحمل عليه كل عام في سبيل الله اربعين الفا من الظهر(١٦٥) ، وولى عثمان بن عفان الحكم بن ابي العاص صدقات قضاعة ، فبلغت ثلاث مائة الف درهم(١٦٦) .

★ ★ ★

وبعد هذا ، ننتقل الى الحديث عن الاثار الاقتصادية التي ترتبت على فتح البلاد المحيطة بشبه الجزيرة العربية ، وما اتخذ فيها من التنظيمات ، ودور ذلك في حياة الدولة والناس .

اما بالنسبة للدولة ، فقد ادت الفتوحات على التدريج الى كثرة الاموال التي صارت تؤول الى نظرها ، مما جعل دورها يكبر في حياة الناس اكثر فاكثر ، وكان في خلافة ابي بكر ، اذا جاءه المال قسمه بين الناس على السوية ، فقيل جاءه مال من البحرين ، فأعطى كل انسان كان رسول الله (ص) وعده شيئا ، وكان جابر بن عبد الله قال لابي بكر، قال لي رسول الله (ص) ، لو جاء مال البحرين اعطيتك هكذا وهكذا يشير بكفيه ، فقال له ابو بكر خذ ، فأخذ بكفيه ، ثم عده فوجده خمسمائة ، ثم قال له ،خذ اليها الفا وبقيت بقية من المال قسمها بين الناس بالسوية ، على الصغير ، والكبير ، والحر ، والمملوك ، والذكر ، والانثى ، فأصاب كل انسان سبعة دراهم وثلث الدرهم ، فلما كان العام المقبل ، جاءه مال كثير هو اكثر من ذلك فقسمه بين الناس ، فأصاب كل انسان عشرين درهما ،ومرة اخرى جاءه مال فقسمه بين الناس ، فأصاب كل انسان نصف دينار ، وطالبه بعض الناس بتفضيل اهل السوابق والقدم والفضل في القسم فقال ، فما اعرفني ذلك ، وانما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش ، فالاسوة فيه خير من الاثرة(١٦٧) .

ومنذ خلافة عمر بن الخطاب ، كثرت الاموال لاتساع الفتوح وامتدادها ، وضمن قرار وقف الارض المفتوحة ، وعدم قسمتها بين الغانمين ، موردا ماليا ثابتا للدولة . واذا جمعنا ما كان يؤخذ من الاموال من ارض العنوة ، وارض الصلح ، ومن أهل الذمة جزية وضريبة على التجارة ، ومن اهل الحرب اذا دخلوا بلاد الاسلام للتجارة ،(١٦٨) صار ما مقداره سنويا ، عدا الاموال العينية ، عشرين مليون دينار تقريبا ،(١٦٩) زد عليه او انقص منه قليلا ، الامر الذي شجع عمر بن الخطاب عام ٢٠هـ على سن الرواتب السنوية للمسلمين .

لم يتبع عمر التسوية في العطاء ، وانما آثر التفضيل ، وجعل السبق الى الاسلام والقرابة من الرسول (ص) اساسا في تقدير الرواتب ، واتخذ المشاهد المشهورة في تاريخ الدعوة الاسلامية معالم في ترتيب الناس على طريق السبق وتقدير الرواتب ، فجعل بدرا ، والحديبية ، وفتح مكة ، وحرب الردة ، والحروب الاولية التي عرفت بـ « الايام » في العراق والشام ، والقادسية واليرموك ، وما بعدها ، علامات في تدريج الرواتب والتفاضل بينها ، فأعطى على سبيل المثال ، من كان اسلم قبل بدر اكثر ممن

كان اسلم بعد بدر ، واعطى من كان اسلامه قبل فتح مكة اكثر ممن كان اسلامه بعد فتح مكة وهكذا . وكانت الرواتب ، اذا استثنينا بعض الحالات(١٧٠) ، تتراوح بين خمسة الاف درهم ، وثلاثمائة درهم وقيل مائتي درهم في السنة .

ففي المدينة ، اعطي اهل بدر من المهاجرين والانصار خمسة الاف خمسة الاف في كل سنة ، حليفهم ومولاهم معهم بالسواء ، والحق بهم الحسن والحسين لقرابتهما برسول الله (ص) ، وفرض لمن كان له اسلام كاسلام اهل بدر ، ومن مهاجرة الحبشة ممن شهد احدا اربعة الافاربعة الاف ، وفرض لابناء البدريين الفين الفين ، وفرض لاسامة بن زيد بن حارثة اربعة الاف لمحبة رسول الله (ص) ابيه زيد بن حارثة ،وفرض لعمر بن ابي سلمة اربعة الاف لان امه ام سلمة زوج الرسول (ص) ، وفرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم ، ثم جعل من بقي من الناس بابا واحدا ،والحق من جاء من المسلمين بالمدينة في خمسة وعشرين دينارا(١٧١) .

وفي العراق ، فرض لاهل الايام ثلاثة الاف ثلاثة الاف ، وفرض لاهل القادسية الفين الفين ، وفرض لاهل البلاء البارع منهم في الفين وخمسمائة بزيادة خمسمائة لكل واحد ، ثم فرض للروادف المثنى خمسمائة خمسمائة ، ثم للروادف الثليث بعدهم ثلاثمائة ثلاثمائة ، وفرض للروادف الربيع مائتين وخمسين ، وفرض لمن بعدهم على مائتين(١٧٢) .

وفي الشام ، فرض لاهل اليرموك الفين الفين ، وفرض لمن جاء من بعد ذلك الفا الفا ، وفرض لاهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل ما بين الفين ، الى الف وتسعمائة الى خمسمائة ، الى ثلاثمائة(١٧٣) .

وكتب عمر الى عمرو بن العاص في مصر ، انظر من قبلك ممن بايع تحت الشجرة (أي كان من اهل الحديبية) فأتم له العطاء مائتين ، أي مائتي دينار وهو ما يعادل الفين وخمسمائة درهم تقريبا ، واتمها لنفسك لامرتك ، واتمها لخارجة بن حذافة لشجاعته واتمها لعثمان بن ابي العاص لضيافته(١٧٤) .

وفرض لامراء الجيوش ما بين تسعة الاف وثمانية الاف ، وسبعة الاف، على قدر ما يصلحهم من الطعام ، وما يقومون به من الامور .

وشمل العطاء الموالي ، ففرض لاربعة الاف جندي انضموا الى المسلمين في معركة القادسية الفا الفا ، وانضم للمسلمين عدد من الاساورة بقيادة (سياه) احد قادة

يزدجرد ، فكتب عمر الى ابي موسى الاشعري فيهم ، ان الحقهم على قدر البـلاء في افضل العطاء ،واكثر شيء اخذه احد من العرب ، ففرض لمائة منهم الفـين الفين ، ولستة منهم في الفين وخمسمائة (١٧٥) .

كما شمل العطاء النساء ، ففرض لنساء مهاجرات ، منهن صفيـة بنت عبـد المطلب ، ستة الاف درهم ، واسماء بنت عميس الف درهم ، وام كلثوم بنت عقبـة الف درهم ، وام عبد الله بن مسعود الف درهم ، وفرض لنساء المهاجرين والانصـار ستمائة ستمائة ، واربعمائة اربعمائة ، وثلاثمائة ثلاثمائة ، ومائتين مائتين(١٧٦)، وفرض لنساء أهل الايام في العراق ثلاثمائة ثلاثمائة ، وفرض لنساء أهل القادسية في العراق، ونساء اهل اليرموك في الشام مائتين مائتين(١٧٧) .

وفرض العطاء للذرية . وكان عمر لا يفرض للمولود حتى يفطم ، فترك ذلك ، وامر مناديا ينادي ، لا تعجلوا اولادكـم عن الفطـام ، فانا نفرض لكل مولــود في الاسلام(١٧٨) . ففرض للطفل اذا ولدته امه مائة درهم ، فاذا ترعرع فرض له مائتين، فاذا بلغ زاده(١٧٩) . وفرض للاطفال اللقطاء مائة مائة ، وكان يوصي بهم خيرا ، ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال(١٨٠) .

والى جانب الرواتب ، فرضت الارزاق للمراة والرجل والمملوك بمقدار جريبين من الطعام كل شهر(١٨١) ، واعطيت اموال اضافية على شكل معونة وسميت «المعاون» ، وقد امر عمر بن الخطاب بصرفها في فصل الربيع معونة للجند الذين كانوا يخرجون حينذاك الى البادية ليربعوا خيولهم ودوابهم(١٨٢) ، كما جعل لكل نفس منفوسـة في رمضان درهما في كل يوم ، وفرض لازواج الرسـول (ص) درهمين درهمـين ، فأقر عثمان بن عفان الذي كان صنع عمر في رمضان ، وزاد فوضع طعام رمضان للمتعبد الذي يتخلف في المسجد ، وابن السبيل ، والفقراء من الناس(١٨٣) .

كانت الاموال من الرواتب ، والارزاق ، والمعاون ، تصرف لاصحابها من واردات البلد الذي ينزلون فيه حسب سجلات أعدت لذلك(١٨٤) ، وكان توزيعها يتم وفـق طريقة منظمة ، فكانت الرواتب في البصرة على سبيل المثال ، تدفـع الى الامراء (كان الناس في البصرة زمن الراشدين موزعين الى اسباع ، وعلى كل سبع أمير) والامـراء يدفعونها الى العرفاء والنقباء والامناء ، ويدفعها هؤلاء الى اصحابها في دورهم(١٨٥) . وكان ذلك يتم عادة في شهر المحرم من كل سنة(١٨٦) . الا ان دفعه في وقته المحدد لـم يكن أمرا ميسورا دائما ، فكان العطاء يتأخر ، وكان يدفع احيانـا اقساطا . وامـا الارزاق فكانت تجمع في دار تدعى «دار الرزق»(١٨٧) ، ويأخذ الناس ارزاقهم منها .

وكان عمر بن الخطاب يوزع العطاء في المدينة ، ويحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديدا ، فيأتيه الناس ، فلا يغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب فيعطيهن في ايديهن ، ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك(١٨٨) .

وبخصوص عطاء أهل المدينة وارزاقهم ، فبعد أن تم اتخاذ الديوان وجعلت واردات كل بلد موقوفة على منفعة اهله من رواتب وغيرها ، عد أهل المدينة شركاء الفاتحين في البلاد المفتوحة ، وعلى سبيل المثال ، كتب عمر بن الخطاب الى عثمان بن حنيف في العراق ، ان احمل الى اهل المدينة اعطياتهم ، فانهم شركاؤهم ، فكان يحمل ما بين العشرين الف الف الى الثلاثين الف الف(١٨٩) ، ولابد انه كان يحمل الى المدينة من بلاد الشام ومصر ، وان كنا لانعلم مقدار ذلك ، سيما وقد شارك اهل المدينة في فتوح الشام ومصر . وكان عمر بن الخطاب يبعث في كل سنة غازية من اهل المدينة ترابط بالاسكندرية(١٩٠) .

وقيل لما كثر المال قال عمر ، لئن عشت الى هذه الليلة من قابل ، لالحقن أخر الناس باولاهم حتى يكونوا في العطاء سواء ، فتوفي قبل ذلك (١٩١) .

وعلى اية حال ، فان الوقت كان كفيلا بتقليل الفوارق بين الناس في الرواتب ، وكان الموت من اهم العوامل التي كانت تعمل على ازالة الفئات التي فضلت في العطاء ، نظرا الى ان السبق الى الاسلام وهو علة الاثرة في العطاء والتفضيل لا يورث . وفي خلافة عثمان كثر الخراج ،واتاه المال من كل وجه ، وادر الارزاق ، وكان لما استخلف زاد الناس مائة درهم في العطاء(١٩٢) ، غير ان توسعه في بذل الاقطاعات من ارض الصوافي (١٩٣) ، وهيمنة بني امية على زمام الامور ، ادى الى انتقاد سياسة الدولة ومنها سياسة الاقتصاد في زمنه والثورة عليه ، فلما استخلف علي بن ابي طالب ،اعطى الناس بالسوية ، ولم يفضل احدا على احد ، واعطى الموالي كما اعطى الصليبة ، وكان كلما جاءه مال وزعه في الناس ، فاعطى في سنة واحدة اربع مرات وقال ، اني لست لكم بخازن (١٩٤) .

ومما يجدر ذكره ، ان العطاء والارزاق كانت تفرض لاهل الحاضرة من المسلمين دون غيرهم من الذين كانوا لا يحضرون محاضر المسلمين ولا يشهدون مشاهدهم ، وهي اشارة الى ان الجهاد والدفع عن البلاد والعباد كان المبرر لبذل العطاء . وخطب عمر ابن الخطاب الناس بالجابية فقال « .. فمن اسرع الى الهجرة ، اسرع به العطاء ،ومن ابطأ عن الهجرة ، ابطأ عنه العطاء ، فلا يلومن رجل الا مناخ راحلته»(١٩٥) . وقيل ان رجلا من اهل البادية سأل ابا عبيدة ان يرزقهم فقال ، لا والله ، لا ارزقكم حتى ارزق

اهل الحاضرة ، فمن اراد بحبحة الجنة فعليه بالجماعة(١٩٦) ، ومما قاله ابو عبيـد بهذا الخصوص : « فاما درور الاعطية على المقاتلة واجراء الارزاق على الذرية فلم يبلغنا عن رسول الله (ص) ولا عن احد من الائمة بعده انه فعل ذلك الا بأهل الحاضرة الذين هم اهل الغناء عن الاسلام »(١٩٧) . وكان عمر لا يعطي اهل مكة عطاء ، ولا يضرب عليهـم بعثا . وكان اهل البادية الذين كانوا لايشتركون في الجهاد ، لاعطاء من بيت المال لهم ولا ارزاق ، وانما كانت تؤخذ الصدقات من اغنيائهم وترد في فقرائهم ، واذا اصابتهم الجوائح اغيثوا حتى يرفع ما بهم عنهم(١٩٨) ، على نحو ما جرى في عام الرمادة .

وانشئت المدن والمساجد في البلاد المفتوحة ، البصرة والكوفـة في العـراق ، والفسطاط في مصر ، ووسع عثمان بن عفان عام ٢٦ هـ المسجد الحرام ، وابتاع مـن اجل ذلك من قوم منازلهم . ووسع عام ٢٩ هـ مسجد الرسول (ص) في المدينة ،وحملت له الحجارة من بطن نخل ، وجعل في عمده الرصاص وجعل طوله مائة وستين ذراعا ، وعرضه مائة وخمسين ذراعا (١٩٩) .

ودفعت الدولة اضافة لما سبق ذكره من العطاء والارزاق ، الرواتب للموظفين، فكان زياد بن ابيه على سبيل المثال ، يتقاضى كل يوم درهمين اجرا على قسمة الغنائم، وبلغ راتب عامل كل كورة من كور الموصل مائتي درهم(٢٠٠) ، هذا اضافة الى رواتب الخلفاء والولاة والقضاة وباقي موظفي الجهاز الاداري . كما ساهمت الدولة في الانفاق على الحملات العسكرية ، والمنشآت العامة ، ومشاريع الري وامثال ذلك من المصالح العامـة(٢٠١) .

والشواهد السابقة تدل على مدى الدور الذي صارت تلعبه الدولة في حيـاة الناس ، ولكنها لم تتخذ هذا الدور في هذه الفترة للهيمنة عليهم ، والغلبـة والقهر لهم ، فقد ابى عمر بن الخطاب ان يوسع على نفسه في معيشته التي فارقه الرسول (ص) وابو بكر عليها(٢٠٢) . وكان اذا استعمل عاملا . كتب له عهدا ، واشهد عليه رهطا من المهاجرين والانصار، واشترط عليه ان لايركب برذونا، ولا يأكل نقيا، ولا يلبس رقيقا(٢٠٣)، ويقول لهم اني انزلت نفسي واياكم من هذا المال بمنزلة والي اليتيم ، قال تعالى: «ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف »(٢٠٤) . وكان اذا وفدوا عليه انتبه الى لباسهم واكلهم عنده . قيل ان عمرو بن العاص قدم عليه مرة ، فقدم لـه ثريدا ، وادخل عمر يده في الثريد فملأها ، وناولها عمروا ، فجعلها عمرو في يده اليسرى ويأكل باليمنى ، ووفد مصر ينظرون ، فلما خرجوا قال عمرو ، والله لقد علم اني بما قدمت به من مصر لغني عن الثريد الذي ناولني ، ولكنه اراد ان يختبرني ، فلو لـم

اقبلها للقيت منه شرا(٢٠٥) . وكان اذا بلغه عنهم كثرة في المال قاسمهم ، وقاسم عمرو بن العاص ، وسعد بن ابي وقاص ، وابا هريرة وغيرهم(٢٠٦) .

كان عثمان بن عفان يعيش من ماله ، وكان علي بن ابي طالب متقشفا . ويصف ابن الطقطقي دولة الراشدين بانها لم تكن من طرز دول الدنيـا ، وكان هديها هـدي الاولياء ، وهي بالنبوات ، والرتب الدينية ، والامور الاخروية اشبه من الرتب الدنيوية في جميع الاشياء(٢٠٧) .

أما بالنسبة للناس . فقد وجد المسلمون منهم في البلاد المفتوحة سعة من بعد ضيق ، فانشأوا المدن ، واختطوا المنازل فيها ، وسكنوا ماجلا عنه اهله من الـدور والمنازل في الاسكندرية ، ومدن بلاد الشام وغيرها . وكانوا اذا حل الربيع خرجـوا بدوابهم يتربعون ، فكتب عمر بن الخطاب الى سعد بن ابي وقاص وعتبة بن غزوان في العراق ، ان يتربعا بالناس في كل حين ربيع في اطيب ارضهم من كل سنة ، وامر لهـم في وجههم هذا بمعونة من المال(٢٠٨) . وخطب عمرو بن العاص الناس في مصر فقال : يا معشر الناس ، انه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعرى ، واقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقل الندى ،وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر ، فحي لكم على بركة الله الى ريفكم ، فنالوا من خيره ، ولبنه ، وخرافه ، وصيده ، واربعوا خيولكم ، واسمنوها ، وصونوها والزموها ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا . وكانوا يقيمـون في وجههم هـذا حتى يحمض اللبن ويشتد العود ، ويكثر الذباب ، وهي اشارة الى انقضاء الربيع ودخول الصيف ، فعند ذلك يعودون الى الفسطاط ، وكانت قبائل العرب في مصر تنزل المواضع المختلفة ، فكان آل عمرو بن العاص ، وآل عبد الله بن سعد ينزلون في منف ووسيم ، وكانت هذيل تنزل في بنا وبوصير ، وعدوان في بوصير ، وعك في بوصـير ومنوف واتريب ، وهذيل في منف وطرابيه ، الصدف ولخم في الفيوم وغيرها(٢٠٩) .

وكثرت الاموال في ايدي المسلمين ، وبلغت ثروات بعضهم مقادير كبيرة تدعـو الى الشك والارتياب ، فقيل كانت ثروة عثمان بن عفان يوم قتل خمسون ومائة الف دينار ، والف الف درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وغيرها مائة الف دينار ، وخلف خيلا كثيرا وابلا(٢١٠) ، واشترى علي بن ابي طالب ارضـا بينبع بثلاثـين الف درهم وكانت له مزارع في ارض ينبع والمدينة ، وحرة الرجلاء ، وفدك ، ووادي القرى(٢١١) . وبلغ مال الزبير بن العوام بعد وفاته خمسين الف دينـار ، وخلف الف فرس ، والف عبد وامة ، وكان قد ابتنى دارا بالبصرة ، وابتنى دورا في الفسـطاط والاسكندريـة والكوفة(٢١٢) . وكانت غلة طلحة بن عبيد الله من العراق الف دينار كل يوم ، وغلتـه

بناحية السراة اكثر من ذلك ،وبنى دارا بالكوفة ، وشيد دارا بالمدينة ، وبناها بالاجر والجص والساج . وبلغ ربع ثمن مال عبد الرحمن بن عوف اربعة وثمانين الفا ، وكان على مربطة مائة فرس ، وله الف بعير ، وعشرة آلاف شاة من الغنم ، وبنى دارا بالمدينة ووسعها . وكان لسعد بن ابي وقاص دار بالعقيق ، فرفع سمكها ووسع فضاءها ، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الاموال والضياع التي بلغت قيمتها مائة الف دينار . وبلغت تركة يعلى بن منيـــة ثلاثمائـــة الف دينار(٢١٣) .

ويقول ابن خلدون بصدد هذه الثروات ، وهم ، اي الصحابة ، مع ذلـك على خشونة في عيشهم ، فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد ، وكان علي يقول ، ياصفراء ويابيضاء غري غيري ، وكان ابو موسى يتجافى عن اكل الدجاج ، وعلى الجملة كانت اموالاحلالا، وكان حالهم فيها على القصد والاعتدال، ونفقاتهم في سبيل الحق ومذاهبه ،واكتساب الدار الاخرة(٢١٤) ، فحبس عمر بن الخطاب بعض ماله في وجوه الخير وتوفي مدينا ، وحبس علي بن ابي طالب مزارعه صدقات بين بنيه وأهله واقاربه وفي سبيل الله(٢١٥)، وكذلك فعل الزبير بن العوام(٢١٦) .

ولكن وفرة المال ادت عند البعض الى ظهور البذخ والترف ، مما اغضب الاتجاه الذي كان ينادي بالتزام التقشف ابدا، كما ادت الى ارتفاع اسعار بعض السلع ، ففي عهد الرسول (ص) كانت الدية مائة من الابل ، وقيل كانت قيمة البعير اذ ذاك اربعين درهما، فكانت الدية اربعة الاف درهم ، ثم غلت الابل في خلافة ابي بكر ، فكانت قيمة البعير ثمانين درهما ، ثم غلت في خلافة عمر ، فكانت قيمة البعير عشرين ومائة درهم ، فكانت الدية على عهد عمر بن الخطاب اثني عشر الف درهم(٢١٧) .

اما المواد الغذائية ، وبخاصة ما كان يوزع منها مجانا ، كالقمح ، ارزاقا للمقاتلة وذرياتهم ، فيبدو انها شهدت في هذه الفترة ثباتا في الاسعار بعض الشيء ، فمن جهة، كانت الدولة تقبل الفرائض المالية العينية على الارض من المزارعين ، فكانوا لايضطرون الى بيع منتوجاتهم باسعار رخيصة ، ومن جهة اخرى ، كان المقاتلة وعيالاتهم نتيجة اخذ ارزاقهم عينا ، لا يحتاجون الى شراء هذه المواد الغذائية .اما السلع الاخرى ، وبخاصة الكمالية منها ، فلابد انها شهدت تغيرا في اسعارها (٢١٨) .

اما بخصوص اهل الذمة من الناس ، فقد حببت الدولة اليهم البقاء ، وعـــدم الجلاء عن البلاد المفتوحة ، وعقدت لهم الذمة والعهد، وتركت الارض بايديهم يزرعونها ، ويؤدون عنها الفريضة المالية المقررة ، وقد فرضت الدولة عند تقريـــر الضرائب ، ان

لا يظلم احد ، وان لا يكلف احد فوق ما يطيــق(٢١٩) ، وجعلت ادارة هــذه المصلحة مركزية ، والاشراف عليها مباشرا ، وألغت الامتيازات القديمة ، وتحــرر الفلاح من سيطرة الدهاقين وامثالهم . وتحول هؤلاء ، أي الدهاقين ، الى جباة ، وصار الفلاح مسؤولا عن خراج ارضه وجزية رأسه(٢٢٠) . قيل لعامر الشعبي ، أحد فقهاء العراق واعلامه العلماء ، ان اناسا يزعمون ان اهل السواد عبيد ، فقال الشعبي ، فعلام تؤخذ الجزية من العبيد(٢٢١) ، وهي اشارة الى أنهم احرار .

وكان اذا حضر مال الجباية عمر بن الخطاب ، خرج مع المال جماعة من المصر اليه، يشهدون اربع شهادات بالله انه من طيب ، مافيه ظلم مسلم ولا معاهد(٢٢٢) .

وروي عن علي بن ابي طالب ، انه استعمل رجلا على عكبرى (على بعــد عشرة فراسخ من بغداد) فقال له على رؤوس الناس ، لا تدعن لهم درهما من الخراج ، ثم قال له القني عند انتصاف النهار ، فلما حضر قال له ، لاتبيعن لهم في خراج حمارا ، ولا بقرة ، ولاكسوة شتاء ولا صيف ، وارفق بهم ، فان عصيتني نزعتك ، وكان مــن الرفق بهم في هذا الوجه ، ان يؤخذ منهم مما يسهل الاداء فيه عليهم(٢٢٣) .

واضافة الى فتح باب الزراعة امام اهل الذمة ، فتحت ابواب الصناعة والتجارة وغيرها من المجالات الاقتصادية ، ووفــرت لهم الدولة بجيشها الامن على الامــوال والنفوس، واتاحت لهم المناخ المناسب للكسب والانتاج . وكانت المعاملات الاقتصادية من البيوع والشركة وغيرها تجري بحق المسلمين واهل الذمة على السواء . واحيطت حالات التحول الى الاسلام بالرضا والسرور ، ورفعت الجزية عن راس كل مــن كان يسلم منهم(٢٢٤) . وكانت وصية الخلفاء بهم : أوصي الخليفة من بعدى ، بأهل الذمة خيرا ، ان يوفى لهم بعهدهم، وان يقاتل من ورائهم ، وان لا يكلفوا فوق طاقتهم(٢٢٥) .

ولما كانت الدولة لا تصرف الرواتب الا للمقاتلة ، ولا تجعل الاستحقاقات للجند الا بعلة الجهاد والدفع عن البلاد . ولم تقسم الارض بين الجند الفاتحين وجعلتها وقفا على المصلحة العامة للمسلمين ، وكان باستطاعة اهل الذمة ان يتحولوا الى الاسلام ، وينضموا للجيش ، وكان الجميع . بفضل الجيش ومرابطته ، يتفيؤون ظلال الامــن والطمأنينة ، ويباشرون ما احبوا من المهن والصنائع ، صار القول بان العلاقة بــين الدولة وأهل الذمة كانت اقرب الى علاقة بين راع ورعيته منها الى شعب يعيش علــى حساب شعب ، وشعب يحصد ما يزرع غيره(٢٢٦) . هذا علاوة على ان اي بلد لابد له من جيش يحميه ويذودعنه ، فضلا عن ان يكون حامل فكر للناس . وضمان العيش للقومة بهذه الاهداف ، اي الجيش ، لا يجيز ان نصف الجيش بهذا السبب انه شعب يحصد ما يزرع غيره ،وهذا اذا سلمنا ان الناس يؤثرون الجندية على غيرها، وانهامجال لا يوازيه في المنفعة والمكاسب المادية مجالات العمل الاخرى .

الحواشي :

(١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٣١ ، ابو عبيد بن سلام الاموال ص ٣٩،١١٧ . البلاذري، فتوح البلدان جـ٢ ص ٢٩٧ .

(٢) يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٥٢ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٢٩٨ .

(٤ـ٥) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣٤٦ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ٢ ص ٢٩٩.ابـو هلال العسكري ، الاوائل ص ٢١٨ .

(٦ـ٧) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص١١٧ ـ ١١٩ . البلاذري، فتوح البلدان جـ٢ ص ٣٠٤ .

(٨) البلاذري ، فتوح البلدان جـ١ ص ١٣٤ ، ابن الاثير، الكامل في التاريخ جـ٢ ص ٢٨١ .

(٩) اورد البلاذري بخصوص ذلك قول ابي حنيفة قال : ايما ارض اخذت عنوة مثل السواد والشام ولم تقسم ففي رقاب اهلها الجزية وعلى الارض الخراج .
انظر : البلاذري ، فتوح جـ ٣ ص ٥٤٦ .

(١٠) روى خليفة بن خياط قال : جهد زياد في سلطانه ان يخلص الصلح من العنوة فما قدر .
انظر : خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٣٦ .

(١١) ذكر خليفة بن خياط بخصوص فتح الري : فافتتحت الري عام ٢٤ هـ صلحا او عنوة .
انظر : خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٥٧ .

(١٢) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ١٤٦ـ١٤٧ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص١٣٨ـ١٣٩.

(١٣) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣٧٥، ٥٨٧ ، جـ ٤ ص ٣١ . البلاذري ، فتوح‌البلدان جـ ٢ص٣٠٠ .

(١٤) من هذه القريات : اليس ، الحيرة ، بانقيا ، انظر : ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ٣ص ٥٨٤ . يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٢١،٥٢ـ٥٣ .

(١٥) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ١٠٣ ، ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٤٨ . ابو جعفر الطبرى، تاريخ الطبري جـ ٣ص ٥٨٧ .

(١٦) ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٤٨ . خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٣٦ .

(١٧) ابن قتيبة / المعارف ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ . ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٨٩ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٣٦٤ ، ٢٦٦ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٥٦.

(١٨) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٨٢ـ٩٠ . خليفة بن خياط ، تاريخ خليفـــة ص ١٤٣ـ١٤٤ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٣٢ .

(١٩) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٥٠ . خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٣٩ . ابو عبيد بن سلام، الاموال ص ١٤٦ ـ ١٤٧ . ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٤٨ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٠٥.

(٢٠) انظر : ابو يوسف ، الخراج ص ٢٣ـ٢٨ ، ٣٥ .

(٢١) كان ممن يرى رأي عمر من الصحابة : عثمان بن عفان ، وعلي بن ابي طالب ، وطلحة بن عبيدالله ومعاذ بن جبل وعبد الله بن عمر وغيرهم ، وكان ممن يخالف رأي عمر عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وبلال بن رباح.

انظر : ابو يوسف ، الخراج ص ٣٥ . ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٨٨ .

(٢٢) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٢ـ٧٩ . البغدادي ، تاريخ بغداد جـ ١ ص ٩. الماوردي، الاحكام السلطانية ص ١٣٧ ، ١٤٧ .

(٢٣) ابو يوسف ، الخراج ص ٣١ـ٣٢ . الشافعي ، الام جـ٢ ص ١٠٤،٨١ . ابو عبيد بن سـلام، الاموال ص ٨٦ـ٨٧ .البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ص ٣٢٨ .

(٢٤) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق جـ ١ ص ١٨٣ ،
وانظر : محمد بطاينة ، فتح فلسطين ـ بحث في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، المجلد الثالث ص ٤٩ .

(٢٥) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٥٨٦ ـ ٥٨٧ . ابو عبيد بلام ، الاموال ص ٨١ـ٨٤. .البلاذري ، فتوح البلـدان جـ ص ١٧٩ ، جـ ٢ ص ٣٢٧ . ابـن الاثير ، الكامـل في التاريـخ جـ ٢ ص٣٦٤.

(٢٦) كتب سعد بن ابي وقاص عن العراق الى عمر بن الخطاب قال : « .. وعددنا قليل ، وقد كثر اهل صلحنا ،وان اعمر لنا وأوهن لعدونا تالفهم » . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ٣ ص٥٨٥.

(٢٧) سورة الحشر الآيات ٦ـ١٠ .

(٢٨) ابو يوسف ،الخر اج ص ٢٦ـ٢٧ .

(٢٩) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٤ـ٢٦ . الازدي ، فتوح الشام مخطوط ص ٤٧. ابو عبيد بن سلام، الاموال ص ٨٠ـ٨٧ . يحيى بن ادم، الخراج ص ٢٧ . ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشـق جـ١ ص ١٨٣ .

(٣٠) ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ص ١١٧ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ٣ص ٥٩٤.

(٣١) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢٠٥ . ابو جعفر الطبري، تاريخ الطبري جـ٣ ص٥٩٤ .

(٣٢) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٣٠ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ١٥٥.

(٣٣) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٥٧ . ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق جـ١ ص ١٧٦ .

(٣٤) يوليوس فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ص ٢٧ .

(٣٥) يوليوس فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ص ٢٨ـ٢٩ .

(٣٦) بشأن مدلول لفظي « الجزية والخراج » انظر : محمد الريس ، الخراج والنظـم الماليـة ص ١١٦ ـ١٢٧ .

(٣٧) دينيل دينيت ، الجزية ولاسلام ص ٣٠ ، ٤١ ، ٤٢ . يوليوس فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ص ٢٩ .

(٣٨) دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ٣٣، ٦٠، ٦٣ .

(٣٩) المصـــدر نفسه ص ٤٠ .

(٤٠) من الشواهد التي تدل على وجود ضريبتين : ضريبة الراس (الجزية) وضريبة الارض (الخراج): ما ذكره ابو يوسف عن محمد بن اسحاق عن الزهري قال : فترك (عمر) الارض واهلها ،وضرب عليهم الجزية ،واخذ الخراج من الارض . ابو يوسف ، الخراج ص٢٨ ، ص ٣٥ . وما ذكره ابو عبيد قال : وفرق عمر بين خراج الرأس وخراج الارض . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص٢١١ .
وقال حسن بن صالح : واما سوادنا هذا ، فانا سمعنا انه كان في ايدي النبط ، فظهر عليهم اهل فارس ، فكانوا يؤدون اليهم الخراج ، فلما ظهر المسلمون على أهل الجزية ، تركوا السواد ومن يقاتلهم من النبط والدهاقين على حالهم ، ووضعوا الجزية على رؤوس الرجال ، وقسموا عليهم ما كان في ايديهم من الارض ، ووضعوا عليها الخراج .

انظر : يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٢٢ .

(٤١) ابو هلال العسكري ، الاوائل جـ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

(٤٢) روى ابو جعفر الطبري عن ابن اسحاق قال : وافتتحت نهاوند ، فلم يكن للاعاجم بعد ذلك جماعة.
انظر : ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ١١٦.
وانظر : د. صالح العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ص ١٣٣ .

(٤٣) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٧ـ٢٨ .

(٤٤) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ص٥ .ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ص٧١ .المسعودي، التنبيه والاشراف ص ٨٩ . ابن الاثير، الكامل في التاريخ جـ ١ ص ٢٦٨.

(٤٥) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ جـ ١ ص ٢٦٨ .

(٤٦) اليعقوبي ،تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٥٢ .

(٤٧) ابو يوسف ، الخراج ص ٣٨ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٩٨. البلاذري ، فتـوح البلدان جـ ٢ ص٣٣٠ـ ٣٣١ .

(٤٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ١٠٣، ١٢١ .

(٤٩) يذكر اليعقوبي جبايتين للسواد في خلافة عمر بن الخطاب بلغت الاولى ثمانين الف الف درهـم وبلغت الثانية عشرين ومائة الف الف درهم ، فاذا كان التنظيم المالي في العراق بدأ عام ٢١ هـ، وحصلت الجباية الاولى عام ٢٢ هـ ، فتكون الجباية الثانية اخذت عام ٢٣ هـ على اساس التعديل الذي يمكن ان يكون تم عام٢٢ هـ ، وقتل عمر بن الخطاب عام٢٤ هـ. تاريخ اليعقوبي جـ ٢ص١٥٢.

(٥٠) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٣١.

(٥١) من اجل هذه الاختلافات ، انظر :

ابو يوسف ، الخراج ص ٣٦ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٩٦ـ٩٨ . اليعقوبي ، تاريـخ اليعقوبي جـ ٢ص١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٢ . ابو هلال العسكري، الاوائل جـ ١ ص ٢٤٤.

(٥٢) انظر : اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ٢ص ٣٣٢ـ٣٣٣.

(٥٣) انظر : اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ٢ ص ٣٣٢–٣٣٣.

(٥٤) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٩٩ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ٣ ص٥٨٦–٥٨٧.

(٥٥) يقول يحيى بن ادم بخصوص الصوافي : فذلك للمسلمين ، وهو الى الامام ، ان شاء اقام فيهـا من يعمرها ويؤدي الى بيت مال المسلمين عنها شيئا ، ويكون الفضلة له ، وان شاء انفق عليهـا من بيت مال المسلمين ، واستأجر من يقوم فيها ، ويكون فضلها للمسلمين ، وان شاء اقطعها رجلا ممن له غناء عن المسلمين . يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٢٢ .

(٥٦) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٩٩ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٣٤ .

(٥٧) ابويوسف ، الخراج ص ٢٨ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣٧٥ ، ٥٨٤، ٥٨٧، جـ ٤ ص ٣٣ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ١١٦ – ١١٧ . البلاذري،فتوح البلدان جـ٢ص٣٠٠. دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ٥٤ .

(٥٨) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٥ ، ٣١ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص٣٢٧.

(٥٩) الدوري ، النظم الاسلامية ص ١٢٥ . وكان عثمان بن حنيف بعد ان فرغ من عرضهم واحصائهم اعلم الدهاقين بعددهم وكسر الخواتيم . ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٨ .

(٦٠) ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٨،٣٧ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٣٢ .

(٦١) كتب عمر بن الخطاب الى امراء الاجناد ان يضربوا الجزية ، ولا يضربوها على النساء والصبيان، ولا يضربوها الا على من جرت عليه الموسى . ابو يوسف ، الخراج ص١٢٨ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥١، ٥٥–٥٦ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ١٤٨ ، ١٨٠ . يحيى بن ادم القرشي الخراج ص ٧٣.

(٦٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٥٨٣.

(٦٣) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٥.

(٦٤) المصدر نفسه ص ٧٤.

(٦٥) ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٢ – ١٢٣ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٦. البـلاذري ، فتوح البلدان جـ٢ ص ٣٢٦ ، ٣٣٠. ابو هلال العسكري ، الاوائل جـ١ ص ٢٤٥ .

(٦٦) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٣٣ .

(٦٧) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٣٢ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢١٣ – ٢١٤.

(٦٨) كان من عمال الخراج على السواد في خلافة عمر بن الخطاب : عثمان بن حنيف على ماسقى الفرات، وحذيفة بن اليمان على ماسقى دجلة . انظر : ابو يوسف ، الخراج ص ٣٦–٤٨.

(٦٩) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٤ .

(٧٠) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٣٢ .

(٧١) ابو هلال العسكري ، الاوائـل جـ ١ ص ٢٤٥ .

(٧٢) دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ٥٧.

(٧٣) ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٢ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص٥٠–٥١ .

(٧٤) الازدي ، فتوح الشام ص ٨٢ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٨٨ . البلاذري، فتوح البلدان جـ ١ص١٣٤ .

(٧٥) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ١٤٨.

(٧٦) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص٢٩٠ ، ٣٠٠ . البلاذري ، فتوح البلـدان جـ١ ص: ١٣٧ ، ١٣٩، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٤ ، ١٧٩ .

(٧٧) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ١٤٨ .

(٧٨) ابو يوسف ، الخراج ص ١٣٨ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٥ ، ٦٩٥ . يحيـــى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٧٣ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ١ ص ١٤٨ . ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق جـ ١ص١٥١ .

(٧٩) البلاذري ، فتوح البلدانجـ١ ص ١٥٧ .

(٨٠) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٨٧ .

(٨١) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق جـ ١ ص ١٧٦ .

(٨٢) دينيل دينيت ،الجزية والاسلا مص٩٦ ـ ٩٧ .

(٨٣) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق جـ ١ ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .

(٨٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٨٥) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

(٨٦) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ١٧٥ـ١٧٦.

(٨٧) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٤١. البلاذري ، فتوح البلدان جـ١ ص ٢٠٥ .

(٨٨) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابـــة ص ٣١٣ .

(٨٩) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٠ ١ـ ١٢١ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢١٦.

(٩٠) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٣١٤ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص٢١١.

(٩١) ابو يوسف ، الخراج ص ٤٠ . الدوري ، النظم الاسلامية ص ١٢٨ .

(٩٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ص ٢٣٣ـ٢٣٤ .

(٩٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٦٠ .

(٩٤) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٠ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابةص ٣٣٧.

(٩٥) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٢.

(٩٦) ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر ص ٨٥ .

(٩٧) المصدر نفسه ص ٨٢ ـ ٨٤ .

(٩٨) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٠ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص٣٣٧.

(٩٩) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٧٠ ، ٧٢ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٢ . قدامةبن جعفر ،الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٣٧ .

(١٠٠) البلاذري ، فتوح البلدان جـ١ ص ٢٥٢ .

(١٠١) ابن عبد الحكم ، فتــوح مصر ص ٩٠ .

(١٠٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٧٠،٧٢ .

(١٠٣) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٤ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص٣٣٨.

(١٠٤) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٣ .

(١٠٥) دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

(١٠٦) المقريزي ، خطط المقريزي جـ ١ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

(١٠٧) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٥٢ـ١٥٣ . المقريزي ، خطط المقريزي جـ ١ص ١٤١.

(١٠٨) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٣ ، ٢٥٦ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعــة الكتابة ص ٣٤٠ .

(١٠٩) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٥٧ .

(١١٠) المقريزي ، خطط المقريزي جـ ١ ص ١٤٤ ،١٨٢ .

(١١١) اليعقوبي ،تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٥٤ ١.

(١١٢ـ١١٣ـ١١٤) المقريزي ، خطط المقريزي جـ ١ص ١٤٤ـ١٤٥ .

(١١٥) المقريزي ، خطط المقريزي جـ ١ ص ١٨٢ .

(١١٦) محمد الريس ، الخراج والنظم المالية ص ٤٩ ١ـ ١٥٥ .

(١١٧) البلاذري ، فتو حالبلدان جـ ١ ص ٢٦٤ .

(١١٨) المصــدر نفسه جـ ١ ص ٢٦٦ .

(١١٩) ابو جعفر الطبري ، تاريــخ الطبري جـ ٤ ص ٢٥٦ .

(١٢٠) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ صــ ٢٦٧ ـ٢٦٨.

(١٢١) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٨١ .

(١٢٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ١٢٨.

(١٢٣) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٧٥ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص٣٧١.

(١٢٤) البلاذري ، فتوح البلدان جـ٢ ص ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٩٥ . قدامــة بن جعفر ، الخــراج وصناعة الكتابة ص ٣٧٢، ٣٧٣ .

(١٢٥) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص١٣٧ ، ١٤٧ ، ١٥١، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٧٤، ١٧٥ .

(١٢٦) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٩٠ .

(١٢٧) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٤٠١ .

(١٢٨) المصدر نفسه جـ٢ ص ٣٨٣ – ٣٨٤ .

(١٢٩) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٣٤ ، ١٣٦ .
وانظر : ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٧٨ – ٧٩ .

(١٣٠) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٥١ ، ١٥٨ .

(١٣١) المصدر نفسه ص ١٥٩ .

(١٣٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٦٧ .

(١٣٣) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٠٣ .

(١٣٤) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٦٥ .

(١٣٥) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٣ ص ٤٩٩ – ٥٠١ .

(١٣٦) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٤٠٤ .

(١٣٧) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص ١٦٥ .

(١٣٨) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٩٢ .

(١٣٩) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٣ ص ٥٣١ .

(١٤٠) انظر : قدامة بن جعفر ،الخراج وصناعة الكتابة الصفحات : ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٨٨ ،٣٩٢ ،٣٩٣ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،٤٠٤ . وانظر : دينيل دينيت ، الجزية والاسلام ص ١٨٥ . الدوري، النظم الاسلامية ص ١٠٥ –١٥١.

(١٤١) انظر : الجهشياري ، الوزراء والكتاب ص ٢٨١ – ٢٨٦ .

(١٤٢) ابن حبيب ، المحبرص ٢٦٤–٢٦٦ .

(١٤٣) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٠٣ .

(١٤٤) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٤١ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٠٧ .

(١٤٥) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٠٦،٧٠٩ .

(١٤٦) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٤٢ .

(١٤٧) يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ٢٥.

(١٤٨) الدوري ، النظم الاسلامية ص ١٣٦.

(١٤٩) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧١٢ .

(١٥٠) المصدر السابق نفسه ص ١٧١ ، يحيى بن ادم القرشي ، الخراجص١٧٩ .

(١٥١) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١١٣ .

(١٥٢) الشافعي ، الام جـ ٢ ص ١٤ باب الزكاة . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٦٣.

(١٥٣) ابو هلال العسكري ، الاوائل جـ١ ص ٢٦٥ .

(١٥٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٦٥ .

(١٥٥) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٧٧.

(١٥٦) الشيباني ، شرح السير الكبير جـ ٥ ص ٢١٣٣-٢١٣٤ .

(١٥٧) الشافعي ، الام جـ٢ ص ١٧ باب الزكاة . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٥٥ .

(١٥٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥٥٢-٥٥٦.

(١٥٩) او عبيد بن سلام ، الاموال ص ٥١٤-٥١٥.

(١٦٠) الشافعي ، الام جـ ٢ ص ١٤ باب الزكاة .

وانظر : صالح العلي ، تنظيم جباية الصدقات في القرن الاول الهجري ، مجلـة العرب الجـزء العاشر السنة الثالثة تموز ١٩٦٩ ص ٨٧٠ - ٨٧٣ .

(١٦١) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٨٢ - ٧٨٣ .

(١٦٢) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٧٨٤ - ٧٨٥ .

(١٦٣) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ١ ص ٢١٤ .

(١٦٤) انظر : الشافعي ، الام جـ٢ ص ٢٩-٣٠ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٦٣٧-٦٣٩ ، ٦٦٧، ٦٧١ . يحيى بن ادم القرشي ، الخراج ص ١١٣ ، ١٥٠ .

(١٦٥) الشيباني ، شرح السير الكبير جـ ٤ ص ٢٠٨٥ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٤١٩ .

(١٦٦) البلاذري ، انساب الاشراف جـ ٥ ص ٢٨.

(١٦٧) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٠٤ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٧٣-٣٧٤.

(١٦٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢٥.

(١٦٩) جاء التقدير اعتمادا على ان خراج مصر كان اربعة ملايين دينار ، وخراج الشام مليـون ونصف دينار ، وخراج الجزيرة خمس وخمسون مليون درهم أي ما يعادل اربعة ملايين ونصف المليون من الدنانير ، وخراج العراق مائة مليون درهم أي ما يعادل ثمانية ملايين دينار .

(١٧٠) نذكر من الحالات الاستثنائية ، ان عمر بن الخطاب فرض لكل واحدة من أزواج الرسول (ص) عشرة الاف درهم ، الا عائشة ، فانه فرض لها اثني عشر الف درهم ، والحق بهن جويرية بنت الحارث وصفية بنت حيي، وقيل بل فرض لكل واحدة منهن ستة الاف درهم .
والحق باهل بدر العباس بن عبد المطلب والحسن والحسين لمكانتهم من رسول الله (ص) وقيل الحق بهما أبا ذر وسلمان الفارسي ، وقيل فرض للعباس اثني عشر الفا ، وقيل فرض له سبعة الاف درهـم .

انظر : ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٣ ص٦١٤-٦١٥ . ابو يوسف ، الخراج ص٤٢-٤٤. الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ٢٠١ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٤ ص ٥٤٨ .

(١٧١) انظر : ابو يوسف ، الخراج ص٤٤ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ٣ ص ٥٥٠-٥٥١ .

(١٧٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٦١٥ .

(١٧٣) البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٣ ص ٥٥٣ . الماوردي ، الاحكام السلطانية ص٢٠١.

(١٧٤) ابن عبد الحكم ،فتوح مصر ص ١٤٥ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٢٣.

(١٧٥) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ٤ ص ٩٠-٩١. وانظر : يحيى بن ادمالقرشي ،الخراجص٦٠.

(١٧٦) البلاذري ، فتوح البلدان جـ٣ ص ٥٥٢.

(١٧٧) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ٣ص٦١٤-٦١٥ .

(١٧٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٣٨.

(١٧٩) ابو يوسف ، الخراج ص ٤٦ .

(١٨٠) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ص١٥٠ . البلاذري، فتوح البلدان جـ ٣ص٥٥٢.

(١٨١) ابو يوسف ، الخراج ص ٤٧.

ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٦١٥ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص٣٥١-٣٥٢.

(١٨٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ص٤٣.

(١٨٣) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٢٤٦ .

(١٨٤) انظر : المصدر نفسه جـ٣ ص ٥٩٧ ، جـ٤ ص ٢٩٤ . البلاذي ، فتوح البلدان جـ٦ص ١٥ .

(١٨٥) ابوجعفر الطبري ، تاريخ الطبري ، جـ٤ ص٤٨.

(١٨٦) المصدر نفسه جـ٤ ص ٤٣.

(١٨٧) انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٦٦ . البلاذري ، فتوح البلدان جـ١ ص ٢٥٢، ٢٥٣.
ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ،جـ٢ ص ٤٦٦، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٤.

(١٨٨) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢١٠-٢١١ .

(١٨٩) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٥٢ .

(١٩٠) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٩٢.

(١٩١) ابو يوسف ، الخراج ص ٤٦ .

(١٩٢) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري جـ ٤ ص١٩٤، ٢٤٥.

(١٩٣) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان جـ ٢ ص ٣٣٥ . ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق جـ١ ص١٨٤.
يحيى بنادمالقرشي ، الخراج ص ٧٩ .

وقيل ان سعيد بن العاص الاموي قال وهو وال لعثمان بن عفان على الكوفة ، انما هذا السواد بستان لقريش ، فقال الاشتر النخعي ، اتزعم ان السواد الذي افاءه الله علينا باسيافنا بستان لك ولقومك .

تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٣٢٣.

(١٩٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٨٣ .

(١٩٥) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣١٩ .

(١٩٦) المصدر نفسه ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(١٩٧) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٢٠.

ويورد ابن عساكر حديث بريدة لاسامة قال له ، شهدت رسول الله (ص) يوصي اباك ان يدعوهم الى الاسلام ، فان اطاعوه خيرهم ، فان احبوا ان يقيموا في ديارهم ويكونوا كاعوان للمسلمين فلا شيء لهم في الفيء ولا في الغنيمة ، الا ان يجاهدوا مع المسلمين ، وان تحولوا الى دار الاسلام كان لهم ما للمهاجرين ، وعليهم ماعلى المهاجرين .

ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص١٢٤ .

(١٩٨) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٣٢٦ .

(١٩٩) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٤، ١٦٦ . خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ص١٥٩، ١٦٣.

(٢٠٠) البلاذري ، فتوح البلدان ج٢ ص ٤٢١،٤٤١ .

(٢٠١) انظر : صالح العلي ، التنظيمات في البصرة ص١٦٥ـ١٧٠.

(٢٠٢) الازدي ، فتوح الشام ص٢٥٣ـ٢٥٤ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج٣ ص ٦١٧. المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٣ ـ ٣١٥ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج٢ ص ٣٥٢.

(٢٠٣) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٠٨ .

(٢٠٤) سورة النساء ايـة٦ .

(٤٠٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٧٩.

(٢٠٦) انظر : اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٧ . ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص٢٨١ـ٢٨٢. ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

ومما يروي ان خالد بن الصعق وقيل عمرو بن الصعق شكى الى عمر بن الخطاب ما عليه الولاة من جمع المال وكتب ذلك شعرا قال :

ابلغ امير المؤمنين رسـالة ... فانت ولي الله في المال والامـر
فارسل الى النعمان فاعلم حسابه ... وارسل الى جزء وارسل الى بشر
ولا تنسين النافعين كليهما ... وصهر بني غزوان عندك ذا وفـر
اذا التاجـر الهندي جاء بفارة ... من المسك راحت في مفارقهم تجري
نبيع اذا باعوا ونغزوا اذا غزوا ... فاني لهم مال ولسنا بذي وفـر
فقاسمهم نفسي فداؤك انهـم ... سيرضون ان قاسمتهم منك بالشطر

وفي ظني ان الاسماء الواردة في هذا الشعر هي لعمال في خلافة معاوية وليس في خلافة عمر ، ولكن مقاسمة عمر للعمال جرت.

انظر من اجل الشعر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٤٦ ـ ١٤٩.

(٢٠٧) ابن الطقطقي ، الفخـري ص ٧٣،٢٩ .

(٢٠٨) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ج ٤ص٤٣.

(٢٠٩) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٤١ـ١٤٢.

(٢١٠) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤١-٣٤٢ .

(٢١١) عمر بن شبه ، تاريخ المدينة المنورة ج ١ ص ٢١٩-٢٢٥ .

(٢١٢) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٢.

(٢١٣) المصدر نفسه ج ٢ص٣٤٢ .

(٢١٤) ابن خلدون ، المقدمة ص١٥٣-١٥٤.

(٢١٥) من اجل كتاب صدقة علي بن ابي طالب ، انظر : زيد بن شبه ، تاريخ المدينة المنـــورة ج١ ص٢٢٦ - ٢٢٨ .

(٢١٦) زيد بن شبه ، تاريخ المدينة المنورة ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢١٧) المصدر نفسهج ٢ ص ٧٥٦ - ٧٥٧ .

(٢١٨) صالح العلي ، التنظيمات في البصرة ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨١ .

(٢١٩) ابو يوسف ، الخراج ص ٣٧ ، ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص٥٦-٥٧ .

(٢٢٠) انظر : الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ص ٥٩. مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ٢٩. جمال جودة ،العرب والارض فيصدر الاسلام ص ١١٠-١١١ .

(٢٢١) ابو جعفر الطبري ،تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٨٧.

(٢٢٢) ابو يوسف، الخراج ص ١١٤.

(٢٢٣) ابو عبيد بن سلام ، الاموال ص٦٢-٦٣.

(٢٢٤) انظر : يحيى بن ادم القرشي، الخراج ص٢٢.

(٢٢٥) ابو يوســف ، الخراج ص١٢٥ .

(٢٢٦) انظر : فون كريمر ، تاريخ الحضارة في الشرق ج ١ ص ١٧١.

★ ★ ★

البَلْقَــــاء

من الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري

((دراسة سياسية ادارية))

د . محمد عبد القادر خريسات

الجامعة الاردنية

الاسم والمدلول

ورد اسم البلقاء في المعاجم العربية والمصادر الجغرافية والتاريخية الاسلاميــة غير أن هذه المصادر لم تتفق على معنى الاسم ومدلوله .

ففي المعاجم العربية جاءت كلمة ((البلقاء)) بمعان مختلفة ، ومشتقة من الالفاظ التالية :

البلق : بمعنى السواد والبياض المختلطين ولذلك قيل أبلق وبلقاء لمن كانت فيه هاتان الصفتان . ووردت كذلك بمعنى الفتح ،أي انبلق الباب بمعنى انفتح . والبلقاء تانيث لكلمة أبلق ، والبلوقة الارض القفر التي لا ينبت فيها الشجر . أما كلمــة البلقاء نفسها فقد جاءت بمعنى الفسطاط والارض المستوية(١) .

هذا من الناحية اللغويــة ، أما من الناحية الاصطلاحيــة فالبلقاء شأنها شــأن المسميات الاخرى في بلاد الشام التي نسبت الى أقــوام أو اشخاص ســكنوا هــذه المنطقة ، فكان ان نسبها بعض الجغرافيين والتاريخيين الى بالق بن مآب أو الى بالق ابن سويرية من بني عمان ،أو بلقاء بن صفر(٢) . وبالق هذا هو ملك المؤابين الذي استعان

بالعراف بلعام Balaam ليصب لعنته على اليهود (٣) . ومن خلال ما تقدم فان تسمية البلقاء قد جاءت إما من الاشتقاق اللغوي ، واما بنسبتها الى شخص ما . وهنا لابد من مناقشة الأمرين علنا نتوصل الى عامل مرجح لهذه التسمية .

ان نسبة الاسم الى الاشتقاق اللغوي المأخوذ من البلوقة ، أي الارض القفر التي لا تنبت الشجر ، لا ينطبق وواقع البلقاء التي اشتهرت بخصوبة تربتها وبحسن انتاجها لنحبوب خاصة القمح الذي ضرب به المثل(٤) ، ولا لكثرة غاباتها التي كانت منتشرة في الزرقاء الى الشرق من عمان حتى أطلق عليها اسـم « المسبعة » (٥) لكثرة سباع غاباتها ، ولا لغابات السلط الكثيفة الواقعة الى الغرب من عمان حيث جاءت تسمية المدينة من الكلمة اللاتينية Saltus (٦) أي الغابات الكثيفة . هذا بالاضافة الى الاشجار المثمرة التي كانت منتشرة في معظم أنحاء البلقاء كما سنرى. لكل ذلك يستبعد ان تكون البلقاء قد أخذت اسمها من الاشتقاق اللغوي لكلمة البلوقة التي جاءت بمعنى الارض القفر .

ومن ناحية نسبتها الى شخص معين « كبالق » فان هذهالتسمية بعيدة الاحتمال لكون كثير من الجغرافيين كانوا يلجأون الى مثل هذه التسميات قياسا على مناطق نسبت فعلا الى أشخاص معينين . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ان التوراة لم تورد هذه التسمة ، كما أنها لم تشر الى أن بالق بن صفور(٧) ملك المؤابيين هذا قد أطلق اسمه على بعض المناطق التي كانت تحت سيطرتـه ، بالاضافة الى أن حدود المؤابيين لم تتجاوز وادي الموجب في حين كانت سهول ميدبا (مادبا اليوم) وحشبون (حسبان اليوم) من أملاك الاموريين(٨) وربة عمون من أملاك العمونيين(٩) . وهذه المناطق هي من أرض البلقاء فلا يعقل ان يطلق الاموريون والعمونيون على مناطقهم اسم ملك بلد مجاور . وهذا يرجح ان التسمية قد أطلقت في وقت متأخر عن بالق بن صفور ، لكن الجغرافيين نسبوها الى بالق ملك المؤابين حتى يضفوا على هذه التسمية شيئا من الاهمية .

ومما يدعم احتمال بعد هذه التسمية ان المصادر التي ذكرت نسب بالق هذا قد جاءت مختلفة ولم تتفق على نسق واحد في تسلسل هذا النسب(١٠) .

ومن الجدير بالذكر أيضا أن هناك مناطق أخرى قد سميت « بالبلقاء » دون أن تنسب الى اسماء أشخاص كما نسبت البلقاء موضوع الدراسة(١١) .

ومما تقدم فان أحد الاشتقاقات اللغوية لكلمة البلقاء بمعنى البلق أي السواد

والبياض المختلطين، وبمعنى الارض المستوية، هماأقرب الاحتمالات لمصدر هذه التسمية للأمور التالية :

١ ـ ان منطقة البلقاء كانت مطروقة لعرب الجزيرة العربية منذ عصور ما قبل الميلاد ، بل أن بعض الدول اليمنية قد أقامت لها مستوطنات على الطريق التجاري كمعان التي كانت مستعمرة هامة للمعينيين(١٢) وقد حملت هذه المستعمرة اسمهم فسميت بيت بعل معون(١٣) .

٢ ـ ان هجرة القبائل العربية الى أطراف الشام قد بدأت مع مطلع الالف الاول قبل الميلاد ، ثم ظهرت بصورة متزايدة في القرن الثالث الميلادي ، ومن هذه القبائل قضاعة التي غلبت على معظم مناطق البلقاء(١٤) واتخذت لها راية سمتها « البلق »(١٥) والبلق كما رأينا من الاشتقاقات اللغوية لكلمة البلقاء ، ولعل في هذه التسمية ارتباط بين الراية ومناطق قضاعة في هذه المنطقة .

٣ ـ ضمت البلقاء مناطق جبلية بيضاء أشار اليها المقدسي في أواخر القرن الرابع بقوله (١٦) :

« ان بعمان جبال بيض تسمى الحوارة فيه أدنى صلابة يبيض به السقوف ويطين به السطوح . . ».

والى جانب القمم البيضاء وجدت الغابات في جبال وسهول البلقاء ، بالاضافة الى ان المنطقة المتاخمة لها من الجهة الشمالية والشمالية الغربية قد أطلق عليها اسم السواد ، فذكر ياقوت(١٧) بأن السواد موضعان : أحدهما قرب البلقاء سميت بذلك لسواد حجارتها . . والاخر بالعراق سمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والاشجار .

٤ ـ الى جانب مناطق السواد والبياض في البلقاء ضمت هذه المنطقة اراضي مستوية واسعة في سهول حسبان او مناطق الازرق او مناطق معان .

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول بان كلمة البلقاء كلمة عربية جاءت من الاشتقاق اللغوي للبلق وهو بمعنى السواد والبياض والارض المستوية وليس من نسبتها الى شخص معين كما نقلت لنا بعض المصادر .

حدود البلقاء :

ان اختلاف التقسيمات الادارية عبر العصور الاسلامية ادى الى عدم اتفاق

المصادر على تعيين حدود البلقاء ، ورغم هذه الاختلاف فانه يمكن رسم الصورة التالية لحدود البلقاء خلال فترة هذه الدراسة .

ان حد البلقاء من الجنوب هو الحد الفاصل بين بلاد الشام والجزيرة العربية ، وفي هذا الحد تقع بادية الشام وبادية الجزيرة ، فتيماء وبرية خساف الى قرب وادي القرى والحجر من بادية الجزيرة ، وأما حد بادية الشام فأوله أيلة وديارطيء وبذلك تصبح أيلة أول حد البلقاء من الجنوب . وهذا يخالف ما ذكره ياقوت من أن وادي القرى هو الحد الفاصل بين الجزيرة العربية وبلاد الشام(١٨) . وعلى هذا الاساس تقريبا جرى رسم الحدود بين الاردن والسعودية في الوقت الحاضر . ومن الغرب فقد سارت حدود البلقاء الى الغرب من الطريق التجاري القديم المار من بصرى والمتجه جنوبا الى نهر الزرقاء ، ومن جنوب نهر الزرقاء كان نهر الاردن وامتداده « وادي عربة » الى أيلة (العقبة) هو الحد الفاصل عن جند فلسطين الذي امتد عرضه من يافا الى اريحا(١٩) . ومن الشمال وصلت حدود البلقاء الى أذرعات والبثنية فما كان من جنوبها فهو من البلقاء (٢٠) .

ومن الشرق امتدت البلقاء الى ما بعد منطقة الازرق حيث بادية الشام(٢١). وهكذا نجد أن البلقاء قد اطلقت على جميع المنطقة التي سميت فيما بعد بشرق الاردن باستثناء المنطقة الواقعة الى الغرب من الخط التجاري القديم الممتد من بصرى الى الجنوب والمحصورة بين نهري اليرموك شمالا والزرقاء جنوبا ، اذ كانت هذه المنطقة من جند الاردن(٢٢) . وقد قدرت المسافة بين القدس والبلقاء بمرحلتين ومن مشارف حوران الى البلقاء بثلاث مراحل(٢٣) .

وفي العصور الحديثة استقرت حدود البلقاء بالمنطقة المحصورة بين نهر الزرقاء شمالا ونهر الموجب جنوبا الى نهر الاردن غربا والازرق والبادية شرقا(٢٤) .

البلقاء عند الفتح الاسلامي :

كشفت الحفريات الاثرية في بعض مناطق البلقاء أن هذه المنطقة كانت مأهولة منذ العصور الحجرية القديمة(٢٥) ، ومع بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد نشأ في هذه المنطقة ممالك صغيرة كان من أهمها الادوميون والمؤابيون في جنوب البلقاء والاموريون والعمونيون في شمالها . وفي مطلع القرن الاول قبل الميلاد نشأت في جنوب البلقاء دولة عربية هي دولة الانباط التي بلغت أوج مجدها زمن الملك الحارث الرابع (٩ق.م ــ ٤٠ م) وامتد نفوذها على شرق الاردن اليوم جميعها وجنوب فلسطين وحتى حدود دمشق وشمال الجزيرة العربية(٢٦) .

وفي هذه الفترة ، أي القرن الاول قبل الميلاد ، بدات هجرة القبائل العربية الى أطراف الشام . ثم تتابعت في القرن الثالث الميلادي فكانت قضاعة من أوائل القبائل المهاجرة واستقرت في البلقاء(٢٧) . وفي أواخر القرن الثالث الميلادي هاجرت قبيلة غسان برئاسة عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء واستوطنت أول أمرها البلقاء(٢٨) ثم استولت بعد ذلك على مناطق سليح في حوران واقامت في الشام مملكة الغساسنة التي امتد نفوذها زمن الملك جبلة الاول (ت ٤٩٧ م) الى فلسطين(٢٩) .

ومع مطلع القرن السادس الميلادي دب الضعف في مملكة الغساسنة الذين انقسموا الى خمس عشرة فرقة على كل منها رئيس او شيخ ، كان أبرزها آل جفنة. ويذكر ابن سعيد الاندلسي (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٥٩ م) ان الروم قد أخذت دمشق من آل جفنة بعد ان ضعفت مملكتهم وأخرجتهم الى عمان مدينة البلقاء ، وجعلت دمشق متنزها لملوكهم(٣٠) .

وقبيل الفتح الاسلامي سكنت قبيلة غسان البلقاء في مناطق أذرح ومعان والقسطل وعمان بالاضافة الى حوض اليرموك والجولان وصيدا وجبلة(٣١) . هذا وقد ترك الغساسنة آثارا متعددة في البلقاء منها صرح الغدير ، وهو عبارة عن حمام شيده عمرو بن جفنة في المنطقة المحاذية لحوران في السهل الواقع الى الشرق من قصر الحلابات(٣٢) ، وقصر أبير (باير) ، وقصر معان وشيدهما الحارث بن جبلة(٣٣) ،وقصر القسطل الواقع على بعد ٨ كم الى الغرب من المشتى ، ويعتقد بان جبلة بن الحارث قد امر ببنائه بالاضافة الى القناطر وأذرح(٣٤) .

وشارك الغساسنة في البلقاء قبائل منها جذام التي امتدت مناطقها من وادي القرى وبادية الشام الى حسمى وأذرح وجبال الشراة ومعان وأيلة الى حدود فلسطين(٣٥) ، وقد جعل هذا الاتساع منها قبيلة قوية تقف على قدم المساواة مع مملكتي كندة والغساسنة(٣٦) . ومنها عذرة ما بين وادي القرى والبلقاء(٣٧) ، ولخم في جنوب البلقاء بالاضافة الى مناطقها في الجولان وحوران والبثنية ونوى(٣٨)، وقضاعة في أيلة وجبال مؤاب وبادية الشام مما دعا الروم الى استعمالهم على هذه البادية(٣٩)، ومنها سليح ما بين غزة وجبال الشراة والموقر وخارج البلقاءفي السلمية وحوران(٤٠)، وبلي خاصة بني اراشة جنوب البلقاء قرب مؤتة(٤١) ، كما استقرت بعض فروعها في غرندل بالاضافة الى منطقة الحيانيات في كورة جرش والجولان ونوى والبثنية(٤٢) .

مما تقدم نرى أن البلقاء كان يقطنها عند الفتح الاسلامي قبائل غسان وجذام وعذرة ولخم وقضاعة وسليح وبلي ، وقبائل أقل شأنا مثل بهراء وبلقين في غرندل(٤٣) .

وكان للبلقاء قبل الفتح الاسلامي أهمية تجارية كبرى نظرا لموقعها على الطريق التجاري الواصل من قلب الجزيرة العربية الى مصر مرورا بالبلقـاء وفلسطين ، كما أصبحت هذه المنطقة ايضا ملتقى للطريق العرضاني الواصل بين العراق والبحر المتوسط من جهة والطريق الطولاني (طريق ماريس Via Maris) الذي يبدأ من دمشـق الى حوران ثم جلعاد ومنها الى مؤاب ثم الى الجنوب ليتصل بطريق القوافل التجاريـة . ونظرا لاهمية هذا الطريق التجاري والعسكري فقد تم رصفه في أواخر القرن الاول الميلادي على يد القائد الروماني تراجان (٩٨ – ١١٧م) .وقد اصبح هذا الطريـق فيما بعد طريقا للقوافل التجارية وقوافل الحجاج الى مكة(٤٣) .

وقد أكسب هذا الموقع البلقاء اهمية خاصة في علاقاتها مع الحجاز ، سواء في ميادين التجارة أم العبادة . ويستدل على العلاقة التجارية أن أبا سفيان قد امتلك ضيعة في البلقاء تدعي بقيش(٤٤) . وفي ميادين العبادة حمل عمرو بن لحي صنم هبل من البلقاء وتوجه به الى مكة عندما راى أهل البلقاءيعبدونها ويستمطرونها ويستنصروا بها على عدوهم ، فنصبه في الكعبة وطلب من الناس عبادته وتعظيمه(٤٥) .

وزيد بن عمرو بن نفيل الذي خرج يلتمس دين ابراهيم عليه السلام فلما توسط ارض جذام قتل بأرض ميفعة(٤٦) .

ولم تقتصر اهمية البلقاء على الموقع التجاري فحسب بل جاءت ايضا من الاهمية الزراعية والصناعية ، فمن الناحية الزراعيـة تميزت أرض البلقاء بخصوبة التربـة ووفرة المياه مما ساعد على تنوع المحاصيل الزراعية فيه . وياتي على رأس المحاصيـل الزراعية التي اشتهرت بها المنطقة الحبوب وخاصة القمح حتى سميت البلقاء بمعدن الحبوب(٤٧) نظرا لكثرة انتاجها منه وجودته .

ونظرا لحاجة أهل الحجاز الى هذا المحصول نشطت العلاقات التجارية، فالحجاز يأخذ القمح ،والبلقاء يحصل على التمر . وقد ذكر ابن حجر العسقلاني(٤٨) اسم أحد تجار القمح الى الحجاز وهو سيماه البلقاوي ، وقد كان هذا بالاضافة الى مهنتـه التجارية شماسا في البلقاء ، وقد التقى بالنبي (ص) أثناء بعض رحلاته فأسلم على يديه.

واشتهرت البلقاء كذلك بأشجار الزيتون في اذرح ووادي موسى ، واللوز والتين والرمان والكروم في أذرح ومآب والسلط(٤٩) ، والنخيل في زغر حتى أن ثمرهاسمي « بالانقلاء » ووصف بأنه من اجود أنواع التمور عذوبة وأحسنها منظرا(٥٠) ، وكذلك في ايلة(٥١) . وشجرة النيل في زغر والغور التي كانت تستخدم في الصباغة(٥٢) ،وقصب

السكر في الغور(٥٣) والزعفران في جادية(٥٤) ، والروائد الشامي في عمان(٥٥) بالاضافة الى أنواع أخرى من الفاكهة والخضار . وفي مجال الصناعات تميزت جنوب البلقاء بصناعة السيوف لتوفر مادة الحديد ، وقد وجدت هذه الصناعة في مشارف ، واليها نسبت السيوف المشرفية(٥٦) ، ومؤتة التي ذكرها الشاعر كثير عزة بقوله(٥٧) :

اذا الناس ساموكم من الامر خطة لها خمطة فيها السمام المثمل
أبى الله للشم الانوف كلها صوارم يجلوها بمؤته صيقل

والشراة التي ينسب اليها السيوف الشروية(٥٨) . واشتهرت زغر بصناعة الكنائن الحمر (٥٩) .

واشتهرت جنوب البلقاء كذلك بصناعة الخمور خاصة في زغر ومآب حيث كانت تكثر شجرة الكرمة ، وكان أهل البلقاء يلقحونها بالحمر الذي كان يستخرج من البحر الميت(٦٠) . وقد وصف خمر زغر ومآب الشاعر حاتم الطائي بقوله(٦١) :

سقى الله رب الناس سحا وديمة جنوب الشراة من مآب الى زغر
بلاد امريء لا يعرف الذم بيته له المشرب الصافي وليس له الكدر

ومن الصناعات التي اشتهرت بها البلقاء الطواحين التي ساعدت وفرة المياه على وجودها(٦٢) .

وفي عهد الرسول « ص » لم تقتصر العلاقات على النواحي التجارية بل امتدت كذلك الى الناحية السياسية عندما بعث عليه الصلاة والسلام رسلا الى ملكي البلقاء من الفساسنة الحارث بن ابي شمر الغساني وابن عمه جبلة بن الأيهم(٦٣) ، والى فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على معان(٦٤) ، ويحنة بن رؤبة صاحب أيلة(٦٥) .

وقد ادى مقتل الحارث بن عمير رسول رسول الله« ص »من قبل صاحب بصرى الى بدء المواجهة الحربية بين المسلمين والقبائل العربية المتنصرة في الشام تدعمهم بيزنطة، فكانت غزوة مؤتة . ولئن مني المسلمون بهزيمة من الناحية التعبوية فان هذه الغزوة مكنت الرسول « ص » فيما بعد من اقامة علاقات ودية مع كبرى قبائل المنطقة وهي « جذام »(٦٦) ، كما عقد صلحا مع أيلة واذرح والجرباء(٦٧) . وبالاضافة الى نشر الاسلام فقد كان هم الرسول « ص » الوصول الى صناعة السيوف التي كانت منتشرة في جنوب البلقاء كما ذكرنا

وقد ساعدت هذه الاتصالات على تكوين منطقة نفوذ للمسلمين امتدت من المدينة الى جبال الشراة في البلقاء . وربما كان هذا النفوذ مشجعا للرسول «ص» في تجهيز حملة أسامة بن زيد للاغارة على البلقاء والداروم من فلسطين(٦٨) ، الا ان هذه الغزوة لم تنفذ في حياته ونفذت في عهد خلفه ابي بكر الصديق .

وأمام سرايا الرسول « ص» الى المناطق الجنوبية من البلقاء وسرية اسامةبنزيد فيما بعد ادرك البيزنطيون أهمية البلقاء ودورها العسكري في مواجهة المسلمين والدفاع عن دولتهم فاتخذوا رابطة (حامية) لهم في عمان قدر عددها بخمسة الاف رجل(٦٩) .

فتح البلقاء :

اصبحت البلقاء منطقة مواجهة فعلية بين المسلمين والبيزنطيين ، ونظرا لموقعها العسكري الهام فلابد وان تكون أول المناطق التي ستجهز لها الجيوش . والواقع ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه ادرك أهمية هذه المنطقة رغم انشغاله بحروب الـردة فعقد لخالد بن سعيد بن العاص وطلب منه ان ينزل تيماء على حدود البلقاء ولايبرحها والا يقاتل الا من قاتله حتى تأتيه أوامر الخليفة .

وأمام ارسال خالد بن سعيد الى تيماء قام الروم باستعدادات عسكرية فطلبوا من عرب الضاحية (القاطنون خارج المدن) لينفروا اليهـــم ، فنفرت بهـراء وكلب وسليـح وتنـوخ ولخم وجـذام وغسان ونزلوا بالقرب من زيزاء ليكونـوا خطـا دفاعيا للرابطة (الحامية) التي كانت في عمان . والظاهر ان خالد بن سعيد بعـد ان تجمعت لديه القبائل التي كانت على حدود ومشارف البلقاء تشجع للتقدم فأرسل الى الخليفة يستأذنه بذلك فوافق الخليفة ، وبدأ خالد بالتقدم فانضم اليه عامة من تجمع له من عرب الضاحية والتقى بالرابطة البيزنطية قرب زيزاء فاوقع بـه الروم هزيمـة منكرة ، فاستبدل ابو بكر جميع جيش خالد فسمي الجيش جيش البدال(٧١) .

وبعد ان فرغ أبو بكر من قتال المرتدين اهتم بالاتجاه نحو الشام ،فجهز جيوشه وأمرها ان تسلك طريق القوافل التجارية (طريق البلقاء) ، فسار ابو عبيدة من وادي القرى الى الحجر وذات المنار الى مآب فصالحت أبا عبيدة فكانت أول مناطق البلقاء صلحا وهي يومذاك فسطاطا ولم تكن بمدينة(٧٢) . ومن مآب توجه أبو عبيدة الى عمان فخرجت اليه حاميتها فهزمهم المسلمون فتحصن الروم بداخل المدينة وشددالمسلمون عليهم الحصار(٧٣) .

والظاهر أن المسلمين قد فكوا الحصار عن المدينة ثم عادوا بعد ذلك اليها ، فيذكر الواقدي(٧٤) ان جيوش الفتح قد توزعت على مناطق الشام ، فكان يزيد بن ابي سفيان في البلقاء ، وشرحبيل بن حسنة في بصرى ، ومعاذ بن جبل في حوران وعمرو بن العاص في فلسطين .

وقد تمكن يزيد بن ابي سفيان من فتح عمان صلحا وفق الشروط التي فتحت بها بصرى على ان يمنح أهلها الامان على دمائهم وأموالهم مقابل دفع الجزية للمسلمين(٧٥) . ويذكر الواقدي(٧٦) ان جنان وهي حصن منيع بالقرب من عمان قد صالح أهلها على عشرة آلاف دينار ، كما يذكر المقدسي(٧٧) ان صلح البلقاء كان على الف ألف درهم وطيلسان وهذا يدل على اهمية المنطقة وغناها .

وبعد الفتح استقرت قبائل جديدة في البلقاء خاصة في القطائع التي كانت تحت يد أنباط القرى والتي لحقت بالروم بعد الفتح الاسلامي ، فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة عليهم(٧٨) . وقد سكنت هذه المناطق بالاضافة الى القبائل التي كانت قبل الفتح الاسلامي بعض بطون قريش في الشراة(٧٩) ومعان(٨٠)، وبعض بطون قيس ، كبني مرة وفزارة(٨١) وثقيف(٨٢) في البلقاء وحوران ، بالاضافة الى قبيلة طي التي كانت متنقلة في البلقاء(٨٣) .

ومن الناحية الادارية كانت البلقاء من ضمن جند دمشق ، وضمها الى هذا الجند نابع من اهميتها التجارية ووقوعها على طريق الحج ، ولا تذكر المصادر أول من تسلم البلقاء لكن من المرجح ان فاتحها يزيد بن ابي سفيان كان أول من تسلم هذه المنطقة . وبعد وفاته أشارت المصادر الى أن معاوية بن ابي سفيان قد عين على البلقاء بالاضافة الى الاردن وفلسطين والسواحل وأنطاكية ، ثم جمعت له الشام كلها فيما بعد(٨٤) . هذا ولا تشير المصادر من كان على البلقاء قبل تسلم معاوية الخلافة في حين أنها أشارت الى تعيين علقمة بن علاثة بن عوف بن الاحوص على حوران من قبل عمر ابن الخطاب ، وحوران كانت من جند دمشق(٨٥) .

البلقاء في العهد الامــوي :

نالت البلقاء عناية خاصة من الامويين نظرا لوقوعها على الطريق التجاري وطريق الحج من جهة ، ولكونها اصبحت المتنفس لخلفاء وأمراء بني أمية من جهة ثانية . ويدل على هذا الاهتمام تلك القصور التي شيدها الامويون في هذه البلاد والتي لا تزال آثارها ماثلة للعيان في جميع انحاء البلقاء ، في أيلة (العقبة) ومعان وأذرح والجرباء والحميمة وغور الاردن والبادية وعمان(٨٦) .

ومن قصور الامويين في البلقاء قصير عمره ، وقصر الحرانة (الخرانة) في شمال شرق عمان ، وقد بني في عهد الوليد بن عبد الملـك ، وقصر العوينـد جنـوب شرقي قصير عمرة ، وقصر المشتى جنوب غربي الموقر وتم بناؤه في عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وقصر الموقر في عهد يزيد بن عبد الملك ، وقصر أبير (باير) وهو قصر غساني أعيد ترميمة من قبل الامويين ، وقصر معان الذي شيد على تلة مرتفعة ليزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد ، وقصر عمان الذي كشفت عنه الحفريات مؤخرا وقامت دائرة الآثار بترميمه(٨٧) .

ومن الطبيعي أن يشيد الامويون الى جانب القصور المساجد ، فكان أن أقامـوا مسجدا في عمان وصفه المقدسي(٨٨) بأنه كان مزينا بالفسيفســـاء حتى صار يضاهي مسجد مكة ، ويقوم مكانه اليوم المسجد الحسيني في وسط عمان . ومســجد خان الزبيب على بعد ٨ كم الى الغرب من القطرانة ، ومسجد أم الوليد على بعد ٩ر٥ كم الى الغرب من زيزا ومسجد أهل الكهف في الرقيم ومسجد قصر الحلابات(٨٩).

واهتم الامويون كذلك بالمشروعات المائية سواء كانت للشرب أم لري المحاصيل الزراعية ، فعلى سبيل المثال أقاموا بركة ماء في زيزاء لتسقي قوافل الحجاج ، وبركة ثانية في الموقر وثالثة في الضليل ، كما عثر في هذه المنطقة على آبار تعود الى الفتـرة الامويـة(٩٠) .

أما من الناحة الادارية فقد كانت البلقاء من الوحدات المتميزة في بلاد الشام ، وتظهر هذه الميزة أن الحصين بن نمير السكوني اشترط على مروان بـن الحكم عندما بايعه بالخلافة بان يجعل له ولقومه كورة البلقاء ، ووافق مروان على هذا الشرط الا أنه لم يف به بعد أن استقرت له الامور(٩١) . هذا مع العلم بأن أهل البلقاء قد وقفـوا الى جانب مروان بن الحكم وكانوا من الداعين له بالخلافة بعد وفاة معاوية بن يزيد وقيام مروان بن الحكم بالمطالبة بالخلافة(٩٢) .

ونظرا لاهمية البلقاء كان واليها يعين في حالات كثيرة من قبل الخليفة ، ففي عهد عبد الملك ورد اسم والي البلقاء مع أجناد الشام الاخرى على النحو التالي(٩٣) : فلسطين وعليها سليمان بن عبد الملك ، وحمص وعليها عبد الله بن عبد الملك ، والاردن وعليها أبو عثمان بن مروان بن الحكم والبلقاء وعليها محمد بن عمر الثقفي . ووليها في عهده أيضا ابان بن مروان بن الحكم ، وعلى شرطتها الحجاج بن يوسف الثقفي(٩٤) .

هذا وقد أصهر عبد الملك بن مروان الى البلقاء عندما تزوج الشقراء بنت شبيب

بن عوانة الطائية على مهر مائة من الابل وعشرة الاف درهم وما يتبع من الطيب والخدم والاثاث . ونالت الشقراء عنده حظوة مما دفع عاتكة بنت يزيد بن معاوية أن ترجو روح بن زنباع الجذامي ان يفسد من شأنها عند عبد الملك(٩٥) .

وفي عهد عبد الملك بن مروان كانت « عمان » مركز البلقاء ومركزا لضرب بعض العملات الأموية خاصة بعد ان قام عبد الملك بتعريب النقود . وقد كشفت التنقيبات الاثرية التي تمت في ساحة السوق الرومانية وسط عمان ما بين عام ١٩٦٥ – ١٩٦٧ عن مجموعة من الفلوس النحاسية الاموية ضربت في عمان(٩٦) .

وفي عهد الوليد بن عبد الملك لا تشير المصادر الى ولاة البلقاء بالرغم من انها كانت متنزها للوليد ، ويدل على ذلك القصور التي شيدها في البلقاء كما ذكرت سابقا .

وفي عهد سليمان بن عبد الملك تبدو البلقاء كمركز من مراكز القيسية خاصة لآل أبي عقيل من ثقيف ، فنقم عليهم وسلمهم الى يزيد بن المهلب ليخرج أموالهم ويعذبهم ، وقد حاول يزيد بن عبد الملك التوسط لدى ابن المهلب لاطلاق سراحهم ، الا انه لم يقبل شفاعته فقال له يزيد : « أما والله لئن وليت من الامر شيئا لأقطعن منك عضوا . فرد عليه ابن المهلب :وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف »(٩٧) .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز حافظت البلقاء على اهميتها، حيث ورد في التقسيمات الادارية اسم واليها مع اجناد الشام الاخرى، اذ جاءت التقسيمات على النحو التالي(٩٨): دمشق وعليها عبد الله بن الحساس العذري و فلسطين وعليها النصر بن بريم بن ابراهيم ابن الصباح والاردن عبادة بن سبي الكلبي وحمص وعليها يزيد بن حصن السكوني، وقنسرين وعليها الوليد بن هشام بن الوليد بن عتبة ، والبلقاء وعليها الحارث بن عمرو الطائي .

ويجيء تعيين وال على البلقاء من طي ليضع عمر بن عبد العزيز حدا لسيطرة القيسية على البلقاء ، وخاصة آل عقيل ، ويستدل على ذلك من الرسالة التي بعث بها الى واليه الحارث الطائي يقول له : أما بعد فاني بعثت اليك بآل عقيل ، وبئس والله أهل البيت في دين الله تعالى وهلاك المسلمين ، فأنزلهم بقدر هوانهم على الله تعالى وعلى امير المؤمنين(٩٩) .

ولما تسلم يزيد بن عبد الملك الخلافة اتخذ من الموقر في البلقاء مقرا له فوفد اليه الشعراء ، ككثير عزة (١٠٠)، والفرزدق(١٠١) وجرير(١٠٢) وغيرهم . وقد بقي في البلقاء حتى وفاته سنة ١٠٥ ، فذكرت بعض المصادر أنها كانت بعمان(١٠٣) والبعض الآخر انها كانت باربد من الاردن(١٠٤) .

وفي عهد هشام بن عبد الملك عين على البلقاءصفوان بن سلمة الأراشي وهو سليل النواح بن سلمة بن كهلة الأراشي أدرك الرسول « ص » وجده كهلة الذي مطله أبوجبل حقهفلجأ الى قريش فلم يجبهم ابو جهل ، فقصد الرسول « ص » وذهب معه الـى ابي جهل فأعطاه حقه فلامت قريش أبا جهل على قبوله شفاعة محمد « ص » ورفض شفاعتهم فقال أبو جهل : رأيت معه بعيرا فاغرا فاه والله لو امتنعت لأكلني(١٠٥) .

وفي عهد هشام صارت البلقاء مركزا لولي عهده الوليد بن يزيد خاصة بعد أن ساءتعلاقاته مع عمهومعه خاصته ومواليه فنزل على ماء يقال لهالاغدف بالازرقبعد ان خلف كاتبه عياض بن مسلم مولى عبد الملك بن مروان بالرصافة كي يطلعه على أحوال الدولـة(١٠٦) . ولكون البلقاء كانت مركزا اقامة والده من قبل ومركز أخواله مـن ثقيف(١٠٧) فقد استمر بها بعد بيعته بالخلافة ، وشيد بها القصور كما ذكرت .. وفي موسم الحج كان يتخذ من محطة زيزاء مركز إقامة له ليشرف على قوافل الحجاج ، وذكر الطبري(١٠٨) أنه كان يطعم الحجاج ثلاثة أيام ويعلف دوابهم ويجيب دعوة مـن يسأله . ونظرا لقرب عمان من الأزرق ، وحتى يبقى خصومه تحت أنظاره ، اتخـذ منها سجنا للخارجين عليه من بني أمية ، فعندما اشتد الخلاف بينه وبـين أبنـاء هشام بن عبد الملك ضرب سليمان بن هشام مائة سوط وحلق لحيته وغربه الى عمان فلم يزل محبوسا بها حتى قامت الثورة على الوليد بن يزيد(١٠٩) .. واستمر الوليد في البلقاء ، حتى بعد ان وصلته اخبار الثورة عليه الى أن قتل على ارضها ، ولم يسمع لنصائح أعوانه بالخروج منها الى مناطـق أخرى بالشـام(١١٠) . وبعد مقتلـه خرج سليمان بن هشام من سجنه في عمان وأخذ ما كان من الاموال واتجه الى دمشق يلعن الوليد ويعيبه بالكفر(١١١) .

ولما تسلم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الخلافة نقـم على آل ابي عقيـل نظرا لارتباطهم بالوليد بن يزيد ، فتتبع يوسف بن عمر الثقفي الذي خرج هاربا من العراق الى موطنه في البلقاء ، فالقى عليه مسلم بن ذكوان ومحمد بن سعيد بن مطرف الكلبي القبض ومعهما خمسون رجلا من جندالبلقاء فأودع السجن الى ان مات مقتولا فيـه سنة ١٢٦ هـ (١١٢) .

ولما أخذت الدعوة العباسية تشتد في الحميمة وعلم بها مروان بن محمـد كتب الى والي دمشق الوليد بن معاوية بن عبد الملك أن يأخذ ابراهيم بن محمد الامـام من الحميمة ، فكتب الوليد بن معاوية الى عامل البلقاء سفيان بن يزيد بن محمد بن عطيـة السعدي ليأخذ ابراهيم بن محمد الامام فسار اليه والي البلقاء وارسله الى دمشق ، ثم أرسل بعد ذلك الى مروان بالجزيرة حيث لقي حتفه هناك(١١٣) .

ولما قامت الثورة على الامويين ، واشتركت بها معظم الاحزاب والقبائل ، بقي أهل البلقاء على ولائهم للامويين بالرغم مما لحق ببعض أهله من قتل وتعذيب على أيدي بعض الخلفاء الامويين ، ولم يكتفوا بذلك بل توجه جند من البلقاء الى دمشق العاصمة لمحاولة لنجدة الامويين فيها ، الا أن جيوش العباسية كانت أقوى من جند دمشق والبلقاء فحاصرتهم في دمشق الى أن اقتحم العباسيون المدينة في العاشر من رمضان سنة ١٣٢ بقيادة عبد الله بن علي(١١٤) .

ولم يقف أهل البلقاء عند هذا الحد بل قاموا بمحاولة الثورة على العباسية تحت زعامة الحبيب بن مرة الثقفي وبايعته قيس وغيرها في مناطق البلقاء والبثنية وحوران، وزاد من خطورة الموقف على العباسيين عندما بيّض في نفس الفترة أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر الكلابي بقنسرين مما دفع عبد الله بن علي لمصالحة حبيب بن مرة وخرج متوجها الى قنسرين(١١٥) .

البلقاء في العهد العباسي

بدأ وجود بني العباس في البلقاء عندما أقطع عبد الملك بن مروان الحميمة في جنوب البلقاء الى علي بن عبد الله بن العباس الذي قدم الى الشام بعد ان استقر الامر فيها لعبد الملك ، فأحسن عبد الملك وفادته ليقوى بمكانته علي ابن الزبير .

ويذكر مؤلف أخبار الدولة العباسية(١١٦) أن عليا نفسه قد سأل عبد الملك ان يقطعه الحميمة بناء على وصية من والده عبد الله بن العباس . ولكن من خلال الحوار الذي جرى بين عبد الملك وعلي يستدل على أن عليا كان يرغب في الاقامة في منطقة بعيدة عن العاصمة دمشق حتى لايعرض نفسه للتهمة فقد قال لعبد الملك : « أحب المنازل اليّ أخلاها وأبعدها عن العوام ، فاني متى أقمت معك بدمشق لم آمن من أن يلقاك بعض أهل الشام فيقول : قال علي ، ولقي علي ، وعرضني لتهمتك » . وقد رحب عبد الملك بهذا الطلب وقال له: وصلتك رحم ، ما أنت بمتهم ، والبلقاء منزل صدق تضم فيه أهلك وحشمك ، وتقيم عندي ما أحببت ، وتأتيني اذا شئت ولست تبعد عني ، ولا ينساك ذكر ولا يبعد عنك خبر من بالحجاز من أهل بيتك . فنزل بالشراة من البلقاء ونزل من الشراة الى الحميمة(١١٧) .

ومما تقدم نرى ان العرض قد جاء من عبد الملك نفسه وليس بطلب من علي بن عبد الله ، كما أن الحميمة لم تكن منطقة خالية وبعيدة عن الناس لانها كانت تقع على طريق الحج والطريق التجاري ، وهذا ما يجعله يستطلع أخبار أهل الحجاز والشام معا .

وفي الحميمة ولـد من العباسيين محمد بن سليمان بـن علي ، وابـو العباس السفاح ، وابو جعفر المنصور ، والمهدي (١١٨)، وسكنها منهم رائطة بنت عبيـد الله وكانت تحت عبد الملك بن مروان ثم تزوجها علي فانجبت له أبا العباس السفاح(١١٩)، وابراهيم بن محمد الامام وزوجته زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله ، واليهـا ينسب الزينبيون من ولد العباس ، وكانت من أولات الفضل والعلم ، حدثت عن أبيها سليمان وروى عنها عاصم بن علي الواسطي وجعفر بن عبد الواحد ابن اخيها ، وعبـد الصمـد بن موسى بن محمد بن ابراهيم ، وابو العباس أحمد بن الخليـل بن مالك ابن ميمون ، ومحمد بن صالح القرشي ، كما حكى عنها المأمون .. وقد عمرت طويلا، وهي التي دخلت على مروان بن محمد عند هلاك ابراهيم بن محمد الامام تستأذنـه في دفنه فأذن لها(١٢٠) .

ومن منطقة الحميمة في البلقاء انطلقت الدعوة العباسية ، وسهل من انتشـار دعوتهم وقوع هذه المنطقة على طريق الحجاج والطريق التجاري ، فكانت والحالة هذه ملتقى للشيعة بني العباس ،(١٢١) وأخذ الدعاة يترددون عليها لنقل أخبار الدعوة بـين مناطقها في خراسان والكوفة والحميمة(١٢٢) .

ولما تسلم العباسيون الخلافة تعرضت بعض مناطق البلقاء للتدمير والتخريـب شأنها شان بلاد الشـام التي قاومت العباسيين ، ويستدل على ذلك من الشعر الذي انشده أبو نخلة عندما دخل علي ابي العباس السفاح بعد مقتـل مروان بن محمد وقال(١٢٣) :

وامسـت الانبـار دارا تعمـر	وخربـت مـن الشـام أدور
حمص وبـاب التبن والموقـر	ودمـرت بعـد امتنـاع تدمـر
وواسط لم يبـق الا القراقـر	منهـا ولا الديربـان الاخضر

وان تعرضت بعض مناطق البلقاء لمثل هذا التدمير كالموقر فانه ناتج عن شـدة المقاومة التي أبدتها القبائل القيسية تجاه الدعوة العباسية في البلقاء .

وبعد أن وطد العباسيون الامر في بلاد الشام قسـمت الشامات الى ولايتـين كبيرتين(١٢٤) ..

الاولى : وضمت أجنـاد قنسرين ودمشـق والاردن وحمص وعليها عبد الله ابن علي .

الثانية : وضمت فلسطين والبلقاء وعين عليها صالح بن علي . وقد عين صالح ابن علي على البلقاء علي بن صفوان بن سلمة الاراشي سيد قضاعة الشام كلها(١٢٥) ، وربما كان هذا الاجراء من العباسيين كرد مناهض للقبائل القيسية التي ناهضت العباسيين ، واستمر علي بن صفوان في ولايته للبلقاء حتى وفاة السفاح سنة ١٣٦هـ / ٧٥٤ م .

وفي عهد المنصور ، وعندما قام عبد الله بن علي سنة ٧٥٥/١٣٧ بثورته عليه ، ادرك المنصور خطورة جمع مناطق كبيرة لوال واحد ، فعادت الشامات الى أجنادها السابقة ، وعادت البلقاء الى جند دمشق ، فعين عليها عبيد الله (عبد الله) بن سليمان ابن محمد بن عبد المطلب واستمر فيها حتى نقل منها الى اليمن سنة ١٥٨ هـ(١٢٦) حيث خلفه ابنه محمد ، الا ان ولايته لم تطل ، بسبب غضب المنصور عليه ، فحمل مع البريد ومعه المال الذي وجد عنده(١٢٧) .

وفي زمن هارون الرشيد هاجت العصبية القبلية بين القيسية واليمانية في البلقاء سنة ١٧١ هـ . مما أدى الى عزل والي دمشق عبد الصمد بن علي لعجزه عن القضاء على هذه الفتنة وعين بدلا منه ابراهيم بن صالح بن علي .

وسبب هذه الفتنة ان رجلا من القين خرج الى البلقاء ليطحن قمحا له ، فاعتدى على حائط رجل من جذام ولخم فيه بطيخ وقثاء ، فانتهى الشجار بينهما الى قتل يماني ، فلما خاف الناس أن يتفاقم الامر خرج رجال من قريش وقيس وقضاعة الى القين ، فأوكلت القين الامر الى هؤلاء الرجال لحل النزاع مع اليمانية . ثم توجهوا بعد ذلك الى اليمانية فكلموهم فقالوا لهم : انصرفوا عنا حتى ننظر فيما جئتم له . فانصرفوا الى رحالهم ، فلم تشعر الا بالخيل تدوسهم فقتل من القين ما بين ٣٠٠ — ٦٠٠ رجل ، واصيب معهم رجل من قيس ، فاستنجدت القين بقضاعة وسليح فلم ينجدوهم ، فتوجهوا الى قيس فأنجدتهم وانضم معهم خمسون رجلا من بني عامر بن عوف فخرجوا الى العواليك(١٢٨) من أرض البلقاء فقتلوا ستمائة من اليمانية ثم توجهوا الى الربة (قرب الكرك اليوم) فقتلوا ثمانمائة ، ثم انصرفوا وكثر القتال بينهم ، واستمر النزاع اكثر من سنتين ، وقد لعب ابو الهيذام عامر بن عمارة بن خريم المري دورا بارزا في هذه الفتنة (١٢٩) .

ويذكر الطبري(١٣٠) ان الفضل في اخماد هذه الفتنة يعود الى موسى بن يحيى ابن خالد البرمكي الذي استطاع القبض على رؤوس الفتنة وارسالهم الى بغداد فمدحه احد الشعراء بقوله :

قـد هاجـت الشـام هيجـا يشـيب رأس وليـده

فضـب مـوسـى عليهـا بخيلـه وجنـوده

فدانـت الشـام لمـا أتـى نسـيج وحيـده

وفي سنة ١٨٠ عادت الفتنة الى الظهور مرة أخرى ، فاغتم الرشيد من ذلك حتى انه فكر في الخروج الى الشام بنفسه وقال لجعفر بن يحيى البرمكي : اما ان تخرج انت أو أخرج أنا . فقال له جعفر : بل أقيك نفسي ، فخرج ومعه على شرطته العباس ابن محمد بن المسيب بن زهير وعلى حرسه شبيب بن حميد بن قحطبة فتمكن من قتل مدبري الفتنة بعد ان جمع الاسلحة من أهل البلقاء حتى أنه لم يدع رمحا ولا فرسا فعاد الامن والطمأنينة الى البلقاء(١٣١) .

وبعد أن خمدت نار العصبية في البلقاء عين الرشيد على دمشق عيسى بن العكي وعلى البلقاء صالح بن سليمان . ويستدل على شدة استفحال هذه الفتنة تلك الخطبة التي خطبها جعفر بن يحيى بين يدي الرشيد بعد عودته الى بغداد(١٣٢) .

وفي عهد المأمون (١٩٨–٢١٨ هـ / ٨١٣ – ٨٣٣) قامت في البلقاء حركة مناوئة للعباسيين و بدأت من قرية الفدين(١٣٣) تحت زعامة سعيد بن خالد بن محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان الفديني مدعيا الخلافة ، فخرج من الفدين وأغار على ضياع السعديين في البلقاء وأخذ يغير على القيسية ويفتك بهم ويتعصب لاهل اليمن ، فوجه اليه والي دمشق محمد بن صالح بن بيهس جيشا تحت قيادة محمد بن يحيى بن صالح ، فهرب الفديني الى زيزاء ، فهدم يحي زيزاء وخربها فغادرها الفديني الى الماسوح (قرية قريبة من عمان) . واتخذ يحيى من عمان مقرا له ، وفي الماسوح انضم الى الفديني زيوندية الغور وأراشة وعيارة من بني أمية ومن جلا منهم من دمشق وقوم من غطفان فصار في زهاء عشرين ألفا ، فلم يزل يحيى يحاربه حتى أجلاه عن الماسوح ، فتوجه منها الى حسبان فحاصره فيها مدة طويلة فتفرق عنه أصحابه وتركوه مهملا وحيدا ، ولم يعرف مصيره(١٣٤) .

وبقيت البلقاء تحت السيطرة الفعلية للعباسيين الى أن تمكن أحمد بن طولون سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ من اقامة الدولة الطولونية فأصبحت البلقاء من أملاك الطولونيين ، وتمكن العباسيون من استردادها من الطولونيين زمن الخليفة المكتفي بالله سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م(١٣٥) ، الا أن السيطرة الفعلية للعباسيين لم تدم طويلا حيث تمكن محمد بن طغج الاخشيدي والي البلقاء من قبل أبي منصور تكين الجرزي والي الشام سنة ٣٠٦ من

الانفصال عن والي دمشق وتكوين الدولة الاخشيدية في مصر التي دامت من ٣٢٣-٣٧٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٨(١٢٦) . وفي هذه الفترة قسمت البلقاء الى كور هي :

١ - كورة الجبال ومركزها غرندل(١٢٧) ، وذكرت بعض المصادر أنها روات(١٢٨) ومن أبرز مناطقها فيما بعد الطفيلة ، وربما كانت أيلة تابعة لهذه الكورة ، وكان معظم أهل هذه الكورة من قريش وغسان وبلقين(١٢٩) .

٢ - كورة الشراة(١٤٠) ومركزها أذرح ، وكانت أذرح معسكرا رومانيا قبل الفتح الاسلامي(١٤١) ، وفيها كان أمر التحكيم بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان(١٤٢) . وضمت هذه الكورة الحميمة ومعان وقد كانت حصن الشراة(١٤٣) وابنى(١٤٤)والجرباء(١٤٥) وميفعة(١٤٦) ووادي موسى(١٤٧) ، وجبال الشوبك(١٤٨) فيما بعد . وعامة أهل هذه الكورة من العرب خاصة من قبيلة قيس(١٤٩) . واشتهرت هذه الكورة بكونها مركزا لصناعة السيوف ، كما نسب اليها عدد من العلماء والفقهاء منهم علي بن مسلم بن الهيثم الشروي وأحمد بن محمود بن نافع ابو العباس الشروي(١٥٠).

وتذكر المصادر الجغرافية أن هاتين الكورتين كانتا مضمومتين الى جند فلسطين(١٥١) ، وهذا الضم لا يعني أنها كانت من جند فلسطين بل ان هذا الاجراء الاداري قد حدث زمن الطولونيين والاخشيديين لتأمين حركة الاتصال بين مصر وفلسطين وبلاد الشام، ولابقائها تحت اشرافهم المباشر .

٣ - كورة مآب(١٥٢) ومركزها مآب وقد أقيم على انقاضها فيما بعد الربة(١٥٣)، وضمت مناطق زغر(١٥٤) وشيحان(١٥٥) وصرفة(١٥٦) ومشارف(١٥٧) ، وفيما بعد الكرك(١٥٨) والقطرانة(١٥٩) ..واهل هذه الكورة أخلاط من الناس(١٦٠) .

٤ - كورة الظاهر (ظاهرة البلقاء) ومركزها عمان(١٦١) ، وقد اطلق عليها في بعض الاحيان كورة عمان(١٦٢) ، وضمت هذه الكورة المناطق التالية : الازرق(١٦٣) ، بقيس(١٦٤) ، جادية(١٦٥) ، جنان قرب عمان(١٦٦) ، الرقيم(١٦٧) ، الزرقاء(١٦٨) ، زيزاء(١٦٩) ، الصمان(١٧٠) ، العلفدان قرب زيزاء(١٧١) ، القسطل(١٧٢) ، الماسوح قرب عمان(١٧٣) ، الموقر(١٧٤) ، حسبان(١٧٥) ، الفدين(١٧٦) .

٥ - كورة جبال الغور ومركزها أريحا(١٧٦) . والظاهر أن هذه الكورة كانت تضم مرتفعات السلط المطلة على الغور بالاضافة الى المنطقة الممتدة من جنوب عمتا (دير علا) آخر عمل جند الاردن الى البحر الميت . وربما كان هذا هو السبب الذي

دعا اليعقوبي(١٧٧) الى اعتبار أريحا من ضمن البلقاء مع العلم انها من جند فلسطين . ويقــع ضمن هذه الكورة بالاضافــة الى اريحــا ، الصلت (السلط)(١٧٨) وكفــر-يهوذا(١٧٩) وبيت رامة(١٨٠) .

وهذه التقسيمات الادارية مشابهة الى حد التقسيمات الادارية في الوقت الحاضر حيث تضم كورة الشراة اليوم محافظة معان وكورة الجبال محافظة الطفيلة وكورة مآب محافظة الكرك وكورة ظاهر البلقاء محافظة العاصمة ، وكورة جبال الفــور محافظــة البلقاء وتمتد حدودها الى نهر الاردن أما أريحا فقد كانت تابعة لمحافظة القدس قبل الاحتلال الاسرائيلي عام ١٩٦٧ .

وخلال هذه الفترة التاريخية والفترات التي تلتها نسب الى البلقاء عــدد مــن الفقهاء والمحدثين منهم :

- حفص بن عمــر بن حفص بن صالــح بن عطاء بن الســائب بن أبي السائب المخزومي القرشي العماني البلقاوي اصله من المدينة تولى قضــاء عمان حــدث عــن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبيه ، كما حدث عن الاوزاعي عن عبده بن أبي لبابة، سمع عامر بن يحيي والهيثم بن خارجه (١٨١) .

- ابو طاهر محمد بن عطاء بن ايوب البلقاوي سافر مصر وحدث عن مالك الا انه كان متروك الحديث(١٨٢) .

- أبو طاهر موسى بن محمد الدمياطي البلقاوي روى عن الموقري ، وروى عنه أهل الشام والعراقيون(١٨٣) .

- يحيى بن عبد الله بن أسامة القرشي ، سمع من حفص بن عمر كما روى عنه زيد بن أسلم(١٨٤) .

- أبو بكر بشر بن الوليد بن محمد الموقري (ت ٢٨٢ هـ) وكان مولى ليزيد بن عبد الملك روى عن الزهري وعطاء الخراساني ، كما روى عنه علي بن حجر والوليــد ابن مسلم وغيرهم ، واتهم الموقري بالكذب(١٨٥) .

- أحمد بن حفص بن عمر بن صالح بن عطاء بن السائب المخزومي البلقاوي(١٨٦) .

- أحمد بن الحكم أبو حزية ويقال له أبو حرب البلقاوي من أهل البلقاء عمل دمشق حدث عن عبد الله بن ادريس(١٨٧) .

- محمد بن كامل العماني البلقاوي (ت ٢٧١ هـ) . حدث عن أبان بن يزيد العطار، وروى عنه محمد بن زكرياء الاضاخي(١٨٨) .

- نصر بن مسرور بن محمد ابو الفتح الزهري العماني البلقاي ، حدث عن ابي الفتح محمد بن ابراهيم الطرسوسي(١٨٩) ..

- أبو الندى حسان بن تميم بن نصر بن عبد الواحد الانصاري العماني المعروف بالزيات حدث بدمشق عن الفتح نصر بن ابراهيم بن نصر بن داود القدسي الزاهد، كما سمع منه أبو الخطاب العلمي وكان شيخا مكرما(١٩٠) .

- أبو محمد الحسن بن ابراهيم بن عثمان العماني قدم دمشق وسمع بها ، وحدث عن محمد بن عبد الله الربعي ، تسلم قضاء عمان كان حيا سنة ٣٨٦هـ(١٩١) .

- السائب بن أحمد بن حفص بن عمر بن صالح بن عطاء بن السائب بن أبي السائب أبو عطاء القرشي المخزومي العماني من أهل البلقاء ، كان من رواة الحديث وحدث عن أبيه عن سحيم مولى بني زهرة(١٩٢) .

- السائب بن عمر بن حفص بن عمر بن صالح بن عطاء بن السائب بن ابي السائب المخزومي العماني ، حدث عن جده حفص بن عمر عن يحيى بن عروة عن ابيه عروة بن الزبير(١٩٣) .

- أسلم بن محمد بن سلامة بن عبد الله بن عبد الرحمن ابو دفانة الكناني العماني قدم الشام وحدث بها عن عطاء السائب بن أحمد بن حفص العماني المخزومي ومحمد بن هارون بن بكار وعبد الله بن محمد بن جعفر القزويني القاضي ، وروى عنه ابو الحسين الرازي وأبو بكر احمد بن صافي التنسي (ت ما بين ٣٢٤ــ٣٢٥ هـ)(١٩٤) .

- عطاء بن السائب بن أحمد بن حفص العماني . وقد حدث عنه أسلم بن محمد ابن سلامة(١٩٥) .

- الحسين بن علي بن عيسى ، ابو عبيد المعنى الازدي المعاني من اهل البلقاء ، روى عن عبد الرزاق بن همام وروى عنه محمد وعامر ابنا خريم وعمرو بن سعيد ابن سنان المنبجي وغيرهم وكان ضعيف الحديث(١٩٦) ..

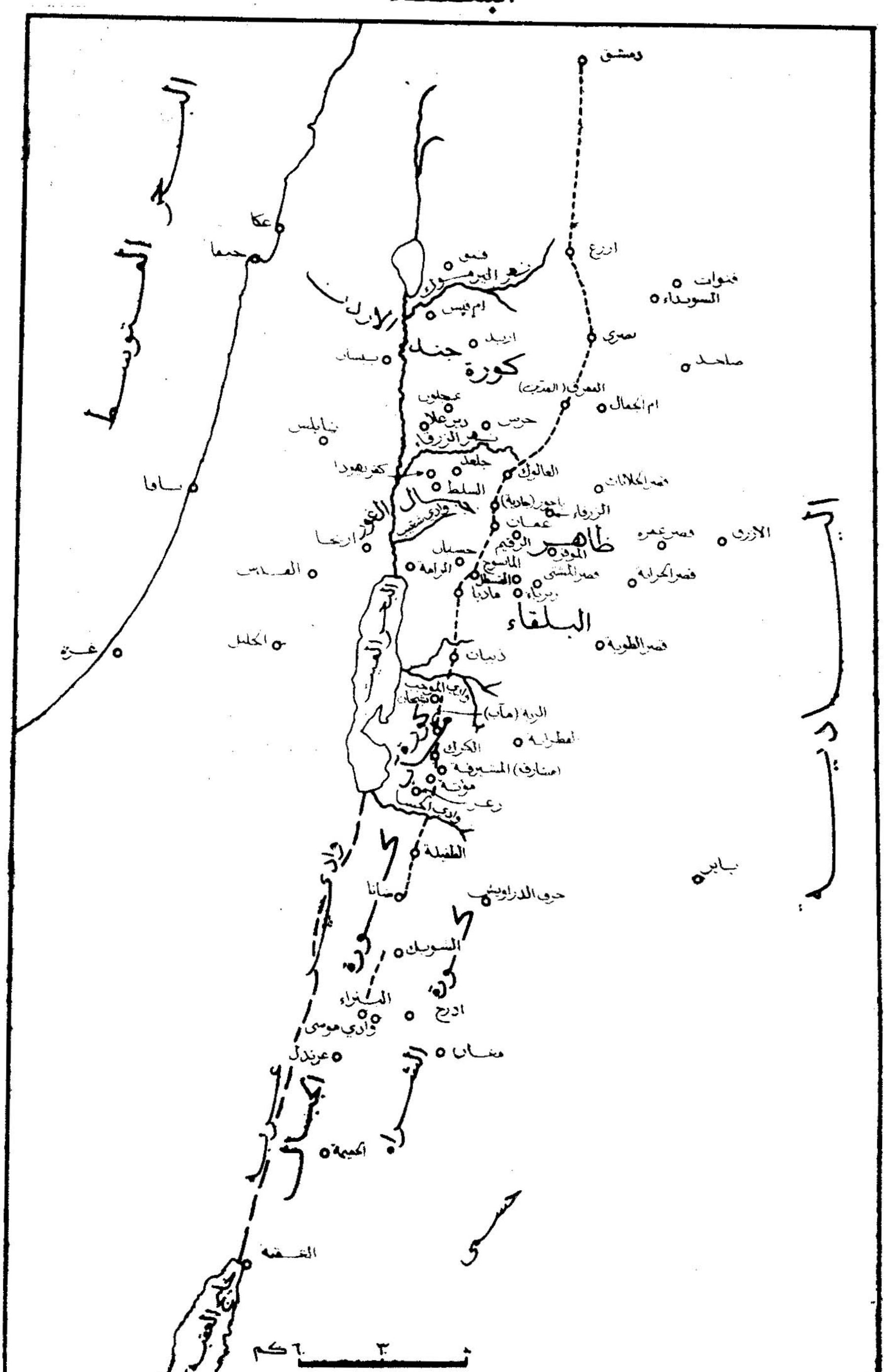
- علي بن مسلم بن الهيثم الشروي ، روى عن اسماعيل بن مهران وروى عنه الحسن ابن عليل العتري(١٩٧) ..

- أحمد بن محمود بن نافع أبو العباس الشروي اشتهر بالرمي سمع عن ابي الوليد الطبالسي وعبد الله بن أبي بكر العتكي وعمران بن ميسرة ، وروى عنه ابو الحسين ابن المنادي (ت ٢٧٤ هـ) (٩١٨).

هذا بالاضافة الى فقهاء وعلماء ايلة ومنهم في هذه الفترة يونس بن يزيـد الايلي (توفي بصعيد مصر سنة ١٥٢ هـ) واسحق بن اسماعيل بن عبد الاعلى بن عبد الحميد ابن يعقوب الايلي (مات بأيلة سنة ٢٥٨) وحسان بن ابان بن عثمان ابو علي الايلي ولي قضاء دمياط وتوفي بها سنة ٣٣٢ هـ .

★ ★ ★

البلقـــاء



دمشق
ازرع
عكا
حيفا
فنوات
السويداء
بصرى
صلخد
أم الجمال
البحر المتوسط
نهر اليرموك
نهر الاردن
أم قيس
اربد
بيسان
كورة جند
عجلون
جرش
دير علا
نهر الزرقا
نابلس
يافا
جلعد
السلط
العالوك
الزرقاء
عمان
ظاهر
الأزرق
اريحا
حسبان
الموقر
القدس
قصر الحرانة
مادبا
البلقاء
الخليل
غزة
ذيبان
وادي الموجب
الكرك
مؤتة
وادي الحسا
الطفيلة
باير
حوي الدراويش
السويك
ادرح
وادي موسى
عرندل
معان
الحميمة
حسمى
خليج العقبة
٦٠ كم
٣٠

الحواشي :

(١) انظر معنى البلقاء وبلق في : الفراهيدي ، العين ٥/١٧٢ . ابن منظور ، لسان العرب مادة «بلق». الفيروز آبادى ، القاموس المحيط مادة بلق . ياقوت ، معجم البلدان مادة « بلقاء » . البكري ، معجم ما استعجم١/٢٧٥ .

(٢) انظر نسبة البلقاء في : البغدادي ، المنمق ١٧٧ . ابن عساكر ، تاريخ دمشق ١٩/١ . ابن الاثير ، اللبابفي تهذيب الانساب ١٤٢/١ . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (دمشق) ١٨-١٩ . ياقوت ،معجم البلدان مادة « بلقاء » . الحميري ، الروض المعطار ٩٦ .

(٣) **The Encyclopedia of Islam.** Vol, I,p. 1001.
Dictionary of The Bible, Vol I.p. 234.
Madebille, **Salt,** p. 3.

(٤) المقدسي ، أحسن التقاسيم ١٨٠ . ياقوت ، معجم البلدان . مادة « بلقاء » .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان مادة الزرقاء .

(٦) Medebille, **Salt,** pp. 6-7.

(٧) التوراة ، سفر العدد الاصحاح ٢٢ آيـة ٥

(٨) التوراة ، سفر العدد الاصحاح ٢١ آيـة ٢٤ . التثنية ، الاصحاح ١ آية ٤.

(٩) التوراة ، سفر يشوع الاصحاح ١٢ آية ١ .

(١٠) انظر حاشية رقم (٢) .

(١١) انظر الازدي ، تاريخ الموصل ١٩ . البكري ، معجم ما استعجم ٢٧٥/١ .
ياقوت ، معجم البلدان مادة بلقاء ، والمشترك وضعا والمفترق صقعا ١٤٧ .
الاصفهاني ، بلاد العرب ١٢٧ — ١٢٨ . البغدادي مراصد الاطلاع ٢١٩/١ .

(١٢) حتي ، تاريخ العرب ٨٨ ، جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب ٧٦/١ .

(١٣) انظر التوراة سفر يشوع ، الاصحاح ١٣ آية ٢٢ .

(١٤) الدوري ، العرب والارض في بلاد الشام ، تاريخ بلاد الشام ٢٥ .

(١٥) المروزي ، كتاب الفتن ، مخطوطة ، ورقة ٦٩ ب .

(١٦) أحسن التقاسيم ١٨٠ . وهذه المادة متوفرة أيضا بالسلط الى الغرب من عمان وكانت تستعمل في تبيض البيوت ويطلقون عليها اسم « الحور » وهي محرفة من الحوارة .

(١٧) معجم البلدان ، مادة « السواد » .

(١٨) انظر عن هذا الحد : ابن حوقل ، صورة الارض ٢٧-٣٠ ، الاصطخري ، المسالك والممالك ٢١-٢٨ الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٢/٤ . وقارن ، ياقوت ، معجم البلدان مادة بلقاء . البغدادي ، مراصد الاطلاع ٢١٩/١ . القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ١٥٦ .

(١٩) انظر : ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٧ ، ١٧٠ . هذا وقد اعتبر اليعقوبي بأن أريحا من البلقاء (البلدان مع الاعلاق النفسية) ١١٣ كما ذكر المبرد بأن بها ديرا كان يسمى « دير البلقاء » ثـم

اطلق عليه في عهد سليمان بن عبد الملك دير الخصيان ، انظر الكامل في اللغة ٦٣٥/٢ ، الهفوات النادرة ٤٠-٤٢ .

(٢٠) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة « اذرعات والصمان » . البغدادي مراصد الاطلاع ١٦٧/٢ .

(٢١) الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٧٩/٤-٣٨٠ .

(٢٢) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة جرش . ابن شداد الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين)٩٨ .

(٢٣) الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٨ . القلقشندي ، قلائد الجمان ١٨ .

(٢٤) **Encyclopedia of Islam,** Vol. 1, p. 1001 .

وانظر : غوانمة ، شرق الاردن (القسم السياسي) ٤٨ نقلا عن العمري ، مسالك الابصار ق٣ لوحة ٤٤١ . والبلقاء اليوم احدى محافظات الاردن ومركزها السلط .

(٢٥) ابو طالب ، آثار الاردن وفلسطين في العصور القديمة ٢٥ وما بعدها .

(٢٦) حتي ، تاريخ سورية ١١٥/١ - ١١٦ .

(٢٧) انظر : اليعقوبي ، تاريخ١٧٨/١ . ابن قتيبة ، المعارف ٦٤٠ . الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ٩٨-٩٩ .حتي ، تاريخ سورية ١١٥/١ - ١١٦ . عبد الرؤوف ، الحواضر الاسلامية٨ .

(٢٨) اليعقوبي ، تاريخ ١٧٨/١ .

(٢٩) نولدكة ، امراء غسان ١٦ . حتي ، تاريخ سورية ١١٥/١ - ١١٦ . صالح العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ٥٧/١ .

(٣٠) نشوة الطرب ٢٠٨/١ وانظر جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب ٤٣٨/٣ .

(٣١) عن أماكن غسان أنظر : الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ٩٩-١٠٠ الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٣٣١ . البغدادي ، المحبر ٢٦٣ . اليعقوبي تاريخ ١٠٨/١ ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٣٦ . المسعودي ،مروج الذهب ١٠٩/٢ . ابن سعيد نشوة الطرب ١٩٩/١ .

(٣٢) الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ٩ ٩. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب٤٠٢/٣ .

(٣٣) الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ٩٩ . الالوسي ، بلوغ الارب ٢١٠/١ - ٢١٢ ، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب٤٠٣/٣-٤٠٤ . بهنسي ، الشام لمحات اثارية ١٤٢ وما بعدها ، طوقــان، الحائر ٦٠ .

(٣٤) الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض ١٠٠ . طوقان ، الحائر ٧٥ .

(٣٥) عن اماكن جذام انظر : ابن أعثم ، الفتوح ٢٩٩/١ . اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٣٩ .الهمداني، صفة جزيرة العرب ٢٧١-٢٧٤ .

Donner, **The Early Islamic,** p. 101.

(٣٦) Trimingham, **Christianity,** p. 122.

وانظر : الادريسي ، نزهة المشتاق ٥٣/٤ ٣- ٣٥٤ . ابن منظور ، لسان العرب مادة «جذام ».

(٣٧) من اماكن عذرة انظر : الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٣٢٢ . الاصفهاني ، تاريخ سني ملــوك الارض ٨٨ . ابن عساكر ، تراجم النساء ٢٥١ .

(٣٨) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٢٧٢ – ٢٧٣ . وانظر : Donner, The Early Islamic, p. 103.

(٣٩) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٣٦٩ . ابن خلدون ، تاريخ ٢٤٩/٢ .

(٤٠) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٣١٩ ، ٣٣٤ .

(٤١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٢٧٣ ، ٣٢٠ ، ٣٣٢ . ابن خلدون ، تاريخ ٢٤٧/٢ . وانظـر: Donner, The Early Islamic, p. 166,

(٤٢) اليعقوبي ، البلدان ٨٢ – ٨٣ وانظر الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٢٧٤ ، ٣٣٢ . وانظر : Donner, The Early Islamic, p. 166,

(٤٣) حتي ، تاريخ سورية ٣١٩/١ .

(٤٤) البلاذري ، فتوح البلدان ١٣٥ . ياقوت ، معجم البلدان مادتي بقنس ، نقنس.

(٤٥) ابن هشام السيرة النبوية ٢٣١/١ . قارن ابن الكلبي ، الاصنام ٢٨ .

(٤٦) انظر : ابن هشام ، السيرة ٢٣١/١ – ٣٢ ٢، البغدادي ، المحبر ١٧٢ المسعودي ، مروج الذهب ٧٠/١ . البكري . معجم ما استعجم ١٢٨٤/٢ . الذهبي ، سيرة أعلام النبلاء ٩٠/١ ، ابن كثير، البداية والنهاية ٢٣٨/٢ . ابن حزم ، جمهرة انســاب العرب ١٥٠ – ١٥١ ، البغدادي ، مراصـد الاطلاع ١٨٥/٣ . الالوسي ، بلوغ الارب ٢٤٧/٢–٢٥١ .

(٤٧) المقدسي ، أحسن التقاسيم ١٧٥ . ياقوت ، معجم البلدان مادة بلقاء .

(٤٨) الاصابة ١٠٤/٢ .

(٤٩) عن هذه المنتوجات انظر : ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٠ ، الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٧/٤. ياقوت ، معجم البلدان مادة « اذرح » ، مآب ، وادي موسى . ابو الفداء ، تقويم البلدان٢٤٥ وما بعدها .

(٥٠) ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٩ . الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٧ وحرفت كلمة التمر الى يسر. ياقوت ، معجم البلدان مادة زغر .

(٥١) ياقوت ، معجم البلدان مادة ايلة .

(٥٢) ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٩ وعن نخيل الغور انظر ١٦٠ .

(٥٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الاردن ، اريحا ، الغور ، وانظر المقدسي – احسن التقاسيم ١٦١ حمارنة ، زراعة قصب السكر وصناعتهعند العرب المسلمين. حولية دائرة الآثار العامةعدد٢٢ص١٢.

(٥٤) ياقون معجم البلدان مادة جادية وانظر مراصد الاطلاع ٢٣٣/١ . لسترانج ، فلسطين في العهـد الاسلامي ٣٥٥ .

(٥٥) ابن الاخوة القرشي ، معالم القربة ١١٨ والرواند عبارة عن عروق خشبية طوال مستديرة في غلظ الاصابع يسمى رواند الدواب يستعمله البياطرة لاسقاء الدواب عندما تحتر اكبادها وهـو مضر بالناس .

والمزيد من التفاصيل حول المحاصيل الزراعية انظر حسين ، الحياة الزراعية في بلاد الشام ص ١٠٦ - ١١٦ .

(٥٦) ياقوت ، معجم البلدان مادة مشارف . قارن ابن رشيق ، العمدة ٢٣٢/٢ .

(٥٧) ياقوت ، معجم البلدان مادة مؤتة . كثير عزة ، الديوان : ٣٤٠ .

(٥٨) بهنسي ، صناعة السيوف الدمشقية ، الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب ٤٩٥/١ وما بعدها . وانظر ياقوت معجم البلدان مادة الشراة . ابن خلكان وفيات الاعيان ٢٧٨/٣ .

(٥٩) ياقوت ، معجم البلدان مادة ثغر ، ابن رشيق ، العمدة ٢٣١/٢ .

(٦٠) ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٩ . الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٧.

(٦١) ياقوت معجم البلدان مادة مآب . الطائي ، ديوان حاتم وشعره ١٩٠ .

(٦٢) ابو الفداء ، تقويم البلدان ٢٧٧ . ابن عساكر (عاصم - عايد) ٣٩٥ ، لسترانج ، فلسطين في العهد الاسلامي ٣٧٥.

(٦٣) ابن حزم ، جوامع السيرة ٣٠ .

(٦٤) العيني ، السيف المهند ٢٢١ وانظر البلاذري ، انساب الاشراف ٥١١/١ ، النويري ، نهاية الارب ٨/١٨ ٢.

(٦٥) ابن حجر العسقلاني الاصابة (نقلا عن الواقدي) ٣٣٢/١ .

(٦٦) انظر البلاذري ، أنساب الاشراف ٥١١/١ . النويري ، نهاية الارب ٢٨/١٨ .

(٦٧) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ١٧١ .

(٦٨) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٦٠٦/٢ وما بعدها . الطبري ، تاريخ ١٨٤/٣ . ابن عبد البر ، الاستيعاب (بهامش الاصابة) . ابن حجر العسقلاني ، الاصابة ٥٦٣/١ .
وانظر : Hitti, History of The Arab, p. 147.

(٦٩) الواقدي ، فتوح الشام (منسوب اليه) ١٨٢/١ .

(٧٠) الطبري ، تاريخ ٣٨٩/٣ ابن عساكر (التهذيب) ١٢٢/١ .

(٧١) الطبري ، تاريخ ٣٨٩/٣ . ابن عساكر (التهذيب) ١٣٢/١ . ابن خلدون ، تاريخ ٨٣/٢.

(٧٢) الطبري ، تاريخ ٤٠٦/٣ .

(٧٣) الازدي ، فتوح الشام ٢٩ وانظر: ابن خياط ، تاريخ ٨٦/١ .

(٧٤) فتوح الشام (منسوب اليه) ٤٩/١ ، ١٨٢ - ١٨٤ ، ٢٢٨ .

(٧٥) الطبري ،تاريخ ٤٠٦/٣ . قدامة ، الخراج ٢٨٨ . البلاذري ، فتوح البلدان ١٣٢ - ١٣٣ .

(٧٦) فتوح الشام (منسوب اليه) ١٨٢/١ .

(٧٧) البدء والتاريخ ١٦٦/٥ .

(٧٨) ابن عساكر (التهذيب) ١٨٣/١ - ١٨٤ .

(٧٩) انظر : اليعقوبي ، البلدان ٨٢-٨٣ . ابن خياط ، تاريخ ٣٦٩/٢ ، ٤٣٧ ، ٤٥٨. الطبري ، تاريخ ١١١/٧. المسعودي ، مروج الذهب ٣٤٢/٢ .ابن عساكر ، تراجم النساء ١١٤ . ياقوت ، معجم البلدان مادة حميمة ، الشراة . ابن خلكان : وفيات الاعيان ١٩٥/٣ ، ٢٧٨ ، ٣١٥/٦ .

(٨٠) ياقوت ، معجم البلدان « مادة معان » . .

(٨١) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٢٦ . الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٧/٤ .

(٨٢) ابن خياط : تاريخ ٣٠١/١ .

(٨٣) مجهول ، اخبار الدولة العباسية ١٥٧ . البيهقي ، المحاسن والمساوىء ٣٨٩-٣٩٠ .

(٨٤) ابن خياط ، تاريخ ١٢٩/١ . الطبري ، تاريخ ١٤٤/٤ - ١٤٥ .

(٨٥) ابن قتيبة ، المعارف ٣٣١ . القلقشندي ، صبح الاعشى ٣٨٩/١ .

(٨٦) انظر : هاردنج ، آثار الاردن ١٥٢ . بهنسي ، الشام لمحات آثارية وفنية ١٤٢ . طوقان ، الحائر ٦٠ ،حوليةدائرة الاثار الاردنيـــة عدد ٢٥ ص ٦ .

(٨٧) عن هذه القصور انظر الكتب التالية على سبيل المثال : هاردنج ، اثار الاردن . بيشة القصور الاموية في الاردن .بهنسي ، الشام لمحات اثارية وفنية . طوقان ، الحائر . حولية دائرة الاثار الاردنية عدد ٢٥ .

(٨٨) أحسن التقاسيم ١٧٥ .

(٨٩) عن هذه المساجد انظر : طوقان ، الحائر ٧٦-٧٩ ، ٤٢٣ .

(٩٠) عن هذه البرك انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة زيزاء . طوقان الحائر ٧٤،٤٣٨ .

(٩١) الطبري ، تاريخ ٥٢٤/٥ .

(٩٢) البلاذري ، انساب الاشراف ١٤٩/٥ .

(٩٣) ابن خياط ، تاريخ ٣٠١/١ .

(٩٤) ابن عساكر : التهذيب ١٠٣/٣ .

(٩٥) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ١٥٧ .البيهقي ، المحاسن والمساوىء ٣٨٩-٣٩٠ .

(٩٦) الحديدي ، فلوس نحاسية اموية من عمان ، حولية دائرة الاثار عدد ٢٠ ص ٩ سنة ١٩٧٥ .

(٩٧) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (دار صادر) ٥٧/٥.

(٩٨) ابن خياط ، تاريخ ٣٣٠/١ .

(١٠٠) الديوان ٣٤٤ ، ٣٤٩ .

(١٠١) الديوان ٣٤٦/١ .

(١٠٢) الديوان ١٦٥ - ١٦٦ ، ١٨٥ .

(١٠٣) الكتبي ، الوافي بالوفيات ٣٢٢/٤ .

(١٠٤) ابن خياط ، تاريخ ٢٤٠/١ . الطبري ، تاريخ ٢٢/٥ . المسعودي ، التنبيه والاشراف ٢٧٧ . البغدادي ، المحبر ٢٩. الازدي ، تاريخ الموصل ١٨ .

(١٠٥) ابن حجر العسقلاني ، الاصابة ٥٨٧/٣ .

(١٠٦) الطبري تاريخ ٢١١/٧ .

(١٠٧) ن.م ٢٢٦/٧ .

(١٠٨) تاريخ ٢١٧/٧ – ٢١٨ .

(١٠٩) الطبري ، تاريخ ٢٣١/٧ – ٢٣٢ . مجهول ،العيون والحدائق ١٣١/٣ .

(١١٠) انظر ، ابن خياط ، تاريخ ٣٨١/١ . مجهول ، العيون والحدائق ١٣٦/٣ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ١٩٢/٥ .

(١١١) الطبري ، تاريخ ٢٦٢/٧ .

(١١٢) الطبري ، تاريخ ٢٧٣/٧–٢٧٤ .

(١١٣) مجهول ، اخبار الدولة العباسية ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ . الازدي ، تاريخ الموصل ١٠٧ .

(١١٤) الطبري ، تاريخ ٤٤٣/٧ .

(١١٥) الطبري ، تاريخ ٤٤٣/٧ – ٤٤٤ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (دار صادر) ٤٣٢/٦–٤٣٣.

(١١٦) مجهول ، ١٥٤ .

(١١٧) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ١٥٤ .

(١١٨) ابن خياط ، تاريخ ٣٦٩/٢ ، ٤٣٧ ، ٤٥٨ .

(١١٩) ابن عساكر ،تراجم النساء ١٠٥ .

(١٢٠) ابن عساكر ، تراجم النساء ١١٤ .

(١٢١) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ١٨٣ . المسعودي ، التنبيه والاشراف ٢٩٢ .

(١٢٢) ابن عساكر ، (التذيب) ١٠٣/٣ .

(١٢٣) الاصفهاني ، الاغاني (الهيئة) ٤١٤/٢٠–٤١٥ .

(١٢٤) الطبري تاريخ ٤٦٧/٧ .

(١٢٥) ابن حجر العسقلاني ، الاصابة ٥٨٧/٣ .

(١٢٦) الزبيري ، نسب قريش ٨٧ . ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ٧١ .

(١٢٧) الزبيري ، نسب قريش ٨٧.الطبري ، تاريخ ٨١/٨ .

(١٢٨) تقع الى الشمال من عمان على بعد ١٢ كم من طريق عمان جرش وتسمى العالوك .

(١٢٩) انظر عن هذه الفتنة اليعقوبي ، تاريخ ١٤٧/٣ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (دار صادر) ١٢٨/٦ وما بعدها . ابن عساكر (عاصم – عايد) ٣٩٥ وما بعدها .

(١٣٠) تاريخ ٢٥٢/٨ .

(١٣١) الطبري ، تاريخ ٢٦٢/٨ وانظر اليعقوبي ، تاريخ ١٤٧/٣ .

(١٣٢) انظر نص هذه الخطبة في الطبري ، تاريخ ٨/٢٦٣ – ٢٦٤ .

(١٣٣) يذكر ياقوت بان الفدين من أرض حوران ، ومن المرجح بانها مدينة المفرق اليوم الواقعة على بعد ٤٩ كم الى الشمال من عمان .

(١٣٤) عن هذه الفتنة انظر : ابن عساكر (التهذيب) ١٢٥/٦ – ١٢٦ . ياقوت معجم البلــدان مادة الفدين .

(١٣٥) الطبري ، تاريخ ١١٥/١٠ – ١٢٠ .ابن الاثير الكامل في التاريخ (دار صادر) ٥٣٥/٧ .

(١٣٦) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ٥٦/٥ – ٥٧ .

(١٣٧) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٢٦ .

(١٣٨) انظر ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٠ . الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٤ . الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٧/٤ وضبطها المحققــون دراب .

(١٤٩) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ .

(١٤٠) انظر اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ ، ابن حوقل ، صورة الارض ١٦٠ ، الاصطخري، المسالك والممالك ٤٤ .

(١٤١) لمزيد من التفاصيل عن أذرح انظر : الطبري ، تاريخ ١٠٨/٣ ، ٥٧/٥ . المقدسي ، أحســن التقاسيم ١٧٨ ياقوت ، معجم البلدان مادة أذرح . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٨٢.الحميري الروض المعطار ٦ ٩.

(١٤٣) الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٨ . ولمزيد من التفاصيل عن معان انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة معان . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٦٧ . البخيت ، معانوجوارها استعراض تاريخي . مجلة دراسات تاريخية . جامعة دمشق ايار ١٩٨٣ .

(١٤٤) عن ابنى انظر : ياقوت معجم البلدان مادة أبنى . البغدادي ، مراصد الاطلاع ١٧/١.

(١٤٥) عن الجرباء : انظر البلاذري ، فتوح البلدان ١ ٧. الطبري ، تاريخ ١٠٨/٣ ، ياقوت ، معجم البلدان مادة جرباء.

(١٤٦) انظر : التوراة ، سفر يشوع الاصحاح ١٣ آية ١٧ . البكري ، معجم ما استعجم ١٢٨٤/٢،ابن حزم جمهرة انساب العرب ١٥٠ – ١٥١ ، مراصد الاطلاع ١٨٥/٣ .

(١٤٧) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة وادي موسى .

(١٤٨) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة الشوبك . وقارن مادة شابك ايضا في المعجم المذكور . ابـن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٨٠ .

(١٤٩) الادريسي ، نزهــة المشتاق ٣٥٧/٤ .

(١٥٠) انظر : ياقوت ،معجم البلدان مادة « الشراة » .ابن خلكان ، وفيات الاعيان ٢٧٨/٣ .

(١٥١) ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٧ . الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٤.

(١٥٢) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٧ ، الاصطخري ، نزهة المشتاق ٣٧٧/٤ ولم يهتد المحققون الى ضبطها وجاءت كفر مآب .

(١٥٣) ابو الفداء ، تقديم البلدان ٢٤٨ .هذا ولم يهتد ياقوت الى تعيين موقعها فذكر بانها قرية بين طرف الفور بين ارض الاردن والبلقاء . انظر ياقوت معجم البلدان مادة ربة .

(١٥٤) عن زغر انظر : اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلان النفسية) ٣٢٦ . ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٧ ، الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٧ .الادريسي ، نزهة المشتاق ٣٥٣/٤ . الهمداني ،صفة جزيرة العرب ٢٧٣ . ياقوت . معجم البلدان مادة زغر . ابن عساكر ، تاريخ دمشق ١٩/١ . ابن شداد الاعلاق الخطيرة (دمشق) ١٨ . ابن رشيق ، العمدة ٢٣١/٢ .

(١٥٥) انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادتي شيحان وسيحان . ابو الفداء ، تقويم البلدان ٢٤٨ .

(١٥٦) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة صرفة .

(١٥٧) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة مشارف .

(١٥٨) عن الكرك انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة الكرك . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ٦٩.

(١٥٩) انظر : الغزي ، الكواكب السائرة ١٥٧/٣ . كبريت رحلة الشتاء والصيف ٢٣٢.

(١٦٠) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٢٦ . الاريسي ، نزهة المشتاق ٣٧٧/٤ .

(١٦١) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفسية) ٣٢٦ ، معجم البلدان مادة « بلقاء » .

(١٦٢) الادريسي نزهة المشتاق ٣٧٧/٤ .

(١٦٣) عن الازرق انظر : الطبري ، تاريخ ٢١١/٧ . ياقوت ، معجم البلدان مادة « أزرق » . هاردنج، اثار الاردن١٥٥.

(١٦٤) انظر البلاذري ، فتوح البلدان ١٣٥ . ياقوت ، معجم البلدان مادتي بقيس ونقنس .

(١٦٥) انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة جادية . البغدادي ، مراصد الاطلاع ٢٣٣/١ . لسترانج، فلسطين في العهد الاسلامي ٣٥٥ .

(١٦٦) انظر الواقدي ، فتوح الشام (منسوب اليه) ١٨٢/١ .

(١٦٧) انظر : الاصطخري ، المسالك والممالك ٤٧ . ابن رستة ، الاعلاق النفسية ٢٧٥ . ياقوت ،معجم البلدان مادة الرقيم .

(١٦٨) انظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة زرقاء . الخياري ، تحفة الادباء وسلوة الغرباء ١٨٨/١ . كبريت ، رحلة الشتاء والصيف ٢٣٢ .

(١٦٩) انظر : ياقوت معجم البلدان مادة زيزاء . ابن بطوطة ، الرحلة ٧٧. البغدادي، مراصد الاطلاع ٥٢١/١ . لسترانج ، فلسطين في العهد الاسلامي ٣٩٥ .

(١٧٠) انظر ياقوت ، معجم البلدان مادة الصمان .

(١٧١) ابن واصل ، مفرج الكروب ٣٥/٥ .

(١٧٢) البكري ، معجم ما استعجم ٢٧٥/١ . ياقوت ، معجم البلدان مادة القسطل .

(١٧٣) ابن عساكر ، (التهذيب) ١٢٥/٦ ـ ١٢٦ .

(١٧٤) ياقوت ، معجم البلدان مادة الموقر . وانظر الاصفهاني ، الاغاني (الهيئة) ٤١٤/٢٠-٤١٥.

(١٧٥) انظر : ابن عساكر (التهذيب) ١٢٥/٦–١٢٦ . ابو الفداء ، تقويم البلدان ٢٧٧ . لسترانــج، فلسطين في العهد الاسلامي ٣٧٥ .

(١٧٦) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ . الادريسي نزهة المشتاق ٣٧٧/٤ . ولم يهتـد المحققون الى ضبطها فوردت كورة جبرين الغور .

(١٧٧) اليعقوبي ، البلدان (مع الاعلاق النفيسة) ٣٢٦ .

(١٧٨) عن الصلت (السلط) انظر : ابن سعيد المغربي ، الجغرافيا ١٥٢ . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٨٣ . أبو الفداء ، تقويم البلدان ٢٤٥ . القلقشندي، صبح الاعشى ١٠٦/١ .

(١٧٩) انظر : ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة (لبنان والاردن وفلسطين) ٨٣–٨٤ . احسان عباس ،الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين . المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) ٣٥٢/٢.

(١٨٠) ياقوت ، المشترك ١٩٧ .

(١٨١) عن حفص انظر : البخاري ، تاريخ ج١ ق٢ ترجمة رقم ٢٧٨٤ ص ٣٦٦–٣٦٧ . ابن منظور ،مختصر تاريخ دمشق ٢٠٥/٧ . السمعاني ، الانساب ٢٩٢/٢–٢٩٤ .ياقوت ، معجم البلدان مادة «بلقاء».

(١٨٢) السمعاني ، الانساب ٢٩٣/٢ . ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانساب ١٤٢/١ .

(١٨٣) السمعاني ، الانساب ٢٩٣/٢ .

(١٨٤) ياقوت ، معجم البلدان مادة « بلقاء » . غوانمة ، عمان ١٨٣ .

(١٨٥) ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانساب ١٩٠/٣ . السمعاني ، الانساب ٥٤٥/٧ . ياقوت ، معجم البلدان مادة الموقر .الذهبي ، العبر ٢٨٣/١ .

(١٨٦) ابن منظور مختصر تاريـخ دمشـق ٥٦/٣ .

(١٨٧) ن.م ٥٧/٣ .

(١٨٨) ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانسان ١٥٦/٢ ، الذهبي ، المشتبه في الرجال ٤٧٠/٢ السمعاني، الانساب ٥٢/٩–٥٣ . ابن ماكولا ، الاكمال ٣٦١/٦ – ٣٦٢ . ياقوت ، معجم البلدان مادة عمان .

(١٨٩) انظر ن.م. (١٩٠) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ٢٨٩/٦ .

(١٩١) ن.م ٣١٨/٦ .

(١٩٢) ن.م ١٩٨/٩ .

(١٩٣) ن.م ١٩٩/٩ .

(١٩٤) بدران ، تهذيب ابن عساكر ٩/٣ .ياقوت ، معجم البلدان مادة عمان، غوانمة عمان ١٨٢ .

(١٩٥) ياقوت ، معجم البلدان مادة «عمان» . غوانمة عما ١٨٢ .

(١٩٦) ابن منظور ، تهذيب ابن عساكر ٥٠/٧ وورد في كنيته ابو عبد الغني . ياقوت ،معجم البلدان مادة « معــان » .

(١٩٧) ن.م مادة « الشراة » .

(١٩٨) ن.م مادة « الشراة » .

(١٩٩) عن علماء ايلة انظر : غوانمه ، أيلة (العقبة والبحر الاحمر ١١١–١٢٢) .درادكة ، لمحات من تاريخ ايلة (العقبة) مجلة دراسات تاريخية العددان ١٥–١٦ سنة ٩٨٤ ص ٨٥–٨٩ .

المصادر والمراجع :

الكتاب المقدسي ، العهد القديم .

ابن الاثير ، ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد من عبد الكريم الشيباني (ت.٦٣٠هـ) .
الكامل في التاريخ . دار صادر بيروت ١٩٦٥/١٣٨٥ .
اللباب في تهذيب الانساب ، مكتبة المثنى بغداد (لا.ت) .

الادريسي ، ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله ، نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، نابولي روما ١٩٧٦ .

الازدري ، محمد بن عبد الله ، فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عامر ، سجل العرب ، القاهرة ١٩٧٠.

الازدي ، ابو زكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم، تاريخ الموصل ، تحقيق علي حبيبة،القاهرة، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ١٩٦٧ .

الاصطخري ، ابراهيم بن محمد ، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال (سلسلة تراثنا) القاهرة ١٣٨١ / ١٩٦١ .

ابن اعثم ، ابو محمد احمد الكوفي ، الفتوح ، دائرة المعارف ، حيدر اباد الدكن ـ الهند ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨ .

الاصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٩/٩٧٦) ، الاغاني (دار الهيئة المصرية).

الاصفهاني ، حمزة بن الحسن ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، مكتبة الحياة بيروت(لا.ت) .

الاصفهاني ، الحسن بن عبد الله ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ،منشورات المجمع العلمي العراقي ، اليمامة ـ الرياض ١٣٨٨/١٩٦٦ .

الالوسي ، محمود شكري ، بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، مؤسسة مصر للطباعة والنشر ، ط٣/١٣٤٢ هـ .

البخاري ، ابو عبد الله محمد بن اسماعيل ، التاريخ الكبير ، دائرة المعارف العثمانية ،حيدر اباد الدكن ـ الهند١٣٦١هـ / ١٩٤٢ .

البخيث ، محمد عدنان ، معان وجوارها (استعراض تاريخي) مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق ابـــار ١٩٨٣ .

البطاينة ، محمد ضيف الله ، بحوث في التاريخ الاسلامي ، دار مجدولاي للنشر ، عمان ١٩٨٣ .

ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧) ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (رحلة ابن بطوطة) دار الكتاب اللبناني ، بيروت (لا.ت).

البغدادي ، ابو جعفر محمد بن جبيب (ت ٢٤٥/٨٥٩) ، المحبر ، تصحيح ايلزه ليختن شتيتر ، المكتبة التجارية بيروت (لا.ت) . المنمق في اخبار قريش ، صححه وعلق عليه خورشيد احمد فاروق ،دار المعارف العثمانية ،حيدر اباد ـ الدكن ـ الهند ١٣٨٤هـ/١٩٦٤ .

البغدادي ، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ، مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ،تحقيق علي محمد البجاوي ،داراحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٤.

البكري ، ابو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ) ، معجم ما استعجم ،تحقيق مصطفى السقا ،لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٥ .

البلاذري ، ابو الحسن احمد بن يحيى ، انساب الاشراف ج١ ، تحقيق محمد حميـــد الله ، دار المعارف مصر ١٩٥٩ . انساب الاشراف ج٥ القدس ١٩٣٦ . فتوح البلدان ، مراجعة رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية ،بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ .

بهنسي ، عفيف ، صناعة السيوف الدمشقية ، ابحاث الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عنـد العرب ، معهد التراث العلمي العربي ، حلب ١٩٧٧ . الشام ، لمحات اثارية وفنية ، دار الرشيــد للنشر ، بغداد.١٩٨

البيهقي ، الشيخ ابراهيم بن محمد (ت ٣٢٠ هـ) ، المحاسن والمساوىء ، بيروت ١٣٨٠/١٩٦٠.

بيشه ، غازي ، القصور الاموية في الاردن ، دائرة الاثار العامة ، عمان ١٩٧٤ .

التوحيدي،ابو حيان ، البصائر والدخائر ، تحقيق ابراهيم الكيلاني ، مكتبة اطلس، دمشق ،(لا.ت).

جرير بن عطية ، ((ديوان جرير)) ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ .

ابن جعفر ، قدامة ، الخراج وصناعة الكتابة ، شرح وتعليق محمد حسن الزبيدي ، دار الرشيد، بغداد ١٩٨١ .

جلابرت ، لويس ، السكة الرومانية من مادبا الى عقبة ، مجلة المشرق العربي ، مجلد ٨ عــدد ١٩٠٥/١٠ .

حتي ، فيليب ادوارد جرجي ، جبرائيل جبور ، تاريخ العرب المطول ، دار الكشـــاف العربي ، بيروت ١٩٥٠ .

حتي ، فيليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١ ، ترجمة جورج حداد ، دار الثقافة بيروت١٩٥٨

حمارنة ، صالح،زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب المسلمين ، حولية دائرة الاثار العامـة ، عمان ، عدد ٢٢ : ١٩٧٧-١٩٧٨ .

حديدي ، عدنان ، فلوس نحاسية أموية في عمان ، حولية دائرة الاثار العامة ، عمـان ، عدد ٢٠ سنة ١٩٧٥ .

ابن حزم الاندلسي ، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ) ،

-جوامع السيرة النبوية ، راجعه وعلق عليه الشيخ نايف العباسي ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق -بيروت ط١ ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ .

- جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ط٣ ، دار المعارف ، مصر١٣٩١/١٩٧١.

حسين ، فالح ، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الاموي ، مطابع دار الشـــعب ، عمـان ١٣٩٨ هـ /١٩٧٨ .

الحلي ،ابو البقاء هبةالله ، المناقب المزيدية في اخبار الملوك الاسدية ، تحقيق صالحدرادكة ومحمد خريسات ، مكتبة الرسالة ، عمان ١٩٨٤ .

ابن حوقل ، ابو القاسم النصيبي ، صورة الارض ، منشورات دار الحياة بيروت (لا.ت) .

الحميري ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان ،بيروت١٩٧٥.

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر (تاريخ ابن خلدون) (لامطبعة) ١٣٩١هـ/١٩٧١ .

ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق احسان عباس،دار صادر بيروت (لا.ت) والطبعة المصرية تحيق محمد محي الدين عبد الحميد ، النهضة المصرية ١٣٦٧هـ/١٩٤٨ .

الخياري ، ابراهيم بن عبد الرحمن ، تحفة الادباء وسلوك الغرباء ، تحقيق رجائي السامرائي،دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٠.

ابن خياط ، خليفة ، تاريخ ، تحقيق اكرم ضياء العمري ، مطبعة الاداب ، النجف الاشراف ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧.

الدوري ، عبد العزيز ، العرب والارض في بلاد الشام في صدر الاسلام ، مؤتمر بلاد الشام ، تاريخ بلاد الشام من القرن السادس الى السابع عشر ، عمان ١٩٧٤ .

درادكة صالح ، لمحات من تاريخ ايله (العقبة) في العصر الاسلامي ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق ، العددان ١٥-١٦/ ١٩٨٤ .

ديسو ، رينيه ، العرب في سورية قبل الاسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، مراجعة محمدمصطفى زيادة ، لجنة التاليف والنشر ،القاهرة ١٩٥٩ .

الذهبي ، ابوعبدالله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز ، المشتبه في الرجال اسمائهم وانسابهم ، تحقيق علي محمد البجاوي،الباب الحلبي ، القاهرة ط١/١٩٦٢ .

ـ العبر في خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٠ .

ـ سير اعلام النبلاء ،تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٠ .

ـ سير اعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الارنؤوط ، مؤسسة الرسالة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

ابن رشيق القيرواني، ابو علي الحسن (ت ٤٥٦ هـ) ، العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجليل ، بيروت ط٤/١٩٧٢ .

الزبيري ، أبو عبدالله المصعب بن عبد الله المصعب (ت ٢٣٦هـ) ، نسب قريش ،تحقيق ليفي بروفنسال ،ط٢ دار المعارف ، مصر ١٩٧٦ .

ابو زرعة الدمشقي، عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله ،تاريخ ، دراسة وتحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني،مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٨٠ .

الزمخشري ، محمود بن عمر ، الامكنة والمياه والجبال ، تحقيق ابراهيم السامرائي ، مطبعة السعدون بغداد (لا.ت) .

سبط ابن الجوي ، شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزاوغلي ، مراة الزمان فيتاريخ الاعيان ، عني بنشرة عليسويلم، الجمعية التاريخية التركية انقرة ١٩٦٨ .

ابن سعد ، محمد ، الطبقات الكبرى، دار صادر ، بيروت ١٢٧٦/١٩٥٧.

ابن سعيد الاندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الاقصى ، عمان ١٩٨٢.

ابن سعيد المغربي ، ابو الحسن علي بن موسى (ت ما بين ٦٨٣ ـ ٦٨٥ هـ) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العرب ، منشورات المكتب التجاري ، بيروت ١٩٧٦ .

السمعاني ، ابو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ، الانساب ، تحقيق الشيخ عبدالرحمن يحيى المعلمي اليماني ، بيروت ١٤٠٠/١٩٨٠ .

ابن شداد ، عزالدين ابو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم ، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة (دمشق) ،(لبنان والاردن وفلسطين) ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٣٧٥/١٩٦٥ .

شيخ الربوة ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي طالب الانصاري (ت ٧٢٧ هـ) ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، مكتبة المثنى ، بغداد ، نسخة مصورة عن ليبزغ ١٩٢٣ .

الصابيء ، غرس النعمة ، ابي الحسن محمد بن هلال (ت ٤٨٠ هـ) ، الهفوات النادرة تحقيق صالح الاشتر ،منشورات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٣٧٨ هـ / ١٩٦٧ .

الطائي ، يحيى بن مدرك ، ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي واخباره ، رواية هشام بن محمد الكلبي ،دراسة وتحقيق عادل سليمان جمال ، مطبعة المدني ، القاهرة (لا.ت) .

ابو طالب محمود ، اثار الاردن وفلسطين في العصور القديمة ، وزارة الثقافة والشباب عمان ١٩٧٨ .

الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،ط٢، دار المعارف ،مصر ١٣٨٧هـ/١٩٦٧ م .

طوقان، فواز احمد،الحائر ، بحث في القصور الاموية في البادية ، وزارة الثقافة والشباب ،عمان١٩٧٩.

العابدي ، محمود ، عمان في ماضيها وحاضرها ، امانة العاصمة، عمان ١٩٧١ .

عاقل ، نبيه، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، دار الفكر ، دمشق ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٥ .
المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام فلسطين ، عمان ١٩٨٣ .

عباس ، احسان ، الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس الهجري، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ـ فلسطين ، عمان ١٩٨٣.

ابن عبد البر ، ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ، الاستيعاب في معرفة الصحاب ، تحقيق محمد علي البجاوي ، مكتبة النهضة المصرية (لا.ت) . وبهامش الاصابة في تمييز الصحابة ، مكتبة المثنى بغداد ، نسخة مصورة عن الطبعة الاولى سنة ١٣٢٨هـ .

ابن عبد ربه ، احمد بن محمد، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، المكتبة التجارية الكبرى (لا.ت) .

عبد الرؤوف ، عصام الدين ، الحواضر الاسلامية الكبرى ، دار الفكر ، القاهرة ١٩٧٦ .

ابن عساكر ،ابوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله ، تاريخ دمشق ج١ ، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥١ .تاريخ دمشق(تراجم النساء) تحقيق سكينة الشهابي ، دمشق ١٤٠٢/١٩٨٢ . تاريخ دمشق

(عاصم ـ عايد)تحقيق شكري فيصل ، دمشق ١٩٦٧/١٣٩٧ . تاريخ دمشق ، تهذيب الشيخ عبد القادر بدران ، دار المسيرة بيروت ١٩٧٧/١٣٩٩ .

ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين ابو الفضل احمد بن علي ، الاصابة في تمييز الصحابة ، نسخة مصورة عن الطبعة الاولى سنة ١٣٢٨ هـ . مكتبة المثنى بغداد .

علي ،جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٦٨.

العلي ، صالح احمد ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج١ ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٦٠ .

العيني ، بدر الدين ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم شلتـــوت ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ .

الغزي ، الشيخ نجم الدين ، الكواكب السائرة باعيان المائة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمـان جبور ، بيروت (لا.ت) .

غوانمة ، يوسف درويش ، عمان حضارتها وتاريخها ، دار اللواء للصحافة والنشر، عمان ١٣٩٩/ ١٩٧٩ . أيلة (العقبة)والبحر الاحمر ، دار هشام للنشر والتوزيع ، اربد ١٩٨٤ . التاريخ السياسي لشرق الاردن في عصر دولة المماليك الاولى ، ، ط٢ دار الفكر ، عمان ١٩٨٢ .

ابو الفداء ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢ هـ) ، تقويم اللبدان، طبعة باريس ١٨٤٠م.

الفراهيدي ، ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد (ت ١٨٥ هـ) ، كتاب العين ، تحقيق مهـــدي المخزومي وابراهيم السامرائي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٢ .

الفرزدق ، همام بن غالب ، ((ديوان الفرزدق)) دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ .

الفيروز ابادي ، الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، دار العلم للجميع ،بيروت (لا . ت)..

ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم ، المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، ط٢ ، دار المعارف، مصر (لا . ت) ..

القرشي ، ابن الاخوة ، محمد بن محمد بن احمد ، معالم القرية في احكام اهل الحسـبة ، عنـي بنقله وتصحيحه روبين لبوي ، دار الفنون ، كمبردج ١٩٣٧.

القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، نسخة مصورة عـن الطبعة الاميريـة . قلائل الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق ابراهيم الابياري ، دارالكتب الحديثة ، القاهرة ١٣٨١ / ١٩٦٣ .

كبريت ، محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي ، رحلة الشتاء والصيف ، تحقيق محمد سعيـد الطنطاوي ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٨٥ هـ .

الكتبي ، محمد بن شاكر ، فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ،بيروت ١٩٧٤ .

ابن كثير ، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ) ، البداية والنهاية دار الفكر العربي القاهرة ١٩٣٥ .

كثير عزة ، كثير بن عبد الرحمن ، « ديوان كثير عزة » تحقيق احسان عباس ، دار الثقافـــة ، بيروت ١٩٧١.

ابن الكلبي ،ابو المنذر هشام بن محمد ، الاصنام ، تحقيق احمد زكي ، الدار القوميـة للطباعـــة والنشر ، القاهرة ١٣٨٤/١٩٦٥ .

لسترانج ، جي ، فلسطين في العهد الاسلامي ، ترجمة محمود عمايرة ، منشورات دائرة الثقافـــة والفنون ، عمان ١٩٧١ .

ابن ماكولا ، الامير الحافظ ، الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الاسماء والكنى والانساب صححه الشيخ عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني ، دار المعارف العثمانية حيدر اباد ـ الدكـــن ـ الهنـــد ١٩٦٦ .

المبرد ، ابو العباس محمد بن يزيد ، الكامل في اللغة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٥١ .

مجهول ، .. أخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده ، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت .

مجهول ، .. العيون والحدائق في اخبار الحقائق ج ٣ مكتبة المثنى (لا.ت).

المروزي ، ابوعبدالله نعيم بن حماد ، كتاب الفتن ، مخطوط مصور ، مركز الوثائق ـ الجامعـــة الاردنية ، شريط رقم ٣٠١ .

المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبةالتجارية الكبرى ، ط٢ ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨ .

التنبيه والاشراف ، دار التراث ، بيروت ١٣٨٨/٩٦٨ ١.

المقدسي ، مطهر بن طاهر ، البدء والتاريخ ، مكتبة خياط ، بيروت (لا.ت) .

المقدسي ، ابو عبدالله محمد بن ابي بكر . احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، بريل ١٩٠٦ .

ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ) ، لسان العرب ، دار صادر بيروت (لا.ت) .

مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر :

ج٣ تحقيق رياض عبد الحميد مراد مراجعه روحية النحاس ، دار الفكر ، دمشق ١٤٠٤هـ/١٩٨٤.

ج٦ تحقيق محمد مطيع الحافظ ونـزار اباظة ، مراجعة روحية النحاس ، دار الفكر ، دمشـــق ١٤٠٤هـ/١٩٨٤ .

ج٧ تحقيق احمد راتب حموش ومحمد ناجي العمر ، مراجعة رياض عبد الحميد مراد ، دار الفكر، دمشق ١٤٠٥/٩٨٥ ١.

ج٩ تحقيق نسيب نشاوي ، دار الفكر دمشق ١٤٠٥/١٩٨٥ .

نولدكة ، تيودور ، امراء غسان ، ترجمة بندلي الجوزي وقسطنطين زريق ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٣ .

النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب ، نهاية الارب في فنون العرب ج١٨ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،الهيئةالمصريةللكتاب ، القاهرة ١٣٩٥/١٩٧٥ .

هاردنج ، لانكستر ، اثار الاردن ، تعريب سليمان موسى منشورات وزارة السياحة والاثار ، المطبعة الوطنية عمان ١٩٧١ .

ابن هشام ، ابو محمد بن عبد الملك (ت٢١٣) ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، الباب الحلبي ، ط٢ ، ١٣٧٥/١٩٥٥ .

الهمداني ، الحسين بناحمدبنيعقوب ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق علي الاكوع دار اليمامة ، الرياض ١٣٩٤/١٩٧٤ .

ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، تحقيق حسنين محمد ربيع راجعه وقدمله سعيد عاشور ، دار الكتب القاهرة ١٩٧٧.

ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابو عبد الله ، معجم البدان ، دار صادر بيروت (لا.ت) . معجم الادباء ، سلسلة الموسوعات العربية الباب الحلبي ، القاهرة (لا.ت) . المشترك وصفا والمفترق صقعا ، غوتنجن ١٨٤٦ م .

اليعقوبي ، احمد بن يعقوب بن واضح ، تاريخ، قدم له محمد صادق بحر العلوم ، المكتبةالحيدرية، النجف ، ١٣٨٤/١٩٦٤ .

ـ البلدان (مطبوع مع الاعلاق النفسية) ليدن ١٨٩١ ، وطبعة النجف .

المراجـع بالاجنبية

1 — **Encylopaedia of Islam .**

2 — **Dictionary of the Bible.**

3 — Hitti. Philip.k., **History or the Arabs,** London 1947.

4 — Jones, A.H.M.,**The Cities of the Eastern Roman Provinces,**oxford 1971

5 — Le Strang , **Palestine under the Moslems,** London 1890.

6 — Pierre Médebille, **Salt, History d'une Mission,** Jerusalem.

7 — Smith, George Adam ,**The Historical Geography of the Holyland** Fontana Library London 1960.

— Donner, Fred MC Grau, **The Early Islamic** Conquests, Princeton University Press, Princeton - New Jersey.

9 — Trimingham, J. Spener. **Christianity among the Arabs in Pre -Islamic time,** Longman , London and New york 1979 .

النّظامُ الماليّ عند الحفصيين *

د. صالح فياض أبو دياك
جامعة اليرموك

يعد ديوان الخراج من اهم دواوين الدولة ، واعتبره ابن خلدون الركن الثالث من اركان الملك . ولهذا اهتم به خلفاء الدولةالاسلامية عبر الفترات التاريخية للحكم الاسلامي (١) .

وأول من قام بتأسيس هذا الديوان من الخلفاء ، هو الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ، فقد أبقى سجلات دواوينه باللغات التي كانت عليها ، وهي اللغة الفارسية في العراق ، واللغة الرومية في بلاد الشام ، واللغتان القبطية واليونانية في مصر(٢) .

وقد ظلت سجلات الدواوين على ما كانت عليه قبل الفتح دون تغيير أو تبديل الى عهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، حيث استقرتفي عهده دعائم الدولة العربية، ورسخت قواعدها ، وانتقل العرب الى انماط حياتية جديدة ، ومهروا في القراءة والكتابة بعد جهلهم بهما ، وظهر من بينهم ومن مواليهم كتاب واهل حساب ، فأمر الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان في سنة ٧٨هـ / ٦٩٧م ، سليمان بن سعد والي

---

* يعود أصل بني حفص الى قبيلة هنتانة التي هي فرع من المصامدة ، وكان ابو حفص عمر بن يحيى مؤسس دولتهم ، استقل بنو حفص بافريقية ـ تونس ـ بعد استيلاء المرينيين علىمراكش ودام حكمهم ثلاثة قرون ، وامتد نفوهم حتى وصل برقة . راجع ، ابن خلدون تاريخ الدول بالمغرب الجزائر ١٨٥١ جـ ١ ، ص ٣٧٤ .

الاردن في عهده ، بتعريب ديوان المال في بلاد الشام ، وقد تم تعريبه في خلال سنة واحدة واصبح يتولاه من يتقن اللغة العربية بعد ان كان لا يتولاه الا من يتقن اللغة الرومية ، وكان ممن تولاه قبل التعريب سرجون بن منصور الرومي النصراني(٣) .

اما ديوان العراق ، فقد أمر الخليفة عبد الملك واليه الحجاج بتعريبه ، وقام الحجاج بدوره بتكليف كاتبه صالح بن عبد الرحمن مولى ابن عبيد من بني مرة بتعريب الدواوين .

وكان صالح يتقن اللغة الفارسية التي تعلمها من زادان بن فرّخ(٤) الذي قتل في حرب ابن الاشعث ، وتمكن صالح من تعريبه في مدة وجيزة . اما ديوان مصر ، فقد امر عبد الله بن عبد الملكبن مروان والي مصر من قبل ابيه بنقله الى اللغة العربية ، وعين له بعد تعريبه ابن يربوع الفزاري من أهل حمص بدلا من عبد الله بن اثيناس.

وفي خراسان ، قام اسحاق بن طليق كاتب بني نهشل بنقله من اللغة الفارسية الى اللغة العربية زمن الخليفة هشام(٥) بن عبد الملك سنة ١٢٤ هـ/٧٤١م . ونتج عن حركة التعريب في الدواوين انتشار اللغة العربية ، واصبحت اللغة السائدةفي جميع اجهزة الدولة ،في مختلف الاقطار الاسلامية(٦) .

اما عن تقسيم الخراج ، فقد عزم الخليفة عمر على ان يضع خراجا على ارض السواد والاهواز وما افتتح من المدن في بلاد العراق وفارس ، فأشار عليه المسلمون بتقسيمها دون فرض الخراج عليها ومن هؤلاء بلال الحبشي ، وعبد الرحمن بن عوف، ولكن عمر رفض رأيهما وايده في رفضه من الصحابة عثمان وطلحة . واستقر الرأيعلى فرض الخراج ، فبعث الخليفة عمر حذيفة بن اليمان ، وعثمان بن حنيف الى أرض السواد في الاراضي المفتوحة وارض الجزيرة الفراتية فوضعا على هذه الاراضي خراجا يتفق والشريعة الاسلامية(٧) . وقد اتبع نظام عمر في الخراج في الاراضي المفتوحة من جاء بعده من الخلفاء مع الاخذ بعين الاعتبار نوعية التربة ، وانواع المحاصيل والاشجار المثمرة ، والاحوال الطبيعية للبلاد ، وعادات اهلها في الزراعة وجني المحصول ، وكيفية سقي الاراضي بماء المطر او بالري . وكانت البلاد المغربية من البلاد الوافرة بالمياه(٨) ، الخصبة بالانتاج ، علاوة على اهتمام العرب المسلمين بالتعمير واصلاح الاراضي . من هنا يقال انهم اهتموا ببناء المسجد وزراعة الحقل .

ففي عهد الاغالبة ، على سبيل المثال ، شهدت افريقية زيادة في مساحة الارض المزروعة ، بفضل العناية بطرق الري والاكثار منها ، كما شهدت زراعةمحاصيل جديدة

قدم بها الفاتحون من بلاد الشام والعراق ، وتقدمت الصناعة والتجارة في هذه البلاد وغيرها من البلدان المغربية .

واصبحت القيروان حاضرة البلاد الافريقية من المراكز التجارية المهمة على البحر المتوسط ، الى جانب بلدان اخرى ، مثل بيجاية ، وسوسة ، ورقادة ، والعباسية وغيرها من المدن الافريقية(٩) .. وحذت هذه المدن حذو المدن المشرقية ، فعرفت نظام الاسواق المتخصصة(١٠) مثل اسواق المدن بالمشرق ، كما تأثرت النظم المالية فيها بنظيراتها في الامصار الاسلامية وخاصة المشرقية منها .

فالدارس للعملة المغربية بافريقية الاغلبية يعرف مدى تأثرها بالعملة العباسية ببغداد كما نلاحظ ان وظيفة متولي الضرائب التي وجدت بافريقية الاغلبية هي تقليد لما عرفته العراق ، ومجاورة افريقية للمشرق وموقعها بين القارات الثلاث ـ اوروبا وآسيا وافريقيا ـ سهلت سبل الاتصال البري والبحري بينها وبين المشرق من جهة وبينها وبين القارات الثلاث من جهة اخرى .

وارتبطت افريقية بمصر بطريقين كبيرين احدهما بمحاذاة الساحل والاخر اتجه الى الجنوب حيث توغل في الداخل .. اما الطريق الاول ، فيمر بالفسطاط ويتجه غربا دون ان يمر بالاسكندرية ، ويلتقي عند برقة بالطريق الآتي من الاسكندرية ، ثم يتحد الطريقان في طريق واحد معبد الى المدن الافريقية مارا بذات الحمام والطاحونة . اما الطريق البحري فقد ربط المدن الواقعة على البحر المتوسط ابتداء من الاسكندرية مرورا بالموانيء الافريقية مثل تونس ، وسوسه ، وبيجاية وغيرها ، ولكن افريقية الاغلبية كانت تعتمد على الطرق البرية اكثر من الطرق البحرية لان البيزنطيين كانت لهم قوة بحرية يعتد بها في البحر المتوسط(١١) . الا أن هذه القوة انهارت ، ونشطت بعد انهيارها الطرق البحرية بين الساحل التونسي والمدن الساحلية المغربية الاخرى ، مثل نول ، ولمطة ، واصبحت هذه الطرق تمتد من المحيط الاطلسي غربا الى الاسكندرية على البحر المتوسط شرقا ، ونشطت طريق الصحراء بعد اكتشاف الذهب في المناطق الافريقية المحاذية لمدينة سجلماسةالواقعة الى الجنوب من مراكش ، فكانت القوافل التجارية تاتي من سجلماسة عبر وجدة ، ومنها الى تلمسان ومنها الى بلاد الزاب وقسطيلة محملة بالتبر مما ادى الى الرواج التجاري في الاسواق المغربية بعامة ومن ضمنها الاسواق بافريقية(١٢) .

ونشطت دار السكة في مدينة العباسية الواقعة الى الجنوب من القيروان بسك العملة الذهبية فيها والتي على وجهي قطعها النقدية اسماء خلفاء بني العباس (١٣).

وحرص الاغالبة كما حرص من سبقهم ومن عاصرهم ومن اتى بعدهم من حكام المغرب على تأمين الطرق التجارية قصد المحافظة على اقتصاد البلاد وازدياد الرخاء فيها(١٤).

ولما جاء الفاطميون للمغرب واستولوا على افريقية التي كانت من ضمن الاقطار المغربية التي استولوا عليها ، لجأوا الى عدد من الاساليب التي لم يعهدها المغاربة من قبل ، اذ أمروا بأخذ الخمس من الغنائم عملا بقول جعفر بن محمد : « الخمس لنا أهل البيت ليس للناس معنا فيه شيء »(١٥) ، وهو ما يخالف آراء الفقهاء من أهل السنة الذين يرون بان سهم الرسول انتهى بموته، وانه يصرف في المصالح العامة . واستحدث الفاطميون دواوين جديدة لجبي الاموال مثل ديوان الكشف وديوان الضياع ، وقاموا بمصادرة أموال التجار خاصة الاندلسيين ، وكان من ابرزهم جعفر بن خيرون المعافري لانه لم يكن على وفاق معهم ، واطلقوا العنان لقادة الجيش في جباية الاموال سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١م من هؤلاء التجار . ومن ابرز هؤلاء القادة مصالة بن حبوس ، ويبدو أنه اشتط في جمع الاموال ومصادرتها خاصة من التجار(١٦).

وشجع الفاطميون جباتهم على الاكثار من المال الذي عد وسيلة لترقية الموظف وتعيينه في المناصب العليا أمثال محمد بن عمران النفطي قاضي طرابلس الذي نال منزلة عند عبيد الله بسبب جمعه المال الكثير وتقديمه لخزينة الدولة(١٧) .

وابتكر الفاطميون وظائف للجباية جديدة ، مثل وظيفة التقسيط الذي ابتدعها القاضي ابو عمران بن احمد بن عبد الله بن أبي محرز عندما ولاه عبيد الله المهدي على خراج افريقية سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م ، فنظر في اكثر كمية من مال العشور واقلها واخذ متوسطها وفرضه على كل ضيعة من ضياعها (١٨)».

وعرف هذا النوع من الجباية عندهم بالتقسيط ، وبعد سنتين من ابتكار هذه الوظيفة قاموا باصلاح في الجباية سموه « التضييع » وعدوه اصلاح الاصلاح وكان ذلك سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م . وفيه يقول ابن عذارى : — « وفيها (سنة ٣٥٠ هـ) اخذ اهل الضياع باعمال افريقية بمغرم سمي التضييع ، وزعموا انه من بقايا التقسيط ». والى جانب ذلك ، انشأوا دارا سموها (بدار المحاسبة) كاجراء احتياطي لعدم اختلاس الاموال من قبل الجباة(١٩) .

بالاضافة الى هذا التنظيم الدقيق في الجباية، اهتم الفاطميون بالتجارة، فعمدوا الى تنظيم الاسواق وانشاء غيرها ، فقد انشأوا حي القاسمية التجاري في مدينة القيروان ونقلوا اليه التجار ، وبعد الانتهاء من مدينة المهدية التي بنيت في عهد عبيد

الله الفاطمي ، انشأوا فيها الاسواق التجارية ونقلوا اليها التجار من مختلف الامصار واجروا نظاما دقيقا عليهم في استخلاص المكوس منهم(٢٠) ، وبسطوا سيطرتهم على الطرق البحرية التي درت عليهم اموالا كثيرة وحاولوا الوصول الى مسالك تجارة الذهب ببلاد السودان(٢١) ، ولكنهم وقعوا في صراع حاد مع الامويين بالاندلس وانتقل هذا الصراع بدوره الى القبائل المغربية المناصرة لهم والمعادية .. فقبائل زناته كانت معادية لهم مناصرة للامويين ، اما صنهاجة فكانت معادية للامويين مناصرة للفاطميين مما ادى الى اشتعال الحروب فيما بينهم . ولكن هذا الصراع لم يضعف خزينة الدولة فكان لها من افريقية والمغرب عامة ما يزود خزينتها بالمال الكثير من العملة الذهبية(٢٢) ، حيث تصف بعض المصادر رحيل المعز لدين الله الفاطمي الى مصر وحمله سبائك الذهب على شكل طواحين ، ولعل هذه الثروة الذهبية هي التي اعتمد عليها المعز لدين الله الفاطمي في اسقاط العملة العباسية بمصر اذ نقص دينار الخليفة الراضي بمقدار الربع واصبح يصرف الدينار المعزي بمقدار خمسة عشر درهما ونصف(٢٣) .. اما المرابطون ، فقد اقتصر خراج افريقية في عهدهم على زكاة الفطر والاعشار ، والجزية المفروضة على الذميين ، والخمس من غنائم الجهاد ، وأما ما عدا ذلك من الضرائب الاخرى التي تخالف الشرع فقد الغيت جميعها . .

ويشيد السيلاوي بحسن عملهم في جباية الاموال بقوله : « ولم ير في بلد من بلاده « يوسف بن تاشفين » ولا عمل من اعماله ، على طول ايامه ومن أتى بعده ، رسم مكس ولا خراج في حاضرة ولا بادية ، الا ما أمر الله به ، واوجبه حكم الكتاب والسنة » (٢٤) وتضمنت وصية الخليفة العباسي القائم بامر الله التي تحمل صك البيعة للامير يوسف بن تاشفين سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م والتي كتبها ابو سعيد العلاء بن وهب بن موصلايا ما يأمره فيها بأخذ الزكاة حسب الاصول الشرعية ، واختيار عمال الخراج والضياع والاعشار ورجال المحاسبة ممن اتصفوا بالصدق والعفة والنزاهة واوصاه بمحاسبة النظار على ما يأخذون من الاموال العينية من الضياع والتزام سعاة الصدقة بأخذ المقرر لهم من المواشي على السائمة منها دون العاملة حسب السنة النبوية ..

وركز في وصيته على دار السكة واوصاه بان يكون النقد المسكوك حسب المثقال الشرعي خاليا من الغش والتدليس .

وطلب منه بأن لايرهق اهل الذمة بالجزية ، وان تؤخذ منهم على قدر استطاعتهم حسب ما هو مألوف ، وان لا تؤخذ من النساء والصبيان والشيوخ ، ومن تبتل من الرهبان ، وان يرسل الى الخليفة العباسي ما أوجبه الشرع من الفيء والغنائم(٢٥) .

وعلى هذا النهج سار الامير يوسف بن تاشفين ومن تبعه من أحفاده بأخذ الضرائب الى حد ما .

واما الدولة الموحدية ، فقد حرصت في باديء امرها على الاقتداء بالدولة المرابطية التي قامت على انقاضها فالتزمت احكام الشرع في جباية الضرائب ، ويظهر هذا واضحا في الرسالة التي انفذها الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي الى الطلبة والمشايخ والاعيان والناس بالاندلس كافة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ، والمسماة في التاريخ بالرسالة الجامعة (٢٦) ، يخبرهم فيها باسقاط المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسي وغيرها من وظائف الجباية المخالفة للشريعة الاسلامية(٢٧) وارسل رسالة اخرى بنفس المضمون الى أهل قسنطينة عند الاستيلاء على مدينة بيجاية من ايدي المرابطين سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ، تحدث فيها عن اهل « الاختلاق والبدع » وما فرضوه من قبالات ومكوس واعشار ، مطالبا اياهم باجراء الشريعة عند سن قوانين الجباية . واراحة الناس من وظائف الجباية المخالفة لها ، على ان هذه الاجراءات لم تكن الا مجرد شعارات قصد منها ترسيخ دعائم الدولة لان الاموال المجبية لم تكن كافية لسد حاجاتها خاصة وان الجيش الموحدي ازداد عدده واتسعت رقعة نفوذه في المغرب والاندلس ، مما اضطر الدولة الى البحث عن موارد جديدة لتغطية النفقات المتزايدة (٢٨) .

مع هذا ، قام الخليفة عبد المؤمن بمسح اراضي الدولة سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م ، ورسم خريطة لذلك اسقط منها ثلثي اراضي الخراج ، وفرض على الباقي من الاراضي خراجا يدفع نقدا او عينا (٢٩) ، وسمي عمله (بالتكسير)(٣٠) ، وساعده عدد من خبراء الخراج والفقهاء مراعين في فرضه حالة السكان ونوع التربة والانتاج لافريقية وبقية البلاد المغربية في عهدهم . وضمت خطة الاشغال في الدولة الموحدية مناصب عدة ، منها مناصب **متولي أشغال البرين ـ المغرب والاندلس ـ** الذي كان يسمى في الايام الاولى للدولة الموحدية بالاعمال العلية والاشغال السلطانية والذي أسند الى زيد ابن يوجان(٣١) أيام الخليفة المنصور الموحدي ، لكنه سرعان ما تغير من حيث التسمية والمهام واستعيض عنه بمنصب **(اشراف البرين وضم الاعمال وتفقد الاشغال)** .واصبح موكلا لغير واحد يقوم بمهامه ويسمى بصاحب الاشغال ، وياتي بعده في الترتيب الوظيفي ، صاحب **الاعمال المخزنية ، ويليه متولي المجابي ثم متولي اموال النفقات والمحاسبة ، ومتولي اعمال المستخلص(٣٢) .**

وكان لمتولي الاعمال المخزنية سلطات واسعة تختلف عن غيره من متولي وظائف الجباية في الدولة ، فله الحق في الاشراف على جمع الاموال وانفاقها ، وفي مراقبة العمال المشرفين ومحاسبتهم والقبض على الجناة منهم(٣٣) . وكان له وكلاء في سائر

المدن الكبرى يسمون بالمشرفين ، وله من ينوب عنه في اشبيلية بالاندلس يسمى **(بصاحب المخزن)** . ولكل مشرف من هؤلاء المشرفين عدة موظفين يختلفون عن بعضهم باختلاف اشرافهم يسمى كل واحد منهم بالخازن ، فهناك خازن على المال ، وخازن على الطعام وجميع هؤلاء المشرفين مسؤولون أمام صاحب الاعمال المخزنية عن الصادر والوارد للمخازن العامة التابعة للدولة ، بالاضافة الى رقابة سجلات الجباة الذي يجبون الضرائب من مختلف المناطق(٣٤) .

ونظرا لكثرة أعمالهم وتعدد مسؤولياتهم ، فقد عين لهم وكلاء يقومون بالاشراف على الجباة المنتشرين في مختلف المناطق ، وهم الصلة ما بين المشرفين والجباة ، ولذا كانت تصادر أموالهم وتزهق ارواحهم بسبب ما يتهمون به من الاختلاس(٣٥) .

اما متولي المجابي ، فتقتصر مهمته على تحصيل الضرائب ، والجزيات على مختلف أصنافها وله عمال في المدن والقرى يساعدونه في اداء مهمته .

وأما متولي المستخلص ، فتنحصر مهمته في الاشراف على أموال السلطان والمحافظة عليها ، فيقوم بتحصيل ما يتعلق بها من الاموال من مختلف ابواب الدخل .

وقد تسند هذه الوظيفة الى صاحب الاعمال المخزنية ، فيباشر الاشراف على السهام السلطانية ، ويأخذ ما للسلطان من حصص وحقوق شرعية من الغنائم والفيء ، التي تذهب الى خزينة الدولة ، وما يضاف لها من الاموال المصادرة التى تؤخذ من خصوم الدولة ، ومن يلحق بهم من عمال الجبايات المتهمين بالاختلاس(٣٦) .

ولم تقتصر المصادرة على هؤلاء ، بل تعدتهم الى رجال الذمة من اليهود والنصارى من رعايا الدولة ، خاصة أيام الاضطهاد والمطاردات التي كانت تحدث لهم بين الحين والاخر ، بالاضافة الى فرض ضرائب جديدة ومكوس على مختلف أنواع المعاملات من البيع والشراء ، والصادر والوارد ، وبالجملة كانت الضرائب تفرض على ابناء الامة كلما احتاجت الدولة اليها ، شأنها في ذلك شأن غيرها من الدول المعاصرة لها .

وكانت العملة الموحدية مكونة من الدينار الذهبي والدرهم الفضي ، وربما استعمل المثقال الذي له نفس وزن الدينار ، واستعملت الاوقية التي لها نفس وزن الدرهم .

وقام الخليفة المنصور الموحدي باحداث تغييرات على نظام العملة ، مثل مضاعفة وزن الدينار بقصد تسهيل المعاملات بين الناس(٣٧) .

واهتمت الدولة الموحدية في بداية عهدها بالزراعة ، وشهدت البلاد رخاء كبيرا، لكنه ما لبث أن انتكس بسبب المحن الطبيعية والفتن الداخلية(٣٨) . فقد قام عرب افريقية بمؤازرة الثائر ابن غانية ، وعاثوا في الارض الافريقية فسادا ، فقطعوا السبل ونهبوا المتاجر وخربوا البسائط مما أنعكس على اقتصاد افريقية خاصة والمغرب عامة، وما كادت الدولة تنتهي من هذه الفتنة حتى منيت بكارثة عسكرية كبيرة ، تمثلت في معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م زمن الخليفة محمد الناصر الموحدي فكان لها آثار سلبية كبيرة على الناحية العسكرية والاقتصادية حيث تفشى الغلاءونهبت المتاجر واضطربت الاحوال ، ونشبت حروب أهلية بسبب الصراع على كرسي الخلافة ، واشترك في هذا الصراع بعض القبائل العربية والبربرية ، مثل هسكورة وعرب الخلط ، كل هذا عجل بنهايتها والقضاء عليها على ايدي المرينيين الذين استولوا على الحاضرة مراكش وانتهى الحكم الموحدي في المغرب بقتل آخر خليفة موحدي المعروف باسحاق سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م .

★ ★ ★

اما الحفصيون ، فكانت خزينتهم تتكون من الزكاة والخراج التي سلكوا في اخذها مسلك الدولة الموحدية، فكان يشرف على ديوان الجباية **صاحب الاشغال**(٤٠) الذي كان يقوم بمراقبة الصادر والوارد الى الخزينة ، وجباية الأموال في اوقاتها والتأكد من صحة كشوفها ومحاسبة من تهاون من الجباة في عمله . وبالجملة يقوم بمراقبة من هو دونه من اصحاب وظائف الجباية ، ولاهميته كان يشترط فيهان يكون من عصبة الموحدين(٤١) ، فان تعذر وجوده لعدم خبرته في الحسابات عين غيره ممن اتصف بالاخلاص والاتقان وحسن التصرف ، وهو الذي اشار اليه ابن خلدون في مقدمته :، بقوله: « وكان صاحبها يستقل بالنظر في استخراج الاموال وجمعها وضبطها، وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ، ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها . وكان يسمى بصاحب الاشفال ، وفي بعض الجهات قد يليها غير الموحدين ممن يحسنها »(٤٢) .

ولجأت الدولة الحفصية فيما بعد الى الاستعانة ببعض خبراء هذه المهنة من الاندلسيين لممارستهم اياها في بلادهم ، ويبدو ان مثل هذه الوظائف وغيرها من وظائف الدولة اخذت ــ احيانا ــ طابعا اسريا يورثها الاب لابنه ، فأسرة بني سعيد القادمين من قلعة يحصب الواقعة بالقرب من غرناطة والمعروفين ببني أبي الحسن ، استخدمهم الامراء الحفصيون في هذه الخطة ، وارتضوا بهم دون سواهم ، واصبحت متداولة

بينهم وبين الموحدين ، ولكن الحفصيين طوروا اسلوب الاختيار في التعيين فلم يقصروها عليهم ، بل أفسحوا المجال لغيرهم من عمال الجباية من اتصفوا بالكفاية وابدوا من حسن الاعمال ما يسترعي النظر . من هؤلاء ، ابن محمد الجوهري الذي شد نظر السلطان ابي زكريا في ضبطة جباية (مال العمود)(٤٣) ، وهي الجباية المفروضة على البدو بافريقية من العرب والبربر ومن ساكنهم ، وقام بتسجيلها في الديوان(٤٤) باسم ضريبة العمود بعد أن فصلها عن غيرها من خطط الجباية . واستطاع بحسن تصرفه ان يدخل للخزينة منها أموالا كثيرة كانت تذهب الى جيوب العمال والولاة، فكانت سببا في ترقيته وتعيينه في جباية الاشغال بمدينة تونس(٤٥) .

لكن الجوهري هذا ، عادى ابناء مهنته واصحاب الشأن في الدولة أمثال أبي علي بن النعمان(٤٦) وابي عبد الله بن الحسين (٤٧) ، فوشيا به ، واثبت سلوكه صدق قولهما فيه ، بالاضافة الى اكتنازه الاموال ، وتقريبه الرجال واغتراره بنفسه، فكان غروره سببا في قتله .

ومن الذين عينوا من أهل البلاد، زمن السلطان المستنصر، أحمد اللياني(٤٨)الذي كان واليا على الخطط المخزنية ومن ضمنها خطط البحر(٤٩) . ولم يقتصر الامر على الموحدين وسكان البلاد الاصليين بل تعداهم الى الموالي ، أمثال المملوك مدافع الذي عين على خطة الجباية زمن السلطان أبي اسحاق بن الواثق . ومن الاندلسيين ، محمد ابن يعقوب ، وأبو القاسم بن الطاهر وغيرهم ممن شغلوا هذا المنصب في اواخر القرن السابع واوائل القرن الثامن الهجري(٥٠) ، وبالجملة فان وظائف الجباية في الدولة كانت توزع على من يتقنها وان استأثر الاندلسيون بها اكثر من سواهم بسبب معرفتهم اسرارها .

والملاحظ ان صاحب الاشغال كان عرضة للاتهامات وغالبا ما يكون مصيره القتل، فاللياني قتل على عهد السلطان المستنصر بالله(٥١) سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م ، وسعيد ابن أبي الحسين قتل على عهد الواثق بالله وصودرت املاكه وذلك سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٨م ، وابو بكر محمد بن خلدون قتله مغتصب العرش ابن أبي عمارة(٥٢) ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م .

وبصرف النظر عن التهم الموجهة اليهم من اختلاس الاموال ، الا ان سعي الوشاة وكيد الحاسدين والصراع على الوظيفة كان سببا جوهريا في حدوث هذه النكبات . ولكن الامر لم يقتصر على الفقهاء او الكتاب بل تعداه الى رجال الجيش ، فقد وكل السلطان المتوكل على الله ابو فارس بن ابي العباس احمد مملوكه وقائد جيشه نبيلا

ابا قطاية خراج قسنطينة وما حولها ابتداء من بيجاية وانتهاء بعنابة لمدةخمس سنين وذلك سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧ م ، فانفرد بها واصبحت له سطوة وحرمة عند الرعية فكانت ترهب جانبه وتخشى بطشه وتتقي غضبه ، وركبه الغرور مثلما ركب غيره ، وكان اذا انفرد ذو الحاجة به وجده موافقا لغرضه محققا لطلبه ، لكنه كان يأخذ بالظن ويبني عليه احكامه(٥٣) . وظن انه أنفرد بالسلطة ، لكنه سرعان ما لقي مصيره مثل سابقيه ، فقد أمر السلطان ابو عبد الله محمد المنتصر بتعذيبه حتى زهقت روحه، وصودرت امواله التي قدرت بمبالغ طائلة ، وضعت في خزينة الدولة(٥٤) .

ويبدو ان بيت المال كان محط أعين الطامعين والمتكالبين عليه فقد مر بظروف حرجة فكان صاحبه يؤخذ بالظنة ، زيادة على سوء تصرف البعض من موظفيه ممن ركبهم الفرور وتصرفوا بالامور حسب أهوائهم .

وقد اسند بيت المال في بعض الفترات الى جباة من النصارى شانهم في ذلك شان جيرانهم من الدول الاسلامية كبني مرين بالمغرب ، والمماليك(٥٥) بمصر ولعل هذا يرجع الى دراية النصارى بهذه المهنة واتقانهم لها ، بيد أن منهم من ركبه ما ركب غيره من جباة المسلمين . فقد حدث أن توسل رجل من المسلمين لاحد الجباة من النصارى في امر من امور المال ، فاستشاط الجابي(٥٦) غضبا وقال له : « والله لو جاء معك نبيك ما نفعك ذلك » وعندما علم السلطان استشاط غضبا وعد هذا التصرف استهتارا بالدين ، فأمر باحراقه ، واحتج أهل ملته على هذا الحكم، وعرضوا على السلطان افتداءه بالمال ولكن السلطان رفض قائلا : « والله لو بذلوا لي فيه ملء الدنيا ذهبا ما بعت بذلك عرض النبي صلى الله عليه وسلم » ، وأمر باحراقه(٥٧). ويبدو أن هذه الوظيفة قد زاولتها كثير من الايدي مما أدى الى الفوضى والاضطراب فيها الامر الذي كان يدفع السلطان الى وضع حد للعابثين وللمنتحلين لها ، ومن التقاليد المتبعة لدى الامراء أن يقوم الامير الجديد في بداية ولايته بالغاء الاموال المتبقية على العمال وهو ما كان يسمى عندهم « بأزمة الخطايا »(٥٨) ، ولكن سوء تصرف بعض الجباة ممن أولاهم السلطان ثقته كان يثنيه عن اسقاطها مثلما فعل الفقيه يحيى بن عبد الملك الغافقي المكنى بابي الحسن والمعروف بابن الخبير الذي منع السلطان الواثق من اصلاح حال الرعية باسقاط عدد من الضرائب عند التولية(٥٩) مع أن هذا الالغاء لا يدوم طويلا فما اسرع ما يلغي السلطان ما أعلنه ويعيد الضرائب الى ما كانت عليه وربما الى أسوأ . فيمتنع ابناء الامة عن تاديتها ، أما لفداحتها واما لعجزهم عن ادائها فيقوم السلطان بتجريد الحملات العسكرية للولايات المتمردة .

ومن هؤلاء السلاطين ، أبو عمرو عثمان الذي امر بتجهيز حملة عسكرية سنة

٨٩٦هـ/١٤٩١م لغزو تلمسان وتأديب الاعراب الضاربين حولها لامتناعهم عن دفع الضرائب، وقبل ان يصل الى تلمسان علم الاعراب بقدومه ، فأوفدوا اليه وفداً مكونا من عرب السويد وبني يعقوب والذواودة من بني عبد الوادي وبني عامر معلنين له الطاعة ومعهم الجبايات المفروضة عليهم .

ويبدو أن هذا الامر لم يكن عند بني حفص فحسب ، بل كان عند جميع الدول المجاورة لهم ، وهذا ناتج عن منح السلطان الاقطاعات الكبيرة الى شيوخ القبائل ثم مصادرتها فيما بعد ، وفرض ضرائب على ما تبقى منها مما يدفع الشيوخ الى اعلان التمرد ، فتضطر الدولة الى تجريد الحملات العسكرية لاخمادها .

ويبدو انه تم حدوث اتفاق غير مدون ما بين الدولة من جهة ومشايخ القبائل من جهة اخرى ، فالسلطان ابو عمرو عثمان ، انتقض عليه اعراب افريقية من أولاد مسكين وأولاد يعقوب والشنانقة بعد رجوعه الى تلمسان بسبب عدم انصافهم في العطاء الذي كان يقدمه لهم كل عام ، فقد حدث في هذا العام ان أعطاهم الامير نقدا جديدا بدل القديم، ولانه كان أقل وزنا من القديم فقد عدوه ناقصا وطالبوا بالنقد القديم بدلا منه(٦١) ..

★ ★ ★

وبعد الاشارة الى سلوكيات اصحاب الجباية ، لابد لنا من الاشارة الى وظائف الجباية في الدولة وأهمها : الاشراف على جباية تونس وبيجابة التي تعد من وظائف الجباية العليا ، وقد يقتصر اشراف صاحبها على جباية الحضرة (تونس) دون غيرها من المدن ، ويسمى صاحبها بصاحب(٦٢) الاشغال ، وقد يوكل اليه الاشراف على اموال السلطان الموسومة بعلامة مميزة تميزها عن غيرها من الجبايات ليسهل معرفتها وعدم اختلاطها بأموال الدولة(٦٣) وتسمى (بالسهام السلطانية) يقوم بجمعها من مختلف ابواب الدخل ، ويضعها في خرائط خاصة بها .

وفي هذا الصدد يشير المراكشي الى السهام السلطانية للسلطان ابي محمد عبد الواحد بن الشيخ ابي حفص المتوفى سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١ م بقوله : « .. ولم يعد يوجد بتركته الا خرائط (٦٤) مكتوب على كل واحدة قبرة »(٦٥) . وهذا اشارة الى المال الذي خلفه السلطان من سهامه السلطانية بقرية قبرة الواقعة بنواحي الحاضرة قرطبة بالاندلس .

والملاحظ ان صاحب هذه الوظيفة يتمتع بمكانة خاصة عند السلطان ، فقديتولى اخذ البيعة له من العامة والخاصة . ومن الجباة الذين تولوا هذه الخطة زمن السلطان المستنصر ، ابو عثمان سعيد(٦٦) بن ابي يوسف ، الذي أخذ له البيعة من الخاصة والعامة سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م . وتولاها من بعده كل من كاتب السلطان الفقيه يحيى ابن عبد الملك الغافقي المكنى بابي الحسن والمعروف بابن الخبير(٦٧) ، وابن تافراجين الذي كان يجري العوائد السلطانية في الدولة(٦٨) .

وارتبط بصاحب هذه الوظيفة المسمى بافريقية (بصاحب الاشغال) وبالاندلس والمغرب بـ (مختص الحضرة) متولي المجابي المختص بتحصيل الضرائب على مختلف اصنافها وله عمال في المدن والقرى يساعدونه في اداء مهمته . من متولي هذه الخطة ايام السلطان عمرو عثمان ، ابراهيم بن عصفور .

وممن ارتبط بصاحب الاشغال ايضا ، كاتب قلم الجباية والتنفيذ ، وناظر بيت الحساب المسمى الان بدار المحاسبة . وكان ممن تولى هذه الخطة ، ابو عبد الله محمد المسلاتي(٦٩) سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٤ م . ولكنه لم يمض عام على تعيينه حتى عزل عنها في اواخر شهر رمضان من نفس السنة ، وعين بدلا منه الفقيه محمد بن الكماد(٧٠) .

★ ★ ★

اما الضرائب ، فمنها ضريبة التضييف(٧١) التي ابتدعها ابن نخيل كاتب الدولة(٧٢) الرسمي حينذاك والتي كانت تفرض على القرى والبوادي ، وبقيت قائمة الى ان قام السلطان ابو العباس احمد بن عبد الله محمد بالغائها من قرى قرطاجنة ٧٩٩هـ/١٣٩٦م ، وعدوا هذا التصرف من محاسن افعاله . ومن الضرائب ، ضرائب ديوان البحر(٧٣) الذي كان مميزا عن غيره من الضرائب ، فكانت جميع الموانىء التجارية مفتوحة مع اوروبا ، وكان لهذه الموانىء مكاتب خاصة بها تتبع ديوان الاشغال وتقوم بقبض الاتاوات المعبر عنها بالخمس والتي تقدر نسبتها بين ٢٠ – ٣٦ ٪ ، بالاضافة الى المستوردين الاوربيين . ويطلق على مثل هذه المكاتب ، أحيانا ، اسم الديوان . وهذه المكاتب شبيهة بمكاتب القبض الجمركي(٧٤) ، والمراقب المحلي لها يسمى المشرف . ولتسهيل العمليات الجمركية وضمان أمن التجار المسيحيين والمحافظة على بضائعهم ، نجد قرب هذا الديوان مخازن لكل فئة من فئات الامم المتاجرة(٧٥) .

ومن ضرائب الجباية الهامة لخزينة الدولة ، جباية ولاية قسنطينة التي تولاها

محمد بن الدباغ ايام السلطان عمر بن ابي زكريا ، فقام باختلاسها ، والتجأ الى زاوية الزبيديين(٧٦) فارا من وجه العدالة ، فاحتال عليه السلطان حتى اخرجه منها فسجنه بعد ان كبله بالحديد وفرض عليه خمسين الف دينار ذهبا ، فدفعها واطلق سراحه .

وقام بعض السلاطين بتخصيص ضرائب للاعمال الخيرية ، من هؤلاء ، السلطان ابو فارس عبد العزيز الملقب بعزوز الذي تولى الامارة بعد ابيه السلطان ابي العباس وذلك سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣ م ، وهذه الضرائب هي :

- مجبى سوق الدهادنة(٧٧) ، وكان قدره عشرة الاف دينار ذهبا .
- مجبى سوق العطارين ، وقدره مائتان وخمسون دينارا ذهبا .
- مجبى فندق الملح ، وقدره الف وخمسمائة دينار ذهبا .
- مجبى فندق البياض ، وقدره الف دينار ذهبا .
- مجبى قائد الاشغال ، وقدره ثلاثة الاف دينار ذهبا .
- مجبى سوق القشاشين(٧٨) ، وقدره مائة دينار ذهبا .
- مجبى سوق الصفارين(٧٩) ، وقدره خمسون الف دينار ذهبا .
- مجبى سوق العزافين ، وقدره خمسون دينار ذهبا .
- مجبى سوق الصابون ، وقدره ستة الاف دينار ذهبا . وقد ابيح عمله بعد ان كان ممنوعا ، وكان يغرم صانعه بالعقوبة المالية والبدنية معا . والغى السلطان ما كان من منكر الخراج ، كخراج الشرطة ، الذي كان يلزم غير واحد من الفقراء والمساكين بدفع ثلاثة دنانير ونصف الدينار ذهبا ، يدفعونه لحاكم المدينة ، وقد غير السلطان ابو فارس عبد العزيز الاسلوب المتبع في اخذها ، خاصة وان الجباة القائمين عليها كانت تنقصهم التقوى ومخافة الله ، فاشتطوا في جمعها وارهاق الناس بها بقصد ملء جيوبهم من أموالها ، فعين السلطان موظفين بمنزلة أعوان للحاكم أتصفوا بالتقوى وسداد الراي ، واجرى لهم رواتب معينة من اجل الحد من الطمع فيها . والغى ما كان على الفخارين(٨٠) من وظائف جبائية ، واسقط ما كان على الزفانين(٨١) والغانيات(٨٢) والمخنثين من مغارم واجلاهم من جميع بلاده لما بلغه عنهم من عمل المناكر(*) .

(*) انظر لوحة عن النظام المالي عند الحفصيين في نهاية البحث .

اما النقود ، فكانت معاملة الدولة الحفصيةمن الدراهم على نوعين، احدهما يسمى القديم ، والاخر الجديد ووزنهما واحد ، ولكن النقد الجديد خالص ، ونقد القديم مفشوش بالنحاس تسهيلا للمعاملة في البيع(٨٣) والشراء . وأي درهم يقبل دون ان يميز، فهو درهم عتيق ، وهناك تفاوت بينه وبين الدرهم الجديد .. اذ ان كل عشرة دراهم عتق تساوي ثمانية دراهم جدد ، وفي مصطلح الاهالي ان كل عشرة دراهم عتق تساوي دينارا .

والى جانب الدينار استحدث الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م ، سكة من النحاس على قيمة الدرهم من الفضة حاكى بها الفلوس بالمشرق تسهيلا للناس في معاملتهم وتيسيرا لقضاء حاجاتهم ، وسميت بالحندوس يعني السوداء تمييزا لها عن غيرها من القطع النقدية(٨٤) ، لكنها هي الاخرى لم تسلم من الغش والتدليس والنقص في الوزن ، مما ادى الى افسادها وعدم الثقة بها، الامر الذي دعا السلطان الى عقاب من قام بغشها ، وعمل على افسادها ، وأصبح وجودها مشكلة ونتج عنه اضطراب في البيع والشراء ، فانتهى بها الامر الى الغائها . وقد اقتدى سلاطين بني حفص في سك القطع النقدية من حيث الشكل والكتابة بدولة الام « الدولة الموحدية » (٨٥) . ولم يشذ السلاطين من بعد السلطان ابي زكريا يحيى بن ابي محمد عبد الواحد ، المؤسس الاول لهذه الدولة ، عن هذا الاقتداء الا في أواخر القرن العاشر الهجري ، اذ قلدوا نقود الاتراك في سكهم .

وقد اصدر السلطان ابو زكريا ديناره المكتوب عليه في الدائرة من الوجه الاول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد ، والهكم اله واحد لا الله الا هو الرحمن الرحيم » ، وفي وسط المربع منه « الامير الاجل ابو زكريا ، يحيى بن ابي محمد بن ابي حفص »وفي وسط المربع منه « ابو محمد عبد المؤمن بن علي – امير المؤمنين – الحمد الله رب العالمين » . ونقش في وسط ديناره المربع أحيانا والمستطيل احيانا اخرى قبل بيعته بالخلافة(٨٦) من قبل شريف مكة العبارةالتالية : الشكر لله ، والمنة لله ، والحول والقوة بالله » ، ولما جاءته البيعة رسم على ديناره « المستنصربالله، المؤيد بنصر الله – امير المؤمنين » وفي وسط المربع : « ابو عبد الله محمد – بن الامراء الراشدين »(٨٧) .

وعندما دخلت الدولة تحت الحماية الاسبانية ساءت نقودها ، وأصبحت على جانب كبير من الرداءة من حيث السبك والكتابة مما دل على دنو أجلها ، لان الكتابة والسبك الجيد دليل على رقيها ..

واما رطل الدولة فمقداره ست عشرة اوقية ، ووزن الاوقية واحد وعشرون درهما من دراهم الدولة(٨٨) .

اما الكيل فهو على نوعين ، قفيز وصحفة ، فأما القفيز ، فهو ست عشرة ويبه ، وكل ويبه تساوي اثني عشر مدا قرويا(٨٩) ، أي ما يقارب المد النبوي، وتساوي ثمانية بالكيل الحفصي(٩٠) .

واما الصحفة ، فتساوي اثنى عشر مدا بالكيل الحفصي ، أي ما يساوي مدا ونصف بالكيل القروي .

واما الاسعار : فغالبا ما يكون ثمن كل قفيز من القمح خمسين درهما من الدراهم القديمة والشعير دون ذلك .

واما الحسبة ، فكان لكل محتسب زمام باسماء المكاييل ، فمن عثر على كيل غير مضروب او غير مطبوع ، او مطبوع في غير وقته عوقب صاحبه .

وكان لكل نوع من المواد الغذائيةمكيال يناسبه ، فالزيت له مكيال من الفخار لانه يفسد في المواد المعدنية ، وترسم في المكيال علامة ظاهرة ينتهي اليها حد الكيل ليبصرها البائع والمشتري(٩١) .

وفي نطاق الاحباس عند الحفصيين ، بنى السلطان ابو عمرو عثمان الميضات(٩٢) الضخمة الموجودة بدرب ابن عبد السلام داخل جامع الزيتونة ، وأمر باجراء الماء الساخن لها في الشتاء .

وبنى السبالة الواقعة شرقي صومعة جامع القصبة بالحضرة ليشرب منها المارة، وبنى سبالة اخرى وضع عليها جعابا من النحاس ليشرب العطشى من الناس . وقام بحفر بئر بالقرب من مارستان الحضرة ، لقلة الماء في المارستان وبذلك انتفع به المرضى ومن يسكنون بجوار المستشفى .

ودفعه اهتمامه بالمرافق العامة الى بناء زاوية تسمى بزاوية الفندق وزودها بجميع ما تحتاجه من فرش وكساء ومواد غذائية لينزل بها الغرباء القادمين من ضواحي مدينتي القيروان وتونس ، وبنى على منوالها الكثير من الزوايا في أماكن مختلفة من القطر التونسي للغرض نفسه . وأمر ببناء باب الجبيلة الواقع ما بين بابي برج الاونقي بتونس ، وجلب له الماء من خارج الحضرة(٩٣) .

وقام السلطان ابو يحيى ابو بكر بحبس ربع املاكه على الجامعين الاعظمين بقسنطينة(٩٤) . اما نظارة الاحباس في مدينة تونس فكان لها ارتباط بجباتها فقد يعين صاحب الاحباس بالحاضرة على الجباية فيها مثلما حصل مع ابي عبد الله محمد ابن عصفور الذي نقل من نظارة الاحباس الى الجباية بتونس زمن السلطان ابي عمرو عثمان سنة ٨٥٨هـ/١٤٥٤م لما عرف عنه من ضبط الاعمال وحسن الاشراف ، فقام بواجبه خير قيام في ادارة الاحباس ، ومنع من تسول له نفسه الاستيلاء عليها او تعطيل مهامها أو تغيير مكانها (٩٥) .

كما اشرف على المرافق العامة من طرقات وقنوات وبساتين اوقفت ليتامى البلد ومساكينها ، فيقوم بالمحافظة عليها وعلى ثمارها لينتفع من ثمارها ذوو الحاجة من الفقراء . وكان عمله في المحافظة على المعالم المحبسة منطلقا من الاية الكريمة :

« فمن بدله(٩٦) بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ، ان الله سميع عليم »(٩٧) .

والواقع ان الاحباس ادت ادوارا متعددة فالى جانب ما تقوم به من اعالة المساكين كانت تقوم بمهام ثقافية وعلمية ، فقد عهد السلطان ابو عمرو عثمان الى الشيخ الفقيه محمد الزنديوي بالاشراف على المدرسة التي بناها بمدينة تونس سنة ٨٣٧ هـ/ ١٤٣٣ م ، وعهد اليه في الوقت نفسه بالاشراف على الزاوية المعروفة بدار صولة في نفس المدينة وحبس عليها ما يقوم بنفقاتها ، وقام باصلاح المدرسة الموجودة بسوق الفلقة (٩٨) احدى اسواق المدينة بتونس بعد ان كانت مهملة وعين مشرفا عليها الفقيه ابا عبد الله محمد عقاب ، وحبس عليها من العقارات والاراضي ما يقوم بسد نفقاتها(٩٩) .

ودفعه اهتمامه بالمراكز العلمية الى تجديد بناء مقصورة الشيخ محمد بن خلف الواقعة شرقي جامع الزيتونة ، وزود خزائنها بما تحتاج اليه من الكتب العلمية .

★ ★ ★

وبعد ، فقد انطبق على النظام الجبائي الحفصي من كثرة الضرائب والاستغلال مثلما انطبق على غيره من نظم الجباية للدول المعاصرة له او التي سبقته ، فنرى ان الدولة في بداية امرها حرصت على ان يكون نظام جبايتها يتفق والشريعة الاسلامية قصد

دعم أركانها ولكنها مالبثت ان أكثرت من الالقاب المكوسية ووظائف الجباية في فروع بيت المال قصد تغطية النفقات وكثرة العطاء من حكامها الى اهل عصبتهم وصنائعهم ، مما أحوجها الى المال فلجأت الى فرض الضرائب علىمختلف المبيعات، وازدادت نسبة الضرائب ازديادا طرديا مع حاجتها الى المال، خاصة عندما بدا يدب فيها الهرم ، مما ادى الى حدوث اختلال في الاقتصاد واضطراب في الاحوال المعيشية للسكان(١٠٠) .

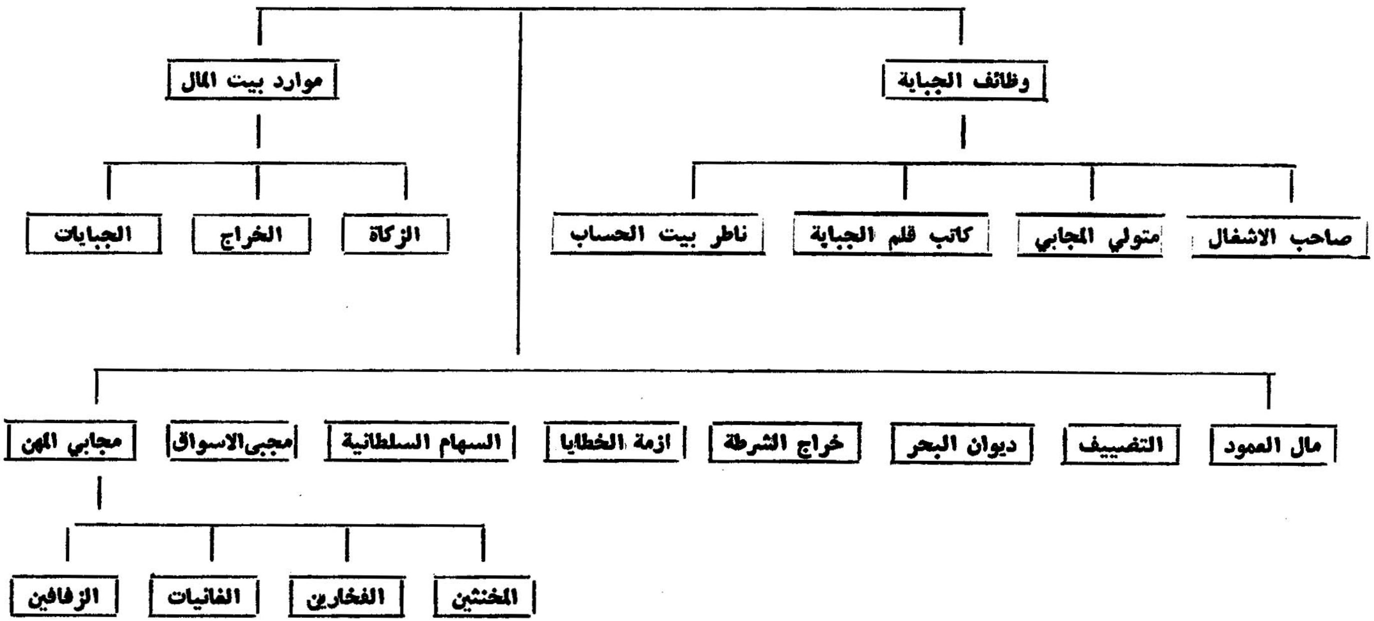
ودفعتها الحاجة الى المال الى مقاسمة بعض العمال والجباة اموالهم بتهمة الاختلاس وربما اختلس بعضهم بدافع الاغراء ، ولشعوره بعدم البقاء في وظيفته لكثرة المتنافسين عليها فتقوم الدولة في « امتكاك عظامه(١٠١) » حسب قول ابن خلدون(١٠٢).

وقد يشعر امير من الامراء لسبب من الاسباب بعدمالطمأنينة على عرشه فيسلب اموال الخزينة وما تقع عليه يده من متاع مثلما حصل مع السلطان ابي يحيى زكريا اللحياني الذي نهب اموال الخزينة السلطانية وهرب بما اخذه من مال الى الاسكندرية وبقي يعيش في كنف السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون الى أن مات سنة(١٠٣) ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م ولكن على الرغم من هذا وذاك ، فقد اتسم النظام الجبائي عندهم بطابع خاص ، ميزه عن غيره من الانظمة الجبائية للدول المعاصرة ، ويرجع ذلك الى ما اتسمت به التجارة من ازدهار في ظل الامن والاستقرار اللذين تمتعت بهما البلاد، نظرا لعدم قيامها بحروب خارجية مثلما كان الحال في الدولة المرينية التي بذلت جهودا مشكورة في انقاذ الاندلس على منوال ما فعلته الدولة الموحدية من قبلها لتحقيقنفس الغرض .

كل هذا شد نظر الاندلسيين ، فرحلوا باعداد كبيرة اليها واستوطنوها ،فنشطت التجارة والزراعة بفضلهم ونعمت البلاد ــ الى حد ما ــ بنوع من الاستقرار الاقتصادي باستثناء الفترة المتأخرة من حكم الحفصيين وعلاقاتهم مع الاسبان ضد الاتراك وما نجم عنه من كره الشعب لهم خاصة الامير الحسن الحفصي وابنه محمد وذلك في الفترة الواقعة ما بين ٩٣٦ــ٩٨١ هـ / ١٥٢٩ ــ ١٥٧٤ م (١٠٤) .

لوحة عن النظام المالي عند الحفصيين

انواع الجبايات



الهوامش

(١) ابن خلدون ، عبد الرحمن محمد الحضرمي ، المقدمة ج ٢ تحقيق علي عبد الواحد وافي ط(٣) دار النهضة ، الفجالة مصر (د.ت) ص ٦٧٨ .

(٢) نفس المصدر ـ ص ٦٧٦ .

(٣) نفس المصدر ـ والصفحة .

(٤) نفس المصدر ـ والصفحة .

(٥) تولى الخلافة بعد الخليفة يزيد بن عبد الملك من سنة ١٠٥ ـ ١٢٥ هـ / ٧٢٤ ـ ٧٤٣م، قام باصلاحات عدة الى جانب تعريب الديوان منها ، تعمير الاراضي ، وتقوية الثغور وحفر القنوات والبرك في طريق مكة . راجع ، المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ ص١٨٤ ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ج ٢ ، تحقيق ـ علي عبد الواحد وافي ص ٦٧٧.

(٧) ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم ، الخراج ، القاهرة ط٣ سنة ١٣٨٢ هـ ص ٢٨ـ٤١.

(٨) الادريسي ، الشريف ابو عبد الله محمد ، صفة بلاد المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ـ ليدن سنة ١٨٦٤ م ص ١١٥ وما بعدها .

(٩) ابن عذارى ، ابو عبد الله محمد : البيان المغرب في اخبار المغرب جـ١ ، بيروت سنة ١٩٥٠ص٢٧.

(١٠) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، القاهرة ١٩٦٢ ج ٣ ص ٣٢٠ .

(١١) لويس (ارشيبالد) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، تعريب عيسى القاهرة ـ د ـ ت ص ١٧٤.

(١٢) ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبد الله) معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م مج ٢ ص ١٢ـ١٣ .

(١٣) ابن الاثير ـ محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني : الكامل في التاريخ القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ ج ٥ ص ٢٦ .

(١٤) الادريسي ، صفة المغرب ص ١١٦ ـ ١١٧ .

(١٥) القاضي النعمان ، الهمة في اداب اتباع الائمة ، القاهرة ـ د ـ ت ـ ص ٦٦ .

(١٦) اليماني ـ محمد بن محمد ، سيرة الحاجب جعفر بن علي ، مجلة كلية الاداب ـ الجامعة المصرية، مج ٤ ج ٢ سنة١٩٣٦ م ص ١٠٨ ، القرطبي ـ عريب بن سعيد ، صلة التاريخ الطبري ، ليدن سنة ١٨٩٧ ، ص ٥١ وما بعدها .

(١٧) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ١ ص ١٨٨ .

(١٨) نفس المصدر ص ١٧٣ .

(١٩) نفسه ص ١٣٩ : يبدو من بعض النصوص أن جباية التقسيط والتضييع كانت مرهقة للفلاحين ، وادت الى فقر الكثير منهم ، يخبرنا الخشني عند الحديث عن ابي جعفر أحمد بن احمد بن زياد

المتوفي سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠م ، انه كان من الموسرين لكن مفارم التضييع افقرته . راجع ،الخشني: محمد بن الحارث بن اسد ، طبقات علماء افريقية ، الجزائر ١٩١٤ ص ١٦٨ .

(٢٠) المريزي ، تقي الدين احمد ، اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، القاهرة سنة ١٩٤٨ م ،جـ ١ ص ٩٢.

(٢١) Robert, Dets, J.De Vise, **Tegdaoust**, I, Paris 1970.

ويبدو أن الفاطميين تعاونوا مع قبائل البجة المنتشرين في صحراء النوبة في وضع أيديهم على ذهب السودان ، وقد ازدهرت تجارة الذهب في المناطق الممتدة ما بين اسوان بمصر حتى وادي العلاقي الذي يعتبر من أهم مناجم الذهب في العصر الوسيط ، راجع ابراهيم ـ حركات ، دور الصحراء الافريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط مجلة البحوث التاريخية السنة ٣ عدد يناير ١٩٨١ « مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ص ٣١ ».

(٢٢) المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٤ .

(٢٣) المقريزي ، شذور العقود في ذكر النقود ، النجف ١٩٦٧ م ص ٢٦ وما بعدها .

(٢٤) السلاوي ، ابو العباس احمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، دار الكتاب ـ الدار البيضاء ـ المغرب ١٩٥٤ جـ ٢ ص ٦٠ .

(٢٥) القلقشندي ، ابو العباس احمد ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ـ القاهرة ـ دت جـ ١٠ ص ٣٥ـ٤٥ .

(٢٦) مما جاء فيها : « .. ولقد ذكر لنا في امر المغارم المكوس والقبالات ، وتحجير المراسي وغيرها ما راينا انه اعظم الكبائر جرما وافكا ، وادناها الى من تولاها دمارا وهلاكا ..» راجع ، ابن‌عذارى، البيان المغرب ، القسم الاول ص ٢١ ، « رسائل موحدية ـ الرسالة السابقة » .

(٢٧) نفسه ص ٤٠٠ .

(٢٨) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الاول ، تحقيق ـج ـ كولان ، ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٧ م ٣٣٧ .

(٢٩) نفسه ، ص ٣١٥ـ٣١٦ ، المراكشي ـ عبد الواحد ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ليدن ١٨٨١ م ص ١٨٣ .

(٣٠) تسمى عملية المسح بمصر المملوكية ب « الروك » راجع ، حسن ـ علي ابراهيم ، دراسات في تاريخ المماليك في عصر الناصر محمد ط٣ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٤٨ م ص ٣٢٦ ، ابن صاحب الصلاة ـ عبد الملك ، تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بان جعلهم الله ائمة وجعلهم الوارثين ، السفر الثاني ، تحقيق ـ عبد الهادي التازى ، دار الاندلس ـ بيروت ط ١ سنة ١٩٦٤ ص٣٢١ .

(٣١) البيان المغرب ـ القسم الثالث ، تحقيق ، جـس كولان ، ليفي بروفنسال دار الثقافة ـ بيروت ١٩٨٠ م ص ٢٠١ ـ ٢٣٦.

(٣٢) نفسه ص ٢٢٧ ـ ٢٨٣ .

(٣٣) نفسه ص ١٣١ ، ٢٠١ ، ٢٣٧ .

(٣٤) نفســـه ص ١٣١ ، ١٧٢ .

(٣٥) نفسه ص ٣١ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٣١ ، ٢٣٧ .

(٣٦) البيان المغرب القسم الثالث ص ٧٣ .

(٣٧) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، السفر الثاني ، ص ٦١ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٠،المنوني ـ محمد ،العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين تطوان ١٩٥٠ ص ٢٥٧ .

(٣٨) عنان ـ عبد الله ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، جزءان ، لجنة التاليف والنشر القاهرة ط ١ ، ١٩٦٤ م ص ٢٦ ٦ـ ٦٢٧ .

(٣٩) ابن خلدون ـ عبد الرحمن محمد ، تاريخ ابن خلدون مج ٧ دار العلم بيروت دـت ص ١٨٢ .

(٤٠) حدث تغيير في تسميته زمن السلطان ابي فارس عبد العزيز او عزوز سنة ٧٩٦ ـ ٨٣٧ هـ/ ١٣٩٤ـ ١٤٣٣م ، وصار يسمى بالمنفذ أي صاحب الجباية والتنفيذ في الدولة راجع :
Brunschrig, Robert, **La Berberie orientale sous les Hafsides** , 2 tomes, Paris 1940 - 1947 , P. 58.

(٤١) عين بعض السلاطين اولادهم على خطط الجباية في الدولة . راجع : الباجي ابو عبد الله محمد المسعودي ، الخلاصة النقية في امراء افريقية ص ٧٠ .

(٤٢) ابن خلدون ، المقدمة ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ـ بيرت ـدـت ص ٢٥٤ .

(٤٣) سميت بمال العمود لانها تعني الخيمة ، فكانت تؤخذ من اصحاب الخيام عن هذه الضريبةراجع، ابن خلدون ، تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب ، دار الطباعة السلطانية ، الجزائـر ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٧ م جـ ١ ص ٣٩٥ ، الزركشي ، (ابو عبد الله محمد بن ابراهيم) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة تونس ١٩٦٦ ص ٢٩.

(٤٤) مكان تسجيل المكوس والاعشار وادائها ، ثم خصصت كلمة « الديوانة » للمراكز المقامة على الحدود بين قطر واخر لمراقبة السلع المجلوبة والمسوقة ـ المستوردة والمصدرة ـ واستخلاص الضرائب المفروضة عليها فهي تعادل كلمة جمرك . والملاحظ ان هذه التسمية مازالت متداولة على السـن العامة في الجزائر فيسمون دائرة الجمارك بالديوانة (مشاهدات الباحث) .

(٤٥) كانت هذه الخطة نقطة انطلاق لمتوليها لرئاسة الخراج .

(٤٦) كان من شيوخ البساطعند الموحدين ، ومن كبار مشاريخ السلطان المستنتصر بالله . راجع ،ابن قنفذ ، ابو العباس احمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسطنطيني ، الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلـــي النيفر وعبد المجيـــد تركي ، الدار التونسية للنشـــر ١٩٦٨ ، ص ١١٥ ، ١١٨ .

(٤٧) هو ابو عبد الله محمد بن الحسين ابن أبي الحسين العنسي ، من بني سعيد اهل القلعة بجوار غرناطة ، كان قهرمان ـ مسؤولا عن اهل بيت ـ السلطان ابو زكريا بن ابي محمد عبد الواحد ومن اهل خاصته ، راجعابنقنفـــذ ص ١٦٦ .

(٤٨) اللياني نسبة الى قرية اللياتة الواقعة على الساحل من اعمال المهدية ، اهتم بقراءةالادبوالفقه حتى برع فيهما ، وضع تقييدا على المدونة لابن سحنون ، تولى بعض الخطط السلطانية وخاصة ديوان البحر . راجع ، الزركشي . تاريخ الدولتين ص١٨ .

(٤٩) المقصود بها الثغور البحرية حيث تقام عليها مكاتب المكوس ـ الجمارك .

(٥٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ط بولاق القاهرة ١٢٨٤ هـ ، ص ٢٤٥ .

(٥١) الزركشي ، تاريخ الدولتين ص ٣٧ ، ابن قنفذ ص ٢٤٧ .

(٥٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤٥ ، الزركشي ص ٤٧.

(٥٣) ابن قنفـذ ، الفارسيةص ١٩٤ .

(٥٤) الزركشي ، تاريخ الدولتين ص ١٤٧ .

(٥٥) علي ـ ابراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك ط ٣ القاهرة ١٩٤٨ م ، ص ٣٤٣ .

(٥٦) ما زالت هذه الكلمة مستعملة بين العامة من الجزائريين ، يطلقونها على من يقوم بقطع التذاكر لركاب الحافلة ويسمى بالجابي (مشاهدات الباحث) .

(٥٧) ابن قنفذ ، الفارسية ص ١١٥ .

(٥٨) الزركشي ص ٤٢ ، والملاحظ ان كلمة الخطية وجمعها خطايا ما زالت مستخدمة في المغرب العربي وتعني المخالفة عندنا (مشاهدات الباحث) .

(٥٩) الزركشي ص ٤٢ ، ابن قنفذ ، الفارسية ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٦٠) من الملاحظ ان كل عشرة دراهم عتق تساوي دينارا ، راجع ، العمري ، المسالك ، وصف افريقية والمغرب ، ص ٣ـ٢٤ ، تحقيق عبد الوهاب حسن حسني .

(٦١) الزركشي ، ص ١٥٢ .

(٦٢) الزركشـي ، ص ٣٧ .

(٦٣) الزركشـــي، ص ١٩ .

(٦٤) ربما المقصود بها الحافظـة .

(٦٥) الزركشـــي ، ص ١٩ .

(٦٦) نال ابو عثمان مكانة مرموقة في الدولة الحفصية ، وكان مغرورا بنفسه ، وكانت نهايته على يـد صنيعة ابي عثمان ، ابو زيد عبد الرحمن بن ابي الاعلام ، ومات تحت ضرب السياط سنة ٦٧٦هـ /١٢٧٧م ، راجع ، ابن قنفذ الفارسية ص٣٥ .

(٦٧) ابن قنفـذ الفارسية ص ١٣٤ .

(٦٨) الزركشي ، ١٠٦ .

(٦٩) الزركشـي ص ١١٥ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٥٤ .

(٧٠) نفســه ص ١٥٤.

(٧١) روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صالح اهل الذمة على ضيافة المسلمين مدة ثلاثة أيام لا يزيدون عليها ، كما صالح‌عمر نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيـــام يطعمونهم مما ياكلون ، وضريبة التضييف وجدت في دول الاسلام على غير أهل الذمة ، ففي ايام المماليك البحرية زمن الامير الناصر محمد بن قلاوون المملوكي سميت بـ (حق الضيافة) حيـث

يؤخذ من كل فلاح حصة من المنتوجات الفلاحية وتقدم الى كل امير مملوكي ، راجع ، ابن الفراء، ابو يعلي محمد بن الحسين الحنبلي ، الاحكام السلطانية دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م ص ١٥٦ ، علي ابراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك ص ٣٦ .

(٧٢) راجع، الزركشي ، ص ١٨ ، ٥٢ ، ابن قنفذ ، ص١٠٥ ، ٩٢ .

(٧٣) الزركشي ، ص ٣٦ ، ٥٢ ، ابن قنفذ ص ١٧٤ ، ٩٢ .

(٧٤) لم تستعمل كلمة جمرك في تونس او المغرب الا في عهد الحماية الاجنبية . راجع ابن شنهو ـ عبد الحميد ، النظام لادري بالمغرب ص ٤٣ .

(٧٥) راجع ، دائرة المعارف باللغة الفرنسية ، مادة Divan

(٧٦) كان لهذه الزاوية مكانة في نفوس الحكام والخاصة والعامة من الناس بحيث لا يجرؤ احدا على اقتحامها لاخراج الملتجا منها .

(٧٧) الاصل (الدهانة) وهو تحريف ، صوابه ما اثبتناه هنا بالمتن نقلا عن المؤنس والدهادنة هم باعة الامتعة والملابس المتجولون ويفسره ما بعده ، وهو اصطلاح قديم مسمى به في اكثر المدن التي بها الاسواق . راجع ، الزركشي ص ١١٦ .

(٧٨) هم باعة لاشياء القديمة او ما يعبر عنه بالخردة .

(٧٩) هو سوق النحاس .

(٨٠) نحن امام امرين ، اما أن اسقاط الضرائب عن الفخارين كان بدافع تشجيع صناعة الفخار ولاسيما ان هذه المادة استخدمت في حفظ العقاقير الطبية وقد بينت الحفريات الاثرية الايطالية التي كشفت عن آوان فخارية من صنع عربي بصقلية قد استخدمت لهذا الفرض ، واما كما نرجح ـ حدوث تصحيف في اللفظ لعل المقصود به الخمارين ، لانه داخل في نطاق المنكر وقطع دابره بسبب ما أدى من انتشار الفساد والفتن الناتج عن تجمعات الخمارين في اماكن معينة ، مما دفع السلطان ابا فارس الى الغائه . راجع ، الزركشي ص ١١٧ .

(٨١) في الاصل الزفافين كما اثبتناه في المتن واصله الزفن وهو الرقص وفي حديث لعب الاحباش في العيد ـ عند صحيح مسلم : انهم كانوا يزفنون أي يرقصون وينقرون ـ وبقيت هذه العادة مستعملة الى عهد قريب ولا سيما بالساحل ، فيسمون فرقة الغناء فيها من اصحاب الطبل والمزمار ومن معها من الراقصات وخاصة الزنوج انذاك فرقة « زفانة » . ووردت كلمة (الزفن) في كتاب مجمع بحار الانوار ، كانت تزفن للحسن أي ترقصه واصله اللعب والدفع ومنه جاء حبش (يزفنون) بفتح ياء وسكون زاي وكسر فاء أي يرقصون بلعب السلاح . والملاحظ ان هذه الكلمة (الزفن) ما زالت مستعملة في بعض النواحي بتونس والجزائر ، ويقولون لمن اراد لهو الحياة يقولون بما معناه (صاحب زفانة ولهو) مشاهدات الباحث . راجع ، الزركشي ، تاريخ الدولتين ص ١١٧، الكجراني ـ محمد الطاهر الصديقي الهندي الفتني ، مجمع بحار الانوار وغرائب التنزيل ولطائف الاخبار جـ٢ ، طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ بحيدر اباد ـ الدكن ـ الهند ١٣٩٠هـ/ ١٩٨٠ م ص ٤٢٨ .

(٨٢) لعل المقصود بهن المغنيات ، وهذه الظاهرة كانت ناتجة عن رحيل الاندلسيين باعداد ملحوظة الى تونس اكثر من غيرها من الاقطار المغربية ، وقد استنكر بعض العلماء هذه الظاهرة امثال الفقيه عبد

الله الحيدري المعروف بابن الحاج المتوفي سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م صاحب كتاب المدخل . راجع، رضا كحالة ج ١١ ص ٢٨٤ ، غراب ــ سعد ، الفتاوى وقيمتها الاجتماعية ، مجلة حوليات الجامعة التونسية ــ كلية الاداب والعلوم الانسانية عدد ١٦ سنة ١٩٧٨ ص ٩٥.

(٨٣) كانت معرفة النقد الصحيح الوزن من الناقص تتم بواسطة الصنوج المصنوعة من الزجاج مكتوب على احد وجهيها كتابة بارزة تدل على ان مثقالها هو وزن الدرهم او الدينار الرسمي الشرعي ،وتطبع بدار السكة وتوزع على الصيارفة حتى يختبروا الدراهم او الدنانير المراد صرفها وهناك صنوج اعدت للمجوهرات ، وأخرى للعطور وغيرها من المواد الاخرى . راجع الزركشي ،تاريخ الدولتين، ص ١١٦ ــ ١١٧ ، المسالك ــ وصف افريقية والمغرب ، تحقيق عبد الوهاب ــ حسن حسني ،ص ٣ ــ ٤ ، ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

(٨٤) هذا ما نبه اليه ابن عبدون بقوله : « يجب ان ينهى الصيرفيون عن الربى وان لا يجري في البلد الا سكة دون غيرها ، لان اختلاف السكك مدعاة لفساد النقد » ،راجع ، ابن عبدون ، رسالة في الحسبة ص ٢٤٩ .

(٨٥) راجع ، عبد الوهاب ــ حسن حسني ، ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ،القسم الاول ص ٤٥٥ ــ ٤٦٦ .

(٨٦) سمي السلطان المستنصر بالله ، بالخليفة بعد وصول البيعة اليه من شريف مكة ابن نمي بتأثير من ابن سبعين الصوفي المرسي عند سقوط بغداد في ايدي التتار . ومما جاء هذه البيعة«..وذكر بهاء الدين التبريزي في ملحمته : .. اذ خرجت نار الحجاز بقتل خليفة بغداد ، ويستقيم ملك المغرب ، وتبسط كلمته في الاقطار ، ويخطب له على منابر خلفاء بني العباس .. الى ان يقول: .. يعد بعض البعض سننه محمدية ، وسيرته بكرية ، وسريرته علوية ،وسلالته عمرية .. كتب تجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف » ، راجع ، ابن خلدون ، كتاب تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب ، ج ١ ص ٤١٧ــ٤٢٨ .

(٨٧) راجع ، الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ٣٣ ، المسالك ، وصف افريقية والمغرب والاندلس اواسط القرن الثامن للهجرة ، ص ٣ .

(٨٨) الزركشي ، ص ٣٨ ، المسالك ص ٤٥٥ ــ ٤٦٦ .

(٨٩) لقد عمل سلاطين بني حفص وسلاطين بني مرين على تعديل الصيعان المغربية حسب المد القروي بفاس الذي عدل مد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقام السلطان ابو الحسن المريني بتعديل مدين مصنوعين من النحاس الاصفر على مد الامير يوسف بن يعقوب الذي اعتمد بدوره على المد القروي وذلك سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣م ، والمدان كانا موجودان بالمكتبة الكتانية بفاس ثم نقلا الى المتحف .

(٩٠) هو كيل قرره سلاطين بني حفص، فسمي باسمهم .

(٩١) ابن عبد الرؤوف ، أحمد بن عبد الله ، رسالة في الحسبة ، بيروت ١٩٦٣م . الفصل الثاني ص ١٠٨ ــ ١٠٩ ،الجرسيفي ، عمر بن عثمان بن العباس ، رسالة الجرسيفي في الحسبة ص ١٢٧.

(٩٢) الميضات ، اسم مكان الوضوء ، وهو في عرف اهل المغرب باسم جامع لمكان التفوط ، ويسمى ايضا مطهراة أي مكان للطهارة ، واذا كان خاصا بالتفوط سمي (بيت الماء) راجع ، السبتي،

محمد بن القاسم الانصاري ، اختصار الاخبار عما كان بسبته من سنى الاثار ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ـ الرباط ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ مص ٤٤ .

(٩٣) الزركشي ، تاريخ الدولتين ص ٥١ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ابن قنفد ، الفارسية ص ١١٢ ، العمري ، المسالك ، وصف افريقية والمغرب ص ٢٤ .

(٩٤) ابن قنفـد ، الفارسيـة ص ١٦٣ .

(٩٥) الزركشـي ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٩٦) تنطبق هذه الاية الكريمة على كل حكم كان معمولا به ثم عمد الى تغييره .

(٩٧) ايـة ١٨١ من سـورة البقرة .

(٩٨) اصبحت هذه المدرسة دارا للسكنى وقد درست معالمها مثلما درس معالم غيرها من الاثار الاسلامية الهامة . أما سوق الفلقة فقد ورد ذكره في وثيقة تجارية ذات صبغة اجتماعية تحمل رقم ١١٢ تتضمن اشهاد محمد بن عبد النبي الفدامسي من جماعة سوق الفلقة بتونس بقبض مائة ريال مـن محمد بن محمد بن حمود ليشتري بها صوفا من بلدة سوف بالجزائر بقصد التجارة بينهما . والوثيقة مؤرخة في اواسط ١٣ شوال سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م . راجع عن المدرسة . المراكشي ، تاريخ الدولتين ص ١٣٦ ، وعن سوق الفلقة ، يوشع ـ بشير قاسم ، غدامس وثائق تجارية ـ تاريخية اجتماعية ، منشورات مركـز دراسـة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي سنة ١٩٨٢م ليبيا ، ص ٢٢١ .

(٩٩) الزركشي ، تاريخ الدولتين ١٣٦.

(١٠٠) ابن خلدون ، المقدمة ، مؤسسة الاعلمي د.ت ، ص ٢٨٣ .

(١٠١) امتك الفصيل ضرع امه اذا مصه مصا شديدا . راجع ، ياقوت الحموي ـ شهاب الديـن ابو عبد الله ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٥ مج ٥ مادة مكة ص ١٨١ .

(١٠٢) ابن خلدون ، المقدمة ، مؤسسة الاعلمي ص ٢٨٣ .

(١٠٣) ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين احمد بن علي ، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ،دار الجيل ، بيروت د.ت. جـ ٢ ص ١١٤.

(١٠٤) ابن ابي ضياف ـ احمد ، اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ط ٢ ، الـدار التونسية للنشر د.ت جـ٢ ص ١٢ ، ١٦ وما بعدها .

ثبت باسماء المصادر والمراجع

الادريسي ، الشريف ابو عبد الله محمد .
* صفة بلاد المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ليدن ١٨٦٤ .

ابن الاثير ، محمد بن محمدبن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني .
* الكامل في التاريخ - القاهرة سنة ١٣٥٧هـ ج ٥ .

الجرسيفي ، عمر بن عثمان بن العباس .
* رسالة الجرسيفي في الحسبة .

حسن ، علي ابراهيم .
* دراسات في تاريخ المماليك في عصر الناصر محمد ط (٣) مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٨م .

ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين احمد بن علي .
* الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ، دار الجيل ، بيروت د-ت ، ج٢ .

حسن - ابراهيم حسن .
* تاريخ الاسلام السياسي ، القاهرة ١٩٦٢م .

حركات ابراهيم .
* الصحراء الافريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط ، مجلة البحوث التاريخية السنة ٣ عدد ١ يناير ١٩٨١ م - مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية - ليبيا .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي .
* المقدمة ، ج ٢ - تحقيق - علي عبد الواحد وافي ط (٣) دار النهضة - الفجالة مصر د-ت .
* المقدمة ، مؤسسةالاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، د-ت. ط - بولاق - القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ .
* تاريخ ابن خلدون مجلد ٧ دار العلم - بيروت د-ت .

الخشني ، محمد بن الحارث بن اسد .
* طبقات علماء افريقية الجزائر ١٩١٤ م
* دائرة المعارف باللغة الفرنسية مادة (Divan) .

الزركشي ، ابو عبداللهمحمد بنابراهيم.
* تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق - محمد - ماضور ، المكتبة العتيقة تونس ١٩٦٦م .

السلاوي ، ابو العباس احمد بن خالد الناصري.
* الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، دار الكتاب - الدار البيضاء - المغرب سنة ١٩٥٤م.

السبتي ، محمد بن القاسم الانصاري .
* اختصار الاخبار عما كان بسبته من سني الاثار ، تحقيق - عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية الرباط ١٣٨٩هـ/١٨٦٩ م .

ابن شنهو ـ عبد الحميد
* النظام الاداري بالمغرب ط٣ ـ الرباط ١٩٦٣ م .

ابن صاحب الصلاة .
* تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بان جعلهم الله ائمة وجعلهم الوارثين ، السفر الثاني ، تحقيق ـ عبد الهادي التازي ، دار الاندلس ـ بيروت ط (١) سنة ١٩٦٤ م .

ابن ابي ضياف ـ أحمد
* اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، ط (٢) الدار التونسية للنشر د ـ ت جـ٢.

ابن عذاري ، ابو عبد الله محمد .
* البيان المغرب في اخبار المغرب جـ١ ، بيروت سنة ١٩٥٠ م ، والقسم الاول ، تحقيق ـ جـ كولان، ليفي بروفنسال ، دارالثقافة ـ بيروت سنة ١٩٦٧ م ، والقسم الثالث سنة ١٩٨٠ م.

العمري ، شهاب الدين بن فضل الله .
* المسالك ، وصف افريقية والمغرب ، تحقيق ـ حسن حسني عبد الوهاب تونس د ـ ت.

ابن عبد الرؤوف ، احمد بن عبدالله .
* رسالة في الحسبة ، بيروت ١٩٦٣م .

عبد الوهاب ـ حسن حسني .
* ورقات من الحضارة العربية بافريقية التونسية ، القسم الاول ـ تونس ١٩٦٨م

ابن عبدون
* رسالة في القضاء والحسبة المجلة الاسيوية حزيران ١٩٣٤م .

عنان ـ عبد الله .
* عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس جزءان ، لجنة التاليف والنشر ، القاهرة ط(١) سنة ١٩٦٤ م.

علي ـ ابراهيم حسن .
* دراسات في تاريخ المماليك ط ـ ٢ القاهرة ١٩٤٨ م .

غراب ـ سعيد
* الفتاوي وقيمتها الاجتماعية ، مجلة حوليات الجامعة التونسية ـ كلية الاداب والعلوم الانسانية عدد ١٦ سنة ١٩٧٨ م .

ابن الفراء . ابو يعلي محمد بن الحسين الحنبلي .
* الاحكام السلطانية ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

ابن قنفذ ، ابو العباس احمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسنطيني.
* الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية ، تحقيق ـ محمد الشاذلي النيفر ، عبد المجيد تركي ، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨ م .

القلقشندي ، ابو العباس احمد .
* صبح الاعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ـدـت ، جـ ١٠ .

القاضي النعمان
* الهمة في اداب اتباع الائمة ، القاهرة ، د.ت .

القرطبي ـ عريب بن سعيد .
* صلة التاريخ الطبري ، ليدن سنة ١٨٩٧ م .

الكجراني ـ محمد الظاهر صديقي الهندي الفتني .
* مجمع بحار الانوار وغرائب التنزيل ولطاف الاخبار ، جـ٢ ، طبع بمطبعة مجلس دائرة المصارف العثمانية ـ بحيدر ابار ـ الدكن ـ الهندسنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .

لويس (ارشيبالد) .
* القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، تعريب ـ عيسى ، القاهرة دـت .

المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسن .
* مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ٢ ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ م .

المقريزي ـ تقي الدين احمد
* اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ م
* شذور العقود في ذكر النقود ، النجف سنة ١٩٦٧ م.

المراكشي ـ عبد الواحد
* المعجب في تلخيص اخبار المغرب ليدن ١٨٨١م .

المنوني ـ محمد
* العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين ، تطوان (١٩٥٠م) .

ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم .
* الخراج ، القاهرة ط (٣) سنة ١٣٨٢ هـ .

اليماني ـ محمد بن محمد
* سيرة الحاجب جعفر بن علي ، مجلة كلية الاداب ـ الجامعة المصرية ، مجلد ٤ جـ٢ سنة ١٩٣٦م.

ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبد الله) .
* معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م مجلد ٢ ، مجلد (٥) مادة مكة ص١٨١، بيروت ١٩٥٥ م .

يوشع ـ بشير قاسم .
* غدامس وثائق تاريخية اجتماعية ، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي سنة ١٩٨٢ م ليبيا .

استعمال العربية في الدواوين المالية
قبل عبد الملك بن مروان وبعده

د. فالح حسين

الجامعة الاردنية

تهدف هذه الدراسة لتوضيح فكرة أن استعمال العربية في الدواوين المالية امر يختلف عن تعريب هذه الدواوين ، لذا لن يكون الحديث عن الدواوين بقدر ما يكون عن استعمال اللغة العربية فيها ، اذ ان استعمال العربية شيء وتعريب الدواوين شيء اخر . فالامر الثاني يفترض انه الوقت الذي أصبحت فيه اللغة العربية هي الوحيدة في الديوان ولا لغة سواها . هذا التعريب الذي تتحدث عنه المصادر انه حدث في وقت محدد في كل من الشام والعراق ومصر وخراسان ، يختلف عن استخدام العربية كلغة ادارة في الدولة ضمن لغات اخرى ، لم يكن بمقدور الادارة العربية الاسلامية الاستغناء عنها في بادىء الامر .

ففي حين تذكر المصادر الاولية التي تطرقت لهذا الموضوع(١) أن التعريب بدا في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ــ٨٦ / ٦٨٥ ــ ٧٠٥) في الشام والعراق واستمر في عهد ابنه الوليد (شوال ٨٦ ــ جمادى الاخرة ٩٦/ايلول ٧٠٥ــ شباط ٧١٥) في مصر ، الى ان امتد في أواخر الدولة الاموية في سنة ١٢٤/٤١ ٧ــ ٧٤٢ الى خراسان أيام ولاية نصر بن سيار في خلافة هشام بن عبد الملك (أواخر شعبان ١٠٥ ــ أوائل ربيع الاخرة ١٢٥/ اواخر كانون ثاني ٧٢٤ ــ اوائل شباط ٧٤٣) . ومع اخذ ذلك كله بعين الاعتبار ، فان استعمال العربية كان قبل ذلك بوقت طويل ، ولكنها استعملت الى جانب لغات اخرى ، كما استمر استعمال العربية الى جانب هذه اللغات بعد الفترة التي حدثت لتعريب الدواوين ، ونرى ذلك واضحا بدرجات متفاوتة ...

وما هو واضح ان العربية ازداد استعمالها طرديا مع الزمن بينما كان استعمال اللغات الاخرى عكسيا مع تقدم الزمن . وبالامكان القول ان الربع الاخير من القرن الاول الهجري هو البداية الحقيقية لتراجع اللغات الاجنبية في الدواوين المالية أمام العربية، والعكس صحيح بالنسبة لها . فأول وثيقة عثر عليها حتى الان مدونة باللغة العربيـــة وحدها تعود الى ما قبل التاريخ الذي يذكر انه زمن التعريب ، فهي تعود الى ســنة ٦٥ هـ ، وتتحدث عن اجراء تحقيق في قضية احد أطرافها امرأة . وما وصلنا من هذه الوثيقة يمثل الجزء الاخير منها والذي يحمل لحسن الحظ تاريخ كتابتها ، وقد اكلت الارضة بعض كلماتها نثبت فيما يلي بعض الاسطر المتبقية منها نظرا لاهميتها هنا :

[فاذا جا]ك كتبي هذا فان [أقامت]
[البينة و]استخراج لها حـ[قها ولا]
في حقها او ا[كتب]
[الى به] والسلام [على من اتبع]
[الهدى و] كتب ابان بن [في]
[سـ]نة خمس [و] ستين (٢).

وتتزايد الوثائق المكتوبة باللغة العربية في مصر بالذات ابتداء من سنة ٩٠هـأثناء ولاية قرة بن شريك في خلافة الوليد ، هذا في حين ان استعمال العربية في مصر كلغـة وثائق مالية رسمية الى جانب اليونانية ــ لغة الادارة قبل الفتح ــ يعود الى فتـرة بعيد الفتح مباشرة . وأول الوثائق العربية التي عثر عليها حتى الان تعود الى جمادي الاولى ٢٢ هـ / نيسان ٦٤٣ ، وهي ثنائية اللغة كتبت بالعربية واليونانيـــة ، اذ كتب النص نفسه بالعربية اولا ثم باليونانية بعد الاسطر العربية مباشرة ، وتمثـل ايصال قبض مواد عينية من بعض المدن المصرية، نرى ان اثباتها هنا ذو اهمية خاصة باعتبارها اول الوثائق العربية التي عثر عليها في مصر ، او هي اول وثيقة عربية اسلامية معروفة لدينا حتى الان ، وتحمل تاريخ تدوينها بوضوح والنص كمايلي:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اخذ عبد ال[ل]ه

ابن جبر واصحبه من اهنس اخذنا
من خليفة تذرق ابن ابو قير الاصغر ومن خليفة اصطفن ابن ابو قير الاكبر
خمسين شاة من الجزر وخمس عشرة شاة اخرى اجزرها اصحب سفنه وكتئبه
وثقلاه في شهر جمادي الاولى من سنة اثنتين وعشرين وكتب ابن حديد و (٣) .

وعن استعمال العربية في دواوين الشام المالية لدينا دليل وثائقي على استعمالها منذ عهد معاوية حسب ما اوضحته برديات Nessan التي عثر عليها في جنوب فلسطين ، وهي وثائق بردية ضرائبية كتبت باللغتين العربية واليونانية أيضا ، ونثبت النص العربي لاحداها كدليل مادي لبرهنة ما ذهبنا اليه من استعمال العربية قبل قرار تعريب الدواوين الرسمي:

[بسـ]م الله الرحمن الرحيم
[من] الحرث بن عبد الله الى اهل نصتان
[من كـ]ورة غزة من اقليم الخلوص
] فاعط[وا عسر عدى بن خالد من بني
[سعد بن مـ]لك رزق ذ[ى] العقد[ه] و
[المحرم وصفر] و [شهـ]ري ربيع
[سبعين مـ]دى [قـ]مح ومثله زيتا و
[كتب] ابو سعيد في ذي العقدة
من سنة أربع وخمسين (٤).

وهذه الوثيقة ليست الفريدة من نوعها كحال سابقتها من مصر بل هناك وثائق تعود لسنة ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ و ٧٠هـ ، وكلها كتبت بالعربية واليونانية حول الموضوع نفسه ، مما يجعلنا نؤكد باطمئنان استعمال العربية في الشام كما هو الحال في مصر قبل فترة التعريب التي نسبت لعبد الملك(٥) .

بمثل هذا الوضوح لا نستطيع اثبات استعمال العربية في العراق لا فتقارنا الى الوثائق الرسمية ، الا أن البلاذري يقول في معرض حديثه عن صالح بن عبد الرحمن في رواية عن المدائني ما نصه « فلما ولي الحجاج العراق استكتب زادان فروخ بن بيري وكان معه صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم يخط بين يديه بالعربية والفارسية »(٦). فاللغتان استعملنا جنبا الى جنب كحال العربية واليونانية في الشام ومصر .

وقبل الاستطراد في الحديث عن استعمال العربية او سواها من اللغات الاجنبية في الدواوين المالية لابد من القاء نظرة على الاوضاع التي سادت البلاد المفتوحة لحظة الفتح ، فيما يتعلق بادارتها واللغات المستعملة فيها ، وظروف الفتح ، وكيف تعامل العرب المسلمون مع الاوضاع الجديدة بعد الفتح.

من المعروف ان الجيش العربي الاسلامي عند خروجه من الجزيرة العربية دخل

بلادا غير متساوية في بعدها عن العرب جغرافيا او ثقافيا ، فاطراف الشام والعراق المحاذية للجزيرة هي بلاد عربية السكان ، وبالتالي فان اللغة العربيــة هي اللغة التــي يتعامل بها القوم على المستوى الشعبي على الاقل ، فالعربية اذن ليست غريبة عن المنطقة واهلها ، في حين ان النظم التي سبقت العرب المسلمين في كل من الشام والعراق ومصر هي نظم غريبة عن السكان العرب المقيمين بدرجات متفاوتة من الكثافة السكانية فيها. فالنظام الفارسي السائد في العراق على علاقة متوترة مع قبائل العرب في الحيرة ومــا حولها بعد القضاء على حكم المناذرة ، والنظام البيزنطي هو السائد في الشام ومصــر وبعض الجزيرة ، وعلاقته مع السكان ليست ودية على كل حال . وعليه فان ثقافــة النظامين، التي اصطبغت بالصبغة الفارسية والبيزنطية ، كانت غريبة عن الاهالي .

ولما جاء العرب يحملون عقيدتهم لشعوب هذه المناطـق وجدوا امامهـم اصول النظامين السابقين تسير امور البلاد على ضوئها ، ولم يكن باستطاعة العرب ان يغيروا الاوضاع القائمة بين ليلة وضحاها(٧) . ومع شعورنا بضرورة الاشارة الى اننا لا نتفق مع من يصفون العرب في هذه الاونة بانهم مجموعات بدوية بعيدة عن الحضارة وليس لها من التراث ما يؤهلها أصلا لحكم الدول المنظمة ، كما كان الحال بالنسبة للــروم والفرس (*) ، ولكن الظروف الجديدة فرضت على العرب الاستعانة بما وجدوه أمامهم خاصة فيما يتعلق بالادارة والتنظيم ، فكان لابـد من استخدام اللغــات التي كانت مستعملة وهي الفارسية واليونانية ، وكذلك استخدام الموظفين المؤهلين من أهالــي البلاد المفتوحة لادارة دفة الامصار ، والادارة المالية بالتحديد . لان خلق جهاز اداري جديد يحتاج الى وقت طويل ، اذ ان الحصول على الكادر المؤهل ليس بهذه البساطة تماما ، كالاستغناء عن المؤهلين الذين لم يكن باستطاعة الدولة العربية الجديدة أن تقوم به فور نجاح الفتح . ولم تكن قلة خبرة العرب هي الاساس في الموضوع ، اذ احتاج العرب اناسا قادرين على مخاطبة الاهالي بلغتهم فكان لابد من استخدام من يحسن ذلك، لافتقارهم لمن كان باستطاعتهم التعامل مع الاهالي باللغة التي يعرفونها . ومن هنا بدا استعمال العربية الى جانب اللغات الاخرى منطقيا ، اذ لابد للدولة أيضا من معرفــة ما يجرى . لذلك كله نرى استخدام اللغتين جنبا الى جنب ، العربية مع اللغة الاجنبية المستعملة في المصر ، فكانت الاستعانة بموظفي الادارة القديمة الذين استمر الاعتماد عليهم وعلى خبرتهم في ادارة شؤون الدواوين المالية على وجه الخصوص ، وهذا ماتقره المصادر العربية في الشام والعراق(٨) . وينقل ترتون عن مؤلف سرياني مجهول قوله انه حتى اواخر القرن الاول الهجري « كان النصارى يشغلون مناصب الكتابة والولاية

(*) انظر الدوري ، التكوين التاريخي للامة العربية ، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٤ ص ٢٤ وما بعدها .

وحكم الاقاليم نيابة عن العرب »(٩) . بالاضافة الى المصادر المسيحية القبطية والسريانية وأوراق البردي التي تعد اكبر شاهد على مدى استعانة العرب بأهل الذمة في ادارة الدواوين المالية سواء بمصر أو في الشام والعراق وغيرها من الامصار . ومن هنا فان دعوى عدم استعانة العرب بغير المسلمين منذ عهد الفتوحات تبقى غير معبرة عن الواقع ولا سبيل للاخذ بها(١٠) .

وربما كانت هذه الدعوى فيما بعد وفي حالات خاصة لظروف شاذة واستثنائية، وقد تعبر عن مدى معارضة المسلمين لكثرة تولي أهل الذمة الوظائف ، فنبدأ بسماع اجراءات خاصة ضد اهل الذمة(١١) ، حتى ان عمر بن عبد العزيز الذي ينسب اليه عدم الاستعانة بأهل الذمة نجده يبرر الاستعانة بهم ابتداء بقوله لعماله : « ان المسلمين كانوا فيما مضى اذا قدموا بلدة فيها أهل الشرك يستعينون بهم لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير فكان لهم بذلك مدة فقد قضاها الله بأمير المؤمنين فلا أرى كاتبا ولا عاملا في شيء من عملك على غير دين الاسلام الا عزلته واستبدلت مكانه رجلا مسلما »(١٢) . واستعانة العرب بأهل الذمة والافادة من خبرتهم بالاضافة الى تركهم يديرون شؤونهم الخاصة وفق شرائعهم مرده الثقة بالنفس وروح التسامح التي تحلى بها العرب(١٣) . ويبدو ان الظروف التي دعت الى فرض اجراءات معينة على أهل الذمة ، كمسألة اللباس مثلا ، كانت وقتية واستثنائية دائما، فما ينسب لعمر بن عبد العزيز(١٤) دائما يعني أنهم كانوا يشغلون الوظائف لذا حصل التذمر . ونسبت بعض الاجراءات لعمر بن الخطاب من قبله(١٥) . لكن هل توقف استخدامهم بعد ذلك؟ الجواب قطعا بالنفي، فلو كان ذلك صحيحا لما سمعنا باجراءات المتوكل ، في القرن الثالث سنة ٢٣٥ هـ ، التي اصدرها لوضع القيود على أهل الذمة ، كما نسب اليه منعهم من الوظائف(١٦) .

لكن النص الذي اورده الطبري يقول « ونهى ان يستعان بهم في الدواوين واعمال السلطان التي يجري احكامهم فيها على المسلمين »(١٧) . والملفت للنظر ان المعن في الكتاب الذي بعثه المتوكل لعماله في شوال سنة ٢٣٥ هـ لا يتضمن مثل هذا النهي بل العكس ، ويفهم منه ان كتاب أهل الذمة شملوا بتدابير اللباس مع سواهم «مَنْ لَبِسها مِن تجارهم وكتابهم »(١٨) ، فذكر الكتاب من أهل الذمة ضمن من عليهم تنفيذ أمر اللباس . اضافة الى ان كتب التاريخ والوثائق مليئة بما يدل على استمرار استخدامهم في شتى فترات التاريخ الاسلامي .

وعلى هذا الاساس نقول بان العرب ابقوا الموظفين الكبار ، زيادة على الموظفين المنفذين في الاقاليم ، في مناصبهم . لكنهم ومن البداية أبقوا إمرتهم تحت سلطة رئيس

عربي اعلى هو الوالي او صاحب الخراج ، الذي كان في بداية الامر عربيا دائما ، فبقيت جيوش الكتاب والموظفين في شتى مجالات الادارة المالية لكنهم خضعـوا لادارة الوالي المباشرة(١٩) . الا ان هذا لا يعني ان ادارة البلاد اقتصرت على موظفين من القبـط او اليونانيين أو الفرس ، ففي أواخر القرن الاول كان المسؤولون الرئيسيـون في ادارة مصر عربا وليس قبطا أو يونانيين(٢٠) . ومع أن الملاحظات السابقة تتحدث عن مصر لان وضعها أصدق ما يمثل الواقع نظرا لتوافر الوثائق الرسمية التي تجعل التقرير أمرا مؤكدا وافتقار بقية أنحـاء الدولة الاسلاميـة لها ، الا ان الامر نفسـه يصدق على بقية المناطـق .

ومع ان الادارة العربية في البلاد المفتوحة استلزمت الاستعانة بالموظفين القدامى ونتج عنها بقاء اللغات التي تعامل بها هؤلاء الموظفون في ظل الدولة الاسلاميـة بادىء ذي بدء ، لكن هذا لا يعني ان الدولة الفتية اديرت من قبل أجانب وبلغة او لغات أجنبية ، اذ وجدت دواوين عربيـة صرفة ، عربية برجالها ولغتهـا من الوهلة الاولى نظـرا لطبيعة هذه الدواوين كديوان الجند (العطاء) الذي كان ديوانهـا عربيا خالصـا منذ انشائه أيام عمر بن الخطاب ، وكذلك ديوان الخاتم والرسائل والبريـد وما اليها ، ولم يعهد عنها انها عرفت لغة لادارتها غير العربيـة أو رؤساء غير عرب مسلمين او مسلمين من المستعربة(٢١) . هذه الدواوين لاتعنينا في هذه الدراسة اذ أنها ليسـت مشكلة أصلا فيما يتعلق باستعمال العربية في ادارتها ، وانما يعنينا النوع الاخر مـن الدواوين وهي الدواوين الماليـة التي تعني بالخـراج والضرائـب ، او كما يسميها الجهشياري (وجوه الاموال) ونثبـت النص هنا لانه يوضـح ما ذهبنا اليه بجلاء: « ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان احدهما بالعربية لاحصاء الناس واعطياتهم وهذا الذي كان عمر قد رسمه ، والاخر لوجـوه الاموال بالفارسية ، وكان بالشام مثـل ذلك ، احدهما بالرومية والاخر بالعربية ، فجرى الامر على ذلك الى ايام عبد الملك بن مروان »(٢٢) . وهذا ما يوضح ذكر اسماء الكتاب العرب على الدواوين في الكوفـة ، اذ كانت مهمتهم الاشراف على الديوان الاول(٢٣) .. أما الديوان الثاني فهـو الـذي اضطرت الادارة العربية الاسلامية ان تستخدم لادارته موظفين من غير العرب وغـير المسلمين من اهل البلاد لالمامهم بأصول اللغة المحلية والعمل الاداري، خاصة دواوين الضرائب (الخراج) .

ففي الشام استعمل سرجون بن منصور الرومي الذي « كان روميا نصرانيا كتب لمعاوية ولمن بعده الى عبد الملك بن مروان »(٢٤) . وكتب لمعاوية على ديوان حمص ابن اثال النصراني(٢٥) ، وكتب لزياد بن ابيه على الخراج زادان فروخ الذي بقي كما يبدو حتى ايام الحجاج(٢٦) ، بينما بقي دهاقين العراق وخراسان يتولون ادارة شؤون جباية

الضرائب(٢٧) ، وكانوا يقومون بهذه المهمة في العصر الساساني فاستمروا على ذلك بعد الفتح العربي(٢٨) . وعن استمرار وجود الموظفين الماليين من القبط في مصر لدينا الكثير من الوثائق التي توضح ذلك ، كالرسائل المرسلة من الوالي قره بن شريك (٩٠-٩٦هـ) الى باسيل صاحب كورة أشقوه ، والتي تعود لسنتي ٩٠-٩١هـ(٢٩) . ولم يكن باسيل هو الوحيد بل ان موظف الضرائب في مدينة اهناس سنة ٩١ هـ مثلا كان بطرس بن جرجة(٣٠) .

الا ان هذا الوضع لم يستمر طويلا فأوضاع الدولة العربية الاسلامية تجري عليها سنة التطور أيضا ، هذا التطور الذي كان لابد ان يأخذ مجراه ليتوقف استخدام اللغات الاجنبية وممثلي الثقافة الاجنبية ايضا . لذا كان ايضا تعريب النقد في الوقت الذي بدأت فيه الدولة اصلاحها الاداري . ويبدو أن محاولة لتعريب النقد قد جرت في وقت مبكر لكنها كانت سابقة لاوانها فلم تنجح ، وذلك عندما حاول الخليفة الاموي الاول معاوية بن ابي سفيان تعريب النقد ، هذه المحاولة التي عرفناها عن طريق احد المؤلفين السريان ، فقد نشر نولدكه نصا سريانا مجهول المؤلف وقام بترجمته الى الالمانية جاء فيه أن « معاوية ضرب النقود الذهبية والفضية الا انها لم تقبل لانها لم تحمل علامة الصليب »(٣١) .

وفي مجال الحديث عن تعريب النقد اود ان اوضح نقطة هامة ، فقد ورد سبب تعريب النقد في رواية لدى البلاذري ملخصها ان امبراطور الروم اعترض على وضع علامات اسلامية في القراطيس (اي الورق المصنوع من البردي) الذي كان يصنع في مصر ، وهدد الخليفة عبد الملك بالكف عن فعل ذلك « فان تركتموه والا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه »(٣٢) . فثقل ذلك على الخليفة وقرر ضرب الدنانير ، وكأن الدولة العربية الاسلامية كانت تستورد النقد المضروب لدى البيزنطيين ، الامر الذي ينقضه ما لدينا من معلومات في مصادرنا الاولية كالبلاذري نفسه ، الذي يبين ان العرب ضربوا النقود على الهيئة الساسانية والبيزنطية القديمة . ولكن الضرب كان على أيديهم منذ عهد عمر بن الخطاب مرورا بالخلفاء والولاة في الشام والعراق والمشرق حتى عهد عبد الملك(٣٣) نفسه ، واكد ذلك ما عثر عليه من القطع النقدية العديدة .

ثم هل يمكن أن تعتمد دولة عظمى كالدولة الاسلامية في ذلك الوقت على استيراد عملة اجنبية تصدرها لها دولة معادية ..؟. ولنقل الدولة المعادية الاساسية ..؟. ولكن الدولة في دمشق كانت مضطرة لضرب النقد على الهيئة المعتادة طوال هذه الفترة لاسباب اقتصادية لا نريد الخوض فيها في هذه الدراسة .

هذه الاوضاع التي اضطرت العرب للابقاء على عناصر الادارة المالية ولغاتها لابد وان تتغير ، ومن المنتظر انيزداد استخدام الموظفين العرب او المستعربين الذين دخلوا الاسلام في الدواوين ، فزيادة استعمال العربية يتبعه بالضرورة زيادة الاستغناء عــن العناصر الاجنبية ولغاتها ، تلك الخطوة بالذات تمثل الفترة التي سميت بفترة تعريب الدواوين ، فهي البداية المنظمة او النقطة الحاسمة في الولايات الاسلامية التي بدأفيها الاستغناء عن الموظفين الاجانب ولغاتهم يتبع خطة مرسومة نفذت بالتدريج ، اذ لم يكن بالامكان اصدار القرار وتنفيذهفورا، ففهمالموضوع على هذا المنواليعتبر تبسيطاللامور وبعيدا عن تتبع التطور الطبيعي للاشياء الذي تحتاجه مثل هذه العملية ، لانها عملية مرتبطة بالتغلغل الثقافي العربي الاسلامي في البلاد المفتوحة دون شك(٣٥) .

وكذلك الامر بالنسبة لما اصطلح عليه بتعريب الدواوين الذي ينسبالى خليفة او وال بعينه اقر ذلك ونفذه في سنة محددة ، وكأن المسألة مجرد اصدار قرار ، فقضية التعريب من العمليات التي كان التدرج اهم ميزاتها . واول علامات التدرج ما نجده في قرارات التعريب في الامصار الرئيسية وباوقات متتابعة ، اذ بدأ في العراق ثم الشام ثم مصر الى أن وصل اخيرا الى خراسان.

ففي العراق بدات العملية بمبادرة من الحجاج وبالصدفة(*) ، فقــد كان على ديوان الفارسية زادان فروخ فخلفه مرة صالح عبد الرحمن فاعجب به الحجاج فأخبر صالح زادان بذلك وتوقع ان يسند اليه هذا الديوان فاستبعد زادان الفكرة على اعتبار ان الحجاج لا يمكنه الاستغناء عنه لانه « لايجد من يكفيه الحساب » فبرهن صالــح له على مقدرته بالحساب ، وحصل ماتوقعه صالح فكان ان « أمــر الحجاج صالحــا بنقل الدواوين الى العربية في سنة ثمان وسبعين »(٣٦) . وكان فضل صالح بعد ذلك عظيما لان « كتاب العراق كلهم غلمانه وتلاميذه »(٣٧) . ونقل البلاذري عن عبد الحميد الكاتب شهادته بدور صالح « لله در صالح ما اعظم منته على الكتاب »(٣٨) . ورواية البلاذري اكثر دقة في توضيح مسألة التعريب في العراق ، فقد روى عن المدائني عن اشياخه « قالوا : لم يزل ديوان خراج السواد وسائر العراق بالفارسية فلما ولــي الحجاج استكتب زادان فروخ بن بيري وكان معه صالح .. يخطبين يديه بالفارسية والعربية .. فوصل زادان فروخ صالحا بالحجاج وخف على قلبــه »(٣٩) ، فصارح صالح رئيسه بالامر ولمح اليه استلطاف الحجاج له وانه قد يقدمه عليه فلم يعبأبقوله لان الحجاج لن يستطيع الاستغناء عنه لحاجته اليه فهو بحاجة زادان أكثر من حاجته

(*) هكذا تصور الروايات الوضع وكانه صدفة لكننا لا نتفق معها اذ ان التعريب لابد وانه جرى بناء على خطة من الدولة .

صالحا لعلمه بالحساب الذي لا يتقنه سواه ، عندها أجابه صالح : « والله لو شئت ان احول الحساب الى العربية لحولته قال فحول منه شطرا حتى أرى ففعل فقال له : تمارض فتمارض فبعث اليه الحجاج طبيبه فلم ير به علة وبلغ زادان فروخ ذلك فأمره ان يظهر . ثم ان زادان فروخ قتل ايام عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث الكندي وهو خارج من منزل كان فيه الى منزله او منزل غيره ، فاستكتب الحجاج صالحا فأعلمه الذي كان جرى بينه وبين زادان فروخ في نقل الديوان فعزم الحجاج على ان يجعل الديوان بالعربية ، وقلد ذلك صالحا ، فقال مردا نشاه بن زادان فروخ : كيف تصنع بدهويه وششويه قال : اكتب عشر ونصف عشر . قال : فكيف تصنع بويد ؟ قال : اكتبه ايضا . والويد : النيف والزيادة ، فقال : قطع الله اصلك من الدنيا كما قطعت اصل الفارسية »(٤٠) . فعرض عليه رشوه لاظهار العجز « فأبى ونقله » . يتبين من الرواية ان مشكلة الديوان ربما تمثلت في المصطلحات الحسابية التي اتقنها صالح مع اتقانه العربية فسهل عليه نقل هـذه المصطلحات للعربية ، كما نفهـم منها ان تكليف صالح كان بسبب وفاة زادان فروخ ايام فتنة ابن الاشعث ، وهذه اشارة جد هامة فهي تجعل التعريب بعد التاريخ الذي ذكره الجهشياري أي سنة ٧٨(٤١) . فحوادث فتنة ابن الاشعث وقعت في عام ٨٢(٤٢) ، كما يجعله المقريزي بعد سنة ثمانين(٤٣) . وهذا هو التاريخ الاكثر ملاءمة اذ ينتظر ان يبدأ التعريب في العاصمة لدى الخليفة وليس في الولايات ، وقد اعطي صالح مهلة لنقل الديـوان ، أي لوضـع سـجلات الحسابات المالية بالعربية(٤٤) .

اما تعريب ديوان الشام فيعيده البلاذري الى سـبب تأديبي نتـج عن ردة فعل الخليفة على ما نسب الى احد الكتاب الروم واعتبر غير لائق وذلك عندما « احتاج ان يكتب شيئا فلم يجد ماء فبال في الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه وامر سليمان بـن سعد بنقل الديوان ، فسأله ان يعينه بخراج الاردن سنة ففعل ذلك وولاه الاردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله واتى به عبد الملك فدعا بسرجون كاتبه فعرض ذلـك عليه فغمه وخرج من عنده كئيبا فلقيه قوم من كتاب الروم ، فقال : اطلبوا المعيشـة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم »(٤٥) .

ولـم يكن السـبب المذكـور السـبب الوحيـد الذي ذكرتـه المصادر ، فيذكر الجهشياري سببا آخر وان لم يكن قاطعا ولكنه اقرب الى الحدوث ، وهو أن عبد الملك امر سرجون ابن منصور الرومي « يوما بشيء فتثاقل عنه وتوانى فيه ، فعاد لطلبـه وحثه فيه فرأى منه تفريطا وتقصيرا ، فقال عبد المـلـك لابي ثابت سليمـان بن سعد الخشني ــ وكان يتقلد له بديوان الرسائل ــ أما ترى ادلال سرجون علينا ؟ واحسبه قد رأى ضرورتنا اليه والى صناعته ، افما عندك حيلـة ؟ قال : لو شـئت لحولت

الحساب الى العربية ، قال : فافعل ، فحوله فرد اليه عبد الملك جميع دواوين الشام »(٤٦) . ويؤكد الصولي قضية تواني سرجون في عمله وانها السبب في اتخاذ القرار « ثم رأى منه توانيا فطلب من سليمان بن سعد تحويل دواوين الشام »(٤٧) . وبقي سليمان على رأس عمله حتى ايام عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك ، كما كان كتاب الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهشام وكتاب يزيد بن الوليد كلهم عربا(٤٨).

فقد استتبع امر التعريب في الحالتين السابقتين تغيير الكتاب مع الامر بنقل الدواوين الى العربية ، اذ استبدل بهم عرب او مستعربون . وكانت ردة فعل ممثلي اللغات الاجنبية تقريبا واحدة اذ اعتبروا النقل هو بداية تغيير يستهدف الاستغناء عنهم وعن لغاتهم . لكن سبب النقل التافه لايمكن ان يمثل نقطة الحسم بالعملية ،وكأن التعريب نتج لمجرد رغبة الخليفة بتاديب كاتب . واستغرقت عملية نقل الديوان في حالتي الشام والعراق عاما واحدا . وأخيرا تؤكد رواية البلاذري ان تعريب الشام حصل سنة ٨١ هـ وبذلك تكون بداية التعريب قد انطلقت من الشام وليس من العراق، اذا ما اخذنا بالرواية التي تجعل تكليف صالح بن عبد الرحمن ايام فتنة ابن الاشعث التي حصلت سنة ٨٢ هـ .وهذا هو الامر الطبيعي ، ان يبدأ التعريب من دمشق وليس من الكوفة .

هذا في حين ان الحديث عن تعريب الدواوين في مصر لا نلمس فيه مثل الاسباب السالفة الذكر ، بل ان القرار جاء كأمر رسمي فحسب « وامر عبد الله بن عبد الملك بالدواوين فنسختبا لعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية»(٤٩) .. أما رواية ابن عبد الحكم فهي ان عبد الله هو « أول من نقل الدواوين الى العربية »(٥٠) ، بينما لا يتحدث البلاذري والجهشياري عن التعريب في مصر مع انهما تحدثا عن تعريب الدواوين الاخرى كما راينا . وعن اسامة بن زيد يتحدث البطريرك القبطي سفيروس « فلما وصل الفسطاط التمس علوم جميع الكور وكتبها بالعربي [كذا] وكان كثير الفهم »(٥١) .

لكن الى اي مدى تطابق هذه الروايات واقع الحال ..؟. لاول وهلة يفهم منها ان العربية لم تكن معروفة في الدواوين حتى ذلك الوقت ثم غدت هي اللغة الوحيدة. كما نرى أن الكندي وقع في مغالطة تاريخية ذلك ان اليونانية هي لغةالدواوين الرسمية وليست القبطية التي لم تكن لغة الدولة قبل الفتح ، ومن هنا لم تتخذ كلفة ادارة من قبل العرب . والمعطيات التاريخية المعتمدة على وثائق البردي العربية تبين ان اللغة العربية استعملت رسميا في مصر في فترة مبكرة جدا بعد الفتح ، وكذلك الحال كان بالشام كما ذكرنا في أول هذا الحديث ، لكنها لم تستعمل وحدها بل الى جانب الرومية (اللغة اليونانية) لغة ادارة البلاد الاصلية . ولكن فيما اذا اصبحت العربية

لفة الدواوين الوحيدة بعد قرار عبد الله بن عبد الملك فان ذلك لا يمكن تقريره لانــه ينقض وثائقيا اذ كتبت الوثائق الصادرة عن الديوان بالعربية وبالعربية واليونانيــة وباليونانية فقط ، وكذلك فان عمل اسامة بن زيد يدل على ان مسألة التعريب لــم تكن قدا كتملت بعد . اذا ينتظر أن يكون تعريب الدواوين اجــراء تدريجي الى ان اكتمل فاستغني عن غير العربية نهائيا ، وذلك بعد فترة من ادخــال مبــدأ التعريب كاجراء رسمي وضمن سياسة عامة سارت عليها الدولــة الاموية ابتداء من أوائــل الربع الاخير من القــرن الاول الهجري . والروايــة التي تجعــل نقــل الدواين الى العربية سنة ٨٦ ــ ٨٧ هـ يفهم منها انها غدت الوحيدة الرسمية في الديوان ، ولكــن الوثائق التي كتبت بعد ذلك كانت ثنائية اللغة(٥٢) . والاعداد الكبــيرة من الرسائــل الرسمية الصادرة عن مكتب الوالي نراها مكتوبة باليونانية فقط(٥٣) ونشــر بعضها مترجمة الى الانكليزية في مجلة الاسلام(٥٤) ، تجعلنا نؤكد على مبدأ التدرج في الاستغناء عن اللغات الاجنبية واحلال العربية محلها . واول الوثائق العربية التي وصلتنا في حالة جيدة جدا بعيد اصدار قــرار التعريب من قبل عبــد الله بن عبــد الملك تعــود الى سنة ٩٠ هـ (٥٥) .

وتتوالى بعد ذلك الوثائق العربية بدرجةملحوظة(٥٦) . اما اخر البرديات ثنائية اللغة فتعود الى سنة ١٠١/٧١٩ .بينما تعود اخر وثيقة يونانية الى سنة ١٦٤هـ ، الا انها لا تعتبر مقياسا لبقاء اليونانية في الاستعمال ، بل هي مسألة استثنائية(٥٧) ، اذ كانت غلبة العربية قد حسمت فعليا منذ اوائل القرن الثاني الهجري(٥٨) . واخــر الوثائق التي عثر عليهــا واستعملت فيها اللغات الثلاث جنبــا الى جنب ، العربيــة واليونانية والقبطية ، تعود الى الفترة بين ١٣٧ ــ ١٤٠ هـ/ ٧٥٤ــ٧٥٧م (٥٩) .

وتبع تعريب الديوان في مصر تعريب مصر كلها ، وذلك عندمــا غلبت الثقافــة العربية على البلاد حتى بين اولئك الذين احتفظوا بعقيدتهم المسيحية ، فما ان جاءت أواخر القرن الثالث الهجري حتى وجدوا أنفسهم لا يفهمون سوى العربية ، فاضطر لذلك البطريرك القبطي في هذا الوقت ان يكتب لرعاياه تاريخ كنيستهم بالعربية ، لانها الوحيدة المفهومة في مصر . فهو يقول في معرض الحديث عن مادة كتابه انــه مضطر لـ « نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطي واليوناني الى القلم العربي الذي هو الان معروف عند أهل الزمان باقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم ليكتفي بذلك عند وقوفه عليه » (٦٠) اذن وجدت الكنيســة نفسها لا مفرلها من مخاطبــة ابنائها باللغة التي يفهمونها وهي العربية (٦١) .

أما اخر مراحل التعريب الرسمي للدواوين فنجدها في خراسان ، الولايــة

البعيدة عن المركز ، وذلك ايام خلافة هشام بن عبد الملك وفي ولاية نصر بن سيار سنة ١٢٤/٧٤١-٧٤٢ . اذ يذكر الجهشياري أن الحسبانات بقيت في خراسان بالفارسية وأكثر الكتاب كانوا من المجوس ، الى ان كتب والي العراق يوسف بن عمر سنة ١٢٤ الى نصر بن سيار عامل خراسان بأمره اليه ان ينقل الدواوين الى العربية . وكان الناقل رجل من بني نهشل وهو اسحق بن طليق الذي كان من جماعة نصر « فخص به »(٦٢) . فاجراء التعريب تبعه استبدال عرب او مستعربين بالكتاب السابقين، كما حصل في مصر والشام والعراق من قبل(٦٣) .

واخيرا فان قضية التعريب ايام عبد الملك وابنائه لايمكن نسبتها الى اسباب بسيطة ، لانها حركة كبرى شملت الدواوين والنقد ، فكانت مرحلة حاسمة في التطور الاداري والثقافي والاستقرار السياسي والاقتصادي . وربما كانت هذه الحركة أهم حدث ثقافي سياسي بعد جمع القرآن ، جرى وفق خطة شاملة ، مع ان الروايات تظهرها وكأنها مرتجلة كغضب الخليفة من تلكؤ كاتب ، او ردة فعل من الخليفة على تهديد بيزنطة بالتعريض برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بتعريب النقد، وكأنهم كانوا يسكون النقد للدولة الاموية(٦٤) .

ويمكن حصر ما توصلت اليه هذه الدراسة في النقاط التالية :

- ان استعمال العربية في الدواوين المالية كان قبل حركة التعريب المنظمة .
- ان العربية استعملت الى جانب اللغات الاخرى في الامصار الاسلامية .
- ان بعض الدواوين لم تستعمل اصلا الا اللغة العربية في ادارتها .
- وضع التعريب حدا لاستعمال غير العربية عندما اكتمل في أوائل القرن الثاني الهجري .
- كما وضع حدا لاستعمال غير العرب ، واكد على استخدام ممثلي الثقافة العربية الاسلامية من عرب او مستعمربين .

الحواشي :

(١) البلاذري ، احمد جابر بن يحيى (ت حوالي ٢٧٩ هـ ، فتوح البلدان ، تحقيق م.ج دي‌غويه ، بريل‌ـليدن ١٨٩٥، ص ١٩٢ــ٣٠٠ ــ٣٠١ . وسيشار لهذا المصدر عنه وروده فيما بعد هـكذا : البلاذري ، فتوح .

ـ ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧ هـ) ، فتوح مصر واخبارها ، تحقيق شارلس توري ،نيوهافن ١٩٢٢ ، ص ١٢٢ .و سيشار لهذا المصدر عندو روده فيما بعد : ابن عبد الحكم ، فتوح .

ـ الجهشياري ، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ) كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٦٧ . وسيشار لهذا المصدر عندوروده‌فيمابعد هكذا : الجهشياري ، الوزراء .

ـ الصولي ، ابو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥هـ) ادب الكاتب ، تحقيق محمد بهجة الاثري ، المطبعة السلفية(نشر المكتبة العربية) ، القاهرة ١٣٤١ هـ ص ٩٢ ١ــ ١٩٣ ، وسيشار لهـذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الصولي ، أدب الكاتب .

ـ الماوردي ، علي بن محمد حبيب (ت ٤٥٠ هـ) الاحكام السلطانية والولايات الدينية (اوفست) طبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيمـا بعد هكذا : الماوروي ، احكام .

(٢) Diem, Werner, « Der Gouverneur an den Pagarchen. Ein verkannter Papyrus vom Jahre 65 der Higra », **Der Islam,** Bd . 60 . Helft I, (1983) P. 105.

(٣) Grohmann, Adolf, **From the world of Arabic Papyri** (FWA), Cairo, 1952, P. 113-114, Hussein, Faleh, Das Steuersystem in Aegypten.., Frankfurt/ M - Bern, 1982, P. 53.

وبشأن النص اليوناني انظر دينيت ، الجزية والاسلام ، ترجمة فوزي فهيم جاد الله ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ١٢٦ .

(٤) Kraemer, Casper J., **Excavations at Nessana, Vol. 3, Non - Literary Papyri,** Princeton, 1958, No. P. 180.

ومؤرخة ذو القعدة سنة ٥٤هـ / تشرين اول ـ ثاني سنة ٦٧٤م .

وسنشير الى هذا المرجع فيمابعد Nessana

(٥) Kraemer, **Nessana,** Vol. 3

No. 61, P. 182 (رجب ٥٥/اب ٦٧٥) .

No. 62, P. 184 (شوال ٥٥/تشرين اول ٦٧٥).

No. 63, P. 186 (نفس التاريخ)

No. 64, P. 189 (ربيع اول ٥٦/ شباط ٦٧٦)

No. 65, P. 192 (٥٦هـ/٦٧٥ - ٦٧٦م)

No. 66, P. 194 (ربيع اول ٥٧/ شباط ٦٧٧)

No. 67, P. 196 (٧٠/٦٨٩) .

(٦) البلاذري ، فتوح ص ٣٠٠ .

(٧) انظر فلهاوزن ، الدولة العربية وسقوطها ، ترجمة ابو ريدة ص ٢٧ ، ٣١ .

(٨) انظر : الجهشياري ، ص ٣١،٣٢،٣٣،٣٨،٤٠ .

(٩) ترتون ، اهل الذمة في الاسلام ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٧ .

(١٠) انظر ابن قيم الجوزية ، احكام ص ٢١٠ - ٢١٢ ، وانظر الخراعي ، تخريج الـــدلالات السمعية ص ٧٩٨ - ٧٩٩ .

(١١) انظر ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٧ - ١٢٨ ، ابن عبد الحكم ، سيرة ص - ١٦٧ ، الكندي ،كتاب الولاة والقضاء ، ص ــ٦٠ ، وانظر الدوري ، اليهود في المجتمع الاسلامي عبر التاريخص ٨٦ـ٨٧، ترتون ص ١٢٨ .

(١٢) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٥ .

(١٣) الدوري ، اليهود في المجتمع الاسلامي ص ٨٥ـ٨٦.

(١٤) ابن عبد الحكم ، سيرة ص ١٦٥ـ١٦٦ .

(١٥) ابو يوسف ، الخراج . ص ١٢٧ـ١٢٨ .

(١٦) الطبري ، تاريخ . ص ١٧١ـ١٧٥ .

(١٧) الطبري ، تاريخ جـ ٩ ص ١٧٢ ، المقريزي خطط جـ ٢ ص ٤٩٤ .

(١٨) الطبري ، تاريخ جـ ٩ص ١٧٤ . وعندما يتحدث اليعقوبي فن موضوع اللباس فانه لا يتحدث عـن منعهم من الوظائف تاريخ جـ ٢ ص ٤٨٧ .

(١٩) Becker, C. H. « Neue arabische Papyri des Aphroditofundes », **Der Lslam,** Bd. 2, P. 361

Bell, H. I. « Translations of the Greek Aphrodito Papcri in the British museum », **Der Islam,** Bd . 2, P. 270.

John Bishop of Nikiu, **The Chronicle of John Bishop of Nikiu**, Translated from Zotenbergs Ethiopic Text by R.H. Charles, Oxford 1916, P. 200-201 .

سفيروس بن المقفع ، تاريخ بطاركة الاسكندرية ، تحقيق سيبولد ، لبسالا ١٩٠٤، ص١٣٤.
حتى ان عبد العزيز استقدم معه كاتبا له من أهل الذمـــة هو يناس بن خمايا من أهل الرهـــا
انظر الجهشياري ، الوزراء ، ص ٣٤ .

(٢٠) Bell, « Tow official letters of the Arab period », **Journal of Egyptian Archaeology (JEA),** Vol. XII, P. 278; Bell, « The administration of Egypt under Umayyad Khalifs », **Byzantinische Zeitschrift (Byz. Z).** Vol. 28, P. 27,

Becker, « Arabische Papyri des Aphroditofundes » , **Zeitschrift fur Assyriologie und verwandte Gebiete (ZA).** Vol. XX, P.97.

(٢١) نقل حميد الله في الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة نصا عن البلاذري ، انساب الاشراف قسم ٥٨٥/٢ من مخطوط اسطنبول رواية غريبة في بابها ، وهي ان عمر بن الخطاب ارسل لواليه في الشام ان « ابعث الينا برومي يقيم حساب فرائضنا » ص ٥٢٠ رقم ٣٦٨/بت . ومن غير الممكن ان يكون عمر قد طلب منه ذميا لحساب الفرائض ، فهي شرعية محضة ولابد لحاسبها ان يكون مسلما عالما بها .

(٢٢) الجهشياري ، ص ٣٨ . ورواية الصولي لها نفس الدلالة فقد روى عن القحذمي « كان بالبصرة والكوفة ديوانان لاعطاء الجند والمقاتلة والذرية بكتاب بالعربية ، وديوان بالفارسية ، وبالشام ديوان بالعربية لمثل ذلك ، وديوان بالرومية » ادب الكاتب ، ص ١٩٢ .

(٢٣) الجهشياري ، ص ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٢ ، الطبري ، تاريخ ، جـ٦ ص١٨٠–١٨١.

(٢٤) الصولي ، ادب الكاتب ص ١٩٢ ، الجهشياري ص ٢٤، ٣١، ٣٢، ٤٠ .

(٢٥) الجهشياري ص ٢٧ ، ابن اوثال . انظر الطبري ، تاريخ ، جـ٥ ، ص ٢٢٧–٢٢٨ .

(٢٦) الجهشياري ، ص – ٢٦.

(٢٧) انظر الطبري ، تاريخ جـ٦ ص ١٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥٧ ، جـ ٧ ص ، ٩٦، ٩٧ ، ١٤٠، ٦٢٠.

(٢٨) الدوري ، النظم ص ١١٢ .

(٢٩) انظر :

Becker, **Papyri schott - Reinhardt I , Veroeffentlichung aus der Heidelberger papyrussammlung III.** Heidelberg 1906, Nr. 1,2,3,4,12.

وعددا كبيرا من الوثائق التي نشرها Bell في كتابه.

Greek Papyri in the British museum , Vol. 4, London

ونشر بعضها مترجما الى الانكليزية في مجلة **Der Islam** تحت عنوان :

Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British museum. Vol. 2,3,4,17.

(٣٠) انظر :

Grohmann, FWA, P. 130 ff.

Diem, « Philologisches Zu den arabischen Aphroditopapyri », **Der Islam,** Bd. 61, P. 261-262.

(٣١) Nöldeke, Th. « Zur Geschichte der Araber in I. Jahrh. d.H. aus syrischen Quelen » , **Zeitschrift der Deutschen morgenländischen Gesellschaft (ZDMG)** , Bd. 29 (1879), P. 69.

ونثبت هنا النص بالالمانية لاهميته :

« Er Prägte auch Gold-und Silbergeld, aber das nahm man nichtan, Weil Kein Kreuz darauf War».

(٣٢) البلاذري ، فتوح ص ٢٤٠ .

(٣٣) البلاذري ، فتوح ، ٤٦٦ – ٤٧٠ .وانظر النقشبندي ، الدرهم الاسلامي المضروب على الطـراز الساساني ، ص ٩٦،٦٢–١٠٠ .
حلاق ، تعريب النقود والدواوين في العصر الاموي ص ٢٢–٢٥ ، ٣٢–٣٥

(٣٤) النقشبندي ، الدرهم الاسلامي ، ص ٣٤ وما بعدها .

(٣٥) يمكن فهم التطور التدريجي في مسألة التعريب بناء على ما نلاحظه هذه الايام من سير عملية التعريب في الجزائر ، انها تسير منذ حوالي ربع قرن سيرا حثيثا ولم تكتمل بعد .

(٣٦) الجهشياري ، ص ٣٨ ، الصولي ، ادب الكاتب ١٩٢ ، الماوردي ، ص ٢٠٢–٢٠٣ .

(٣٧) الصولي ، ادب الكاتب ١٩٢ ، الجهشياري ص ٣٩

(٣٨) البلاذري ، فتوح ص ٣٠١ .

(٣٩) البلاذري ، فتوح ص٣٠٠ .

(٤٠) البلاذري ، فتوح ٣٠٠–٣٠١ ، الماوردي ، ص ٢٠٢–٢٠٣ .

(٤١) الجهشياري ، ص ٣٩.

(٤٢) انظر الطبري ، تاريخ جـ ٦ ص ٣٤٢ – ٣٥٠ .

(٤٣) المقريزي ، خطط ، جـ١ ، ص ٩٨.

(٤٤) البلاذري ، فتوح ٣٠١ .

(٤٥) البلاذري ، فتوح ص ١٩٣ ، الماوردي ص ٢٠٢ .

(٤٦) الجهشياري ، ص ٤٠ .

(٤٧) الصولي ١٩٢–١٩٣ .

(٤٨) الجهشياري ، ص ٤٧، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٨ ،٧٠.

(٤٩) الكندي، ص ٥٨ – ٥٩ ، وانظر المقريزي ، خطط ، جـ ١ ص ٣٠٥ .

(٥٠) ابن‌عبدالحكم،فتوح ص ١٢٢.

(٥١) سفيروس ، طبعة سيبولد ص ١٥٠ .

(٥٢) انظر على سبيل المثال :
Becker, **Papyri Schott-Reinhardlt,** ..., P. 108-113, Nr. a-L, P. 82-90, Nr. 5-9.

(٥٣) فقد اصدر Bell كتابا كاملا بالوثائق اليونانية هو :
Greek Papyri in the British museum, Vol . 4.

(٥٤) Bell, « Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British museum », **Der Islam** , Bd . 1,2,3,4,17.

(٥٥) Becker, **Papyri Schott - Reinhardt I,** ... Nr. 4,P. 78-79 .

(٥٦) Becker, **Papyri schott-Reinhardt I** ... Nr. 1,2,3, P. 58-77.

Diem, « Vier Dienstschreiben an ’Ammār, Ein Beitrag zur arabischen Papyrologie » (ZDMG) Bd . 133 (1984), P. 240, 242, 247-248 .
Diem, « Philologisches zu den arabischen Aphroditopapyri » . **Der Islam,** Bd. 61, P. 260-261 .

جروهمان ، اوراق البردي العربية .
جـ٣ ، ص ٣ـ٥ ، ٨ـ٩ ، ١٢ـ١٣ ، ١٥ـ١٧ ، ١٩ـ٢٠ ، ٢٣ـ٢٤ ، ٢٧ـ٢٨ ، ١٣٥وغيرها كثير.

(٥٧) Becker,**Beitäge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam,** Heft, I, Strassburg , 1903, P. 131,
Hussein, **Das Steuersystem in Aegypten**..., P. 114.

(٥٩) جروهمان ، اوراق البردي العربية ، جـ ٣ ص ٧٢ـ٧٩ رقم ١٦٧.

(٦٠) سفيروس ، طبعة سيبولد ص ٦ .

(٦١) Becker;**Beiträge zur Geschichte Aegyptens** ..., Heft. I, P. 131.

(٦٢) الجهشياري ، ص ٦٧.

(٦٣) المريزي ، خطط جـ١ ص ٩٨ .

(٦٤) انظر الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ١٤ .

المصادر والمراجع

المصادر البردية :

Becker, C.H.

— **Papyri Schott-Reinhardt I, Veroffentlichung aus der Heidelberger Papyrussammlung III,** Heidelberg 1906.

— Arabische Papyri des Aphroditofundes, **Zeitschrift fur Assyriologie U. Verw , Gebiete,** Bd . 20, 1907 (ZA) .

— Neue arabische Papyri des Aphroditofundes , **Der Islam, Bd. 2, 1911.**

Bell, H.I.

— « Two Official letters of the Arab period » **Journal of Egyptian Archaeology,** Vol. 12, 1926 (JEA).

— « Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British museum», **Der Islam,** Bd. 2,3,4,17 (1911, 1912. 1923, 1929) .

— **Greek Papyri in the British museum,**Catalogue with texts,Vol. 4, London 1899 - 1900 .

Diem, Werner

— « Der Gouverneur an den Pagarchen, Ein Verkannter Papyrus Vom Jahre 65 der Higra», **Der Islam** , Bd. 60, 1983.

— « Vier Dienstschreiben am 'Ammar, Ein Beitrag zurarabischen Papyrologie, » **Zeitschrift der Deutschen Morgenlaendischen Gesellschaft,** Bd. 133, 1984 (ZDMG) .

— Philololgisches Zuden arabischen Aphroditopapyri, **der Islam,** Bb. 61, 1984 .

Grohmann, Adolf

— **From the world of Arabic Papyri,** Al-Maaref Press, Cairo 1952,

جروهمان ، ادولف

أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية جـ٣ ترجمة حسن ابراهيم حسن مراجعة عبد الحميد حسن . دار الكتب ـ القاهرة ١٩٦٢ .

kraemer, Casper J.

Excavations at Nessana Voc. 3 Non - Literary Papyri. Princeton University Press 1958 .

المصادر التاريخية :

البلاذري ، احمد بن جابر بن يحيى ، فتوح البلدان (انظر ص١)

الجهشياري ، محمد بن عبدوس ، الوزراء والكتاب (انظر ص ١) .

الحيدر ابادي ، محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة دار النفائس . الطبعة الرابعة ـ بيروت ١٩٨٣ .

الخزاعي ،ابـ و الحسن علي بن محمد الخزاعي التلمساني (ت ٧٨٩)،تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله(صلى الله عليه وسلم) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية تحقيق احمد محمد ابو سلامة القاهرة ١٩٨٠ .

سفيروس بن المقفع اسقف الاشمونين ، تاريخ بطاركة الاسكندرية تحقيق ف.سيبولد نشر أوتو هاراسوفتس ١٩٠٤ .

الصولي، ابو بكر محمد بن يحيى ، ادب الكاتب (انظر ص١) .

الطبري ،محمدبنجرير.٣١٠هـ ،تاريخ الرسول والملوك ١٠ اجزاء تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٦ ـ ١٩٧٠ .

ابن عبد الحكم ـ عبد الرحمن ، فتوح مصر واخبارها (انظر ص١).

ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز تحقيق احمد عبيد الطبعة الثالثة . المطبعة الرحمانية القاهرة ١٩٦٤ .

ابن قيم الجوزية ـ ابو عبد الله محمد بن ابي بكر ت٧٥١ هـ ، احكام اهل الذمة ، جزءان تحقيق صبحي الصالح دمشق ١٩٦٣.

الكندي ، محمد بن يوسف ، كتاب الولاة وكتاب القضاة بمصر تحقيق رفن جيست، ليدن ـ لندن ١٩١٢.

المقريزي ، تقي الدين ابو العباس احمد بن علي ، الخطط المقريزية . جزءان . بولاق ـ القاهرة ١٢٧٠ / ١٨٥٣ .

الماوردي ، علي بن محمد حبيب ، الاحكام السلطانية والولايات المدينية (انظر ص ١) .

اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب بن واضح ت٢٧٨ هـ ، تاريخ اليعقوبي جزءان دار صادر ـ دار بيروت . بيروت ١٩٦٠ .

ابو يوسف ـ يعقوب بن ابراهيم ١٨٢ هـ ، الخراج ، دار المعرفة ،بيروت ١٩٧٩ اوفست عن طبعة بولاق ١٣٠٢ هـ .

John, Bishop of Nikiu

The Chronilcle of John Bishop of Nikiu. Transkated from Zotenbergs Ethiopic Text by R.H. Charles , Oxford 1916.

Nöldeke, Th

Zur Geschichte der Araber im I. Jahrh. d.H. aus syrischen Quellen, (ZDMG) Bd. 26, Leipzig, 1879 .

المراجع :

Becker, C.H.

Beiträge zur Geschichte Ägyptens unter dem Islam, Heft. I, Strassburg, 1903.

BELL, H. I.,

« The administration of Egypt under Umayyad Khalifs, »**Byzantinische Zeitschrift,** Bd. 28, 1928, (Byz.Z) .

ترتون ، أ.س ، أهل الذمة في الاسلام ترجمة حسن حبشي. الطبعة الثانية . دار المعارف القاهرة ١٩٦٧ .

حلاق ، حسان علي ، تعريب النقود والدواوين في العصر الاموي ، نشر دار الكتاب اللبناني ـ بيروت دار الكتاب المصري ـ القاهرة ١٩٧٨.

Hussein, Faleh

Das Steuersystem in Ägypten Von der arabischen Eroberung bis Zur Machtergreifung der Tuluniden 19 -254/636 - 868 mitbesonderer Berücksichtigung der Papyrusurkungen, Hos -3- hersg -Anton Schall, Verlag Peter Lang, Frankfurt/M- Bern 1982.

الدوري ، عبد العزيز ، النظم الاسلامية بغداد ١٩٥٠ . مقدمة في تاريخ صدر الاسلام . الطبعـة الثالثة : دار المشرق بيروت١٩٨٤ .

اليهود في المجتمع الاسلامي عبر التاريخ ، ضمن سلسلة مقالات في كتاب القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني والصادر عن اتحاد الجامعات العربية نشر جامعة الموصل ١٩٨٣ .

دينيت ، دانيال ، الجزية والاسلام ، ترجمة فوزي فهيم جاد الله ،مؤسسةفرانكلين ـ مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٠.

فلهاوزن ، يوليوس ، تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية ،ترجمة محمـد عبد الهادي ابو ريدة . سلسلة الالف كتاب (١٣٦) نشر لجنة التاليف والترجمة والنشر الطبعة الثانيـة القاهرة ١٩٦٨ .

النقشبندي ، ناصر ، الدرهم الاسلامي جـ١ الدرهم الاسلامي المضروب على الطراز الساسانـي. مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٦٩ .

الأدب في التّاريخ الآرامي القَديم

د . محمد حرب فرزات
جامعة دمشق

مقدمة :

أولا : إنه من الطبيعي الا يفهم من الادب في زمن الادب الارامي القديم ما يفهم منه في عصرنا ، فلا ينبغي لنا ان نبحث هنا عن الكاتب الملتزم بالعمل الادبي من أجل تحقيق انجاز فني رفيع ، لان مفهوم الادب في ذلك العصر كان يعني الثقافة العامة والتعليم ، فكلمة «إدُب» الاكدية ـ التي ربما جاءت منها كلمة أدب العربية ـ كانت تعني المكتبة والمدرسة « بيت الالواح » ، وما كان يسعى اليه الكاتب شپرا = Sapra هو أن يقدم بشكل جميل وجذاب العناصر الثقافية اللازمة التي تساعد على تكوين الكتاب الموظفين .

ولكن هذا لا يعني بالضرورة استبعاد الجمالية في الادب ، لكنه يبقى أدبا عمليا، من أجناسه كتابة الحوليات التاريخية(١) وأجناس أخرى كالرسائل والشعر والنثر والقصة والامثال وغير ذلك .. ولا بد أنه كان للكتاب الاراميين العاملين في دواوين القصور وفي خدمة المعابد فرص الاطلاع على الآداب المعاصرة والموروثة من الاكدية ومن المصرية والفينيقية ، وهذا ما يفسر لنا التشابه الكبير بين موضوعات الادب الارامي وموضوعات الآداب القديمة الشرقية الاخرى .

ثانيا : نعني بالادب الارامي القديم ما كتب بالارامية القديمة ، أي حتى ظهور المسيحية ونشوء الادب السرياني . ولا نعني بالادب الارامي كما يحب أن يرى بعض

الكتاب آداب آرام ، لانه وجدت في بلاد ارام (سورية القديمة) اداب أخرى غير ارامية كتبت بالاكدية المسمارية ، وبالاوجاريتية والكنعانية .

فهذا اذن بحث في ادب قديم ، بل انه بحث في تاريخ هذا الادب الارامي القديم ، نحاول فيه تقصي جذور **الحياة الادبية** في مرحلة قديمة من تاريخ سورية سبقت انتصار اللغة العربية وادابها وثقافتها ، ونسعى الى التوصل الى شواهد من ادب قوم من الاقوام العربية القديمة ، ومن الاعمال الادبية لاجيال عاشت على هذه الارض العربية وانشأت ثقافتها عليها وجعلت لغتها أهم لغة في تاريخ البلاد حتى اواسط القرن السابع للميلاد . واذا لم يمتد التاريخ الارامي السياسي أكثر من قرون معدودة وبخاصة مابين القرنين العاشر والثامن ق.م ، فان الثقافة والاداب التي احتوتها اللغة الارامية بلهجتها وعصورها المختلفة استمرت قرونا عديدة وامتد عمرها اكثر من الف وخمسمائة العام . ولئن تراجعت هذه اللغة منذ قرون عن دورها الاول في المنطقة امام تقدم اللغة العربية ، لغة الحضارة العربية التي استوعبت واحتوت ، عن طريق النقل والترجمة والتعريب والتفاعل الحضاري ، الثقافات المحلية السابقة للاسلام : الهلينية المتأخرة (البيزنطية) ، والفارسية والسريانية (في سورية وارض الرافدين) والقبطية (في مصر) والعبرية أيضا ، وغرفت من كل الثقافات القديمة ، فان هذه الثقافات بلغاتها الخاصة ، ومنها السريانية ، بقيت اداة من أدوات المعارف والاداب الى جانب العربية ايضا حتى تقاص دورها بالتدريج واقتصر اخيرا على التعليم الديني لمئات الالاف من الناس ، في سورية والرافدين والجزيرة وايران .

هذا من حيث موقع الادب الارامي على مدرج الزمن . لكن هناك ، في تصوري ، مسائل اخرى قد تطرحها ترسبات الارامية بكونها لغة وثقافة ، بمعناها الواسع ، في بحر الثقافة العربية الشاملة . وهذه المسائل قد يمكن تناولها من زاوية النظر اللغوية لمعرفة ما في العربية من الارامية(٢) . وهذا مما يدخل في ايامنا هذه في علوم اللسان . وقد يمكن تناولها من زاوية النظر في الاتصال الحضاري الثقافي في الوطن العربي . وهذا مما يدخل في ميدان تاريخ الادب والاداب المقارنة . وعلى سبيل المثال ربما يجوز الزعم باننا قد يمكن لنا ان نفهم المعرّي أكثر لو اننا تعرفنا على تراث لوقيانوس السميساطي صاحب « حوار الموتى » وربما يمكن للمؤرخ ان يتنبه الى امور فاته الانتباه اليها لو انه رجع الى ميخائيل السوري وابن العبري السرياني الى جانب رجوعه الى ابن الاثير وابن العديم وابن القلانسي عند البحث في احداث بعض الفترات الحرجة من التاريخ العربي .

بهذا الاعتبار يكون للبحث في الادب الارامي القديم بعض الجدوى والمؤدى ، في

الوقت الذي نرى فيه الى محاولات مغتصبي الارض العربية في فلسطين وهم يعملون على سلب التراث الشعبي والفني ويتطاولون ايضا على التراث الحضاري للمنطقة لينسبوه الى انفسهم ، وليدّعوه لتاريخ خاص بهم طالما ان هذا التراث مهمل من اصحابه متروك ومستنكر من اهله وأربابه .

لكن البحث في الادب الارامي القديم له **صعوباته** التي لابد للباحث من الاعتراف بها قبل التصدي لمواجهتها والعمل على محاولة تذليلها .. فخلافا لما هو معروف عن اللغات المصرية والسومرية والاكدية والاوجاريتية والحثية ، فان اللغة الارامية القديمة لم تترك لنا اثارا او نصوصا يمكن وصفها مباشرة بأنها نصوص ادبية ، باستثناء نص واحد هو نص احي يقر (أحيقار) ، الا انها كانت لغة الحياة اليومية العامة للمشرق القديم من الفرات الى النيل منذ الالف الاول ق.م.، واضحت لغة الادارة والتجارة في كل انحاء المملكة الكلدانية ، وفي الامبراطورية الفارسية لمدة قرنين ما بين القرنين السادس والرابع ق.م . قبل ان يقتحم الغرب الكلاسيكي ابواب وعواصم حضارات النيل والعاصي والاردن والفرات . هكذا اضحت لغة المغلوبين لغة الغالب . أما اهم النصوص الارامية التي تعود الى ما يدعى بارامية الامبراطورية ، فقد وجدت في مصر التي يمكن مناخها من حفظ الوثائق المنقوشة على النحاس او المكتوبة على لفائف البردي أو على كسرات الفخار ..

إننا من خلال هذه المصادر الباقية سنحاول القاء الضوء على بعض ملامح الادب الارامي القديم . ولكننا سنتحدث بايجاز عن الاراميين قبل ان نتحدث عن ادابهم ..

١ ـ من هم الاراميـون ؟

الآراميون هم من الاقوام العربية القديمة ، يرجعون بأصولهم الى قبائل بدوية عاشت وتنقلت في البادية العربية الشامية ، وبخاصة ما بين سلسلة الجبال التدمرية وجبل بشري ، قبل ان تستقر على أرض الرافدين وبلاد الشام في النصف الثاني من الالف الثاني ق.م..

على ان أهم ما كان يوحد هذه الاقوام ويربط فيما بينها على تعددها وتفرقها هو اللغة الآرامية بلهجاتها المختلفة التي تحتل في تاريخ اللغات العربية القديمة محلا وسيطا بين اللغة الاكادية ، أقدم لغة عربية مكتوبة ، وبين اللغة العربية . فهي لم تكن لغة لاجيال من الناس ولدول قامت ودالت على ارض الشام والرافدين وحسب ، بل كانت لغة حضارة وثقافة ، حتى تغلبت على العبرية وحلت محلها فاستخدمت لكتابة سفرين

اثنين من اسفار التوراة (دانيال وعزرا) ثم شروح التوراة والتلمود (الجمارا) ، واضحت لغة رسمية في دولة كبرى . وعندما ظهر السيد المسيح كانت الارامية لغــة الناس في فلسطين وسائر سورية فخاطبهم بها وحدثهم ووعظهم وعلمهم .

اما المصادر التي مكنت من اعادة تكوين التاريخ الارامي فهي متنوعة يمكن حصرها في ثلاث مجموعات :

أولا ـ اشارات الى الاراميين في أسفار العهد القديــم التي بقيت الى جانــب الاخبار المتواترة والمرويات في تقاليد المنطقة المصدر الاساس للتاريخ الارامي حتى ظهور نتائج التنقيبات الاثرية منذ اواخر القرن الماضي .

ثانيا ـ إشارات الى الاراميين في المصادر الاشورية والبابليــة ، يمكن الرجوع اليها في الحوليات ومجاميع الوثائق والنصوص المسمارية .

ثالثا ـ النقوش الارامية التي تعود الى مطلــع الالف الاول ق.م ، والوثائــق الارامية التي تعود الى النصف الثاني من الالف الاول .

وقد فتحت هذه المجموعة الاخيرة من المصادر ، وهي المصادر الارامية الاصيلة ، أبوابا جديدة لاعادة النظر في كل ما يخص التاريخ الارامي وتطور تاريخ المنطقة كله .

ويقر كاتب سفر التكوين بقدم الاراميين وسبقهم العبريين في الاستقرار والحضارة في مناطق الجزيرة (حرّان) ويشــير الى تحركات قبائلهم وعلاقاتهــم الاجتماعية ومصاهراتهم . واذا ما كانت الشكوك مطروحة حول اصول العبريين ومنشأهم قبل الخروج وبعده ، فان التوراة نفسها في سفر الخروج تعترف بمنشأ الاراميين العربــي من البادية العربية الشامية ، التي تحركوا منها فيما بعد نحو بلاد الشام(٣) كلها .

ويرد ذكر قبائل الاخلامو الارامية على الفرات لاول مرة في وثيقة بالاكدية مــن رسائل تل العمارنة في صعيد مصر تعود الى القرن الرابع عشر ق.م . ولكن بعد حوالي نصف قرن آخر نجد اثار هذه القبائل على ضفاف نهر دجلة .

اما **المصادر الاشورية** فتلاحق الاراميين بعد ذلك وتتحدث عن طردهم وتعقبهم الى منطقة الخابور وحوض الفرات الاوسط(٤) . وقد ورد ذكر الاراميين لاول مرة بعد ذلك في وثائق بالمسمارية الاشورية تعود الى حكم تكلات بلاصر الاول ملك اشور (١١١٦ـ ١٠٣٦) الذي يتباهى بتوجيه ثمانية وعشرين حملة ضد الاخلامو والاراميين على طول جبهة امتدت من الفرات الاوسط الى تدمر(٥) .

وعلى الرغم من هذه المقاومة الاشورية العنيفة للانتشار الارامي فقد نجحت القبائل الارامية منذ القرن الثاني عشر ق.م في تأسيس امارات وممالك ودول حول مراكز مهمة عديدة في سورية وبلاد الرافدين ، قامت بعدئذ بدور مهم جدا سياسيا وعسكريا واقتصاديا خلال النصف الاول للالف الاول ق.م ، فقد سيطر الاراميون على معظم البلاد السورية من الجزيرة الى العقبة ، واقاموا مملكة بيت عديني وعاصمتها تل برسيب (تل احمر) على ضفتي الفرات جنوبي كركميش (جرابلس) . أما في وادي الخابور فقد أنشأوا عددا من الامارات أهمها بيت بخياني التي حلت محل غوازنا الحثية حول تل حلف قرب رأس العين ، بينما سيطرت قبيلة التيمانيين ، التي ربما يعود أصلها الى تيماء في شمالي نجد ، على مناطق نصيبين وماردين وانتشرت حتى وصلت شمالا الى هضاب طور عابدين ، ثم توغلت قبائل ارامية اخرى غربا حتى وصلت الى سفوح جبال حمانو (امانوس) وسهول كيلكية واستقرت في شمأل (زنجرلي).

وقامت أهم مراكز الاستيطان الارامي في مناطق حلب حيث قامت اثنتان من أهم الممالك الارامية : بيت اجوشي في حوض نهر قويق ومقرها في أرفاد ، ومملكة حماة على العاصي . ولكن أهم نجاح للاراميين كان في استقرارهم في سورية الوسطى حول وادي البقاع وعلى سفوح جبال لبنان الشرقية . حيث تأسس عدد من الممالك والامارات الصغيرة في صوبة (عنجر) في البقاع الادنى وفي بيت رحوب وبيت معكة وجشور بين حوض الليطاني وينابيع الاردن عند بانياس وتل القاضي ، كما برزت مملكة دمشق عند واحة دمشق التي تمتاز بموقعها الفذ على حافة البادية العربية . وقد استطاع تحالف هذه الممالك الارامية الجنوبية بزعامة صوبة (عنجر) في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ان ينشىء اتحادا سياسيا عسكريا انضم اليه بعدئذ العمونيون وآراميو الفرات للوقوف بوجه توسع تحرك قبائل اخرى بقيادة الملك داود. ولكن المصادر التوراتية هي الوحيدة التي تحدثنا عن هذا الصراع ، ولما يعثر بعد على أية وثائق ارامية حول هذا الموضوع . ثم انتقلت زعامة العالم الارامي الى دمشق التي استطاعت بزعامة القائد رصين ان تقود كفاحا مريرا وطويلا لتوحيد البلاد سياسيا واقتصاديا حتى حققت اكبر قدر من النجاح بقيادة الملك حزائيل الذي امتد نفوذه الفعلي من الفرات شمالا الى العقبة وغزة جنوبا ، فاتحا طرق القوافل التجارية نحو مصر والحجاز .

وأمام هذا التقدم الآرامي في الجنوب كان التراجع في الشمال بعد انتصارات الاراميين المؤقتة ، حتى بدت آشور كأنها محاصرة من كل جانب ولم يعد لها منفذ على البحر بعد تحكم الآراميين بطرق المواصلات بين الفرات والبحر المتوسط . لقد دخلت آشور نتيجة لهذه التطورات في مرحلة من التقهقر والضعف بعد الازدهار والقوة اللتين

شهدتهما في النصف الاول من الالف الثاني ق.م ، عندما كانت طرق التجارة في المشرق العربي مفتوحة امام القوافل الآشورية نحو الاناضول او نحو وادي العاصي الاسفل. وفي خضم الصراع ، برز الجيش الاشوري كالعمود الفقري الـذي نهض به جسم المجتمع الآشوري امام التهديد الآرامي ، وظل هذا الجيش ذراع الثأر لاستعادة حدود البلاد وللتخلص من الفقر والبؤس عندما توقفت التحركات والهجرت وتعزز المجتمع الاشوري بالحكومة المركزية القوية ، في حين أخفق الآراميون في إنشاء مملكة مركزية، وان نجحوا احيانا ، حسب الظروف ، في اقامة اتحادات موقتة او أحلاف فيما بينهم للتصدي للحملات الاشورية المتكررة .

وعندما استفاقت آشور من غفوتها ونهضت مـن كبوتها نشـب ذلك الصراع الرهيب الدامي الطويل بين آشور وآرام ، وانتصرت آشور واحتوت بجناحيها العالم الآرامي بعد صراع استمر اربعة قرون(٦) . فقد تساقطت الممالك الآرامية الواحدة بعد الاخرى أمام ضربات الجيش الاشوري المتلاحقة : سقطت أرفاد في ٧٤٠ ق.م ثم سقطت دمشق ، الحصن الاخير للعالم الارامي وآخر الدول الارامية المستقلة في ٧٣٢ . وقـد تابع الزعماء الاراميون في بابل مقاومتهم لآشور ونجحوا في انشاء امـارات وممالك صغيرة ، كانت فعالة أحيانا لكي تحمل بعض عواهلها الى عرش بابل مثل مردوخ أپال إدّينا .. واخذ العالم الارامي يندمج في العالم الآشوري ليغدو هذا الاندماج في الدولة القائمة أقوى وأشد وضوحا في الدولة الكلدانية . لقد استمرت المجتمعات الاراميـة محتفظة بكياناتها وبهويتها الثقافية المتمثلة في لغتها في ظل الممالك الكبرى والـدول الفاتحة ، من الفرس الى الاسكندر والمملكة السلوقية حتى الرومان والبيزنطيين ، الى ان جاء العرب الفاتحون المحررون في القرن السابع الميلادي .

٢ ــ الادب الآرامي حتى القرن الخامس ق.م .

عندما ظهر هؤلاء الآراميون على مسرح الاحداث في المشرق القديم لم تكن لهـم لغةمكتوبة او أدب . كانوا في غالبيتهم قبائل بدوية، ومن المرجح أن الامراء الذين استقروا في مراكز الحكم الجديدة تبنوا اللغات السائدة في المناطق التي استقروا فيها ، فبقيت الاكدية الاشورية في بعض المناطق الشمالية واستخدمت الآرامية الى جانبها ، كمـا نلاحظ ذلك في نص تل فخيرية (القرن التاسع) المنقوش بالاشورية والاراميـة(٧) . بينما استخدمت الارامية الى جانب الكنعانية / الفينيقية في يعوديا / شمال . لكـن ما عتمت لغة الفاتحين المنتصرين حتى تطورت بسرعة واضحت لغـة الكتابة والادب والنقوش التذكارية .

كانت الآرامية هي اللغة التي حملها الفاتحون من موطنهم الاصلي ، من منازل قبائلهم في البادية العربية التي عاشوا فيها قرونا طويلة قبل استقرارهم .. وتنتمي هذه اللغة الى أسرة اللغات العربية القديمة السامية وهي لغات شعوب واقوام الجزيرة العربية شمالها وجنوبها وهي بالاساس الاكدية والكنعانية والارامية واخيرا العربية ، أقوى هذه اللغات واغناها ، والتي استوعبتها اخيرا واحتوتها . كان لهذه اللغة الارامية بفروعها المختلفة مقوماتها الاساسية في بيئتها الاصلية عندما كانت لغة أقوام بدوية ، لكنها تلقت مفردات لغات الحضارات المجاورة لها والمتعاملة معها كالاكدية والكنعانية والمصرية(٨) .

إن قدرة اللغة الارامية على الاستيعاب والنمو والتلقي جعلها لغة حية تطورت من لغة مجمع بدوي الى لغة مجتمعات مستقرة عاشت وتطورت وبقيت لغة الثقافة والتجارة والادارة والفكر والادب عهودا طويلة تقرب من ألفي عام ، الى أن اخذت تتراجع امام اللغة العربية التي حملت لواء الحضارة العربية المتجددةفي القرن السابع .

لقد عاشت الارامية طويلا خلال العصور القديمة لانها كانت قادرة على التلاؤم مع مقتضيات التطور الحضاري . ولقد برهنت هذه اللغة على قدرتها وعلىتوفر عناصر القوة فيها في انتصارها على لغات كانت حية قبلها كالاكدية والحثية ، ولقد اضحت الارامية لغة شعوب كثيرة غير آرامية بالاصل ؛ اضحت لسان الاشوريين والبابليين (الكلدانيين) والعبريين . كما استخدمتها شعوب فارسية قديمة وكتبت بها كتبها الدينية ..

ولا بد أن الآرامية كانت لغة مزدهرة في بلاط الملوك الذين رعوا الحياة الفكرية في قصورهم وعواصمهم ، كدمشق وأرفاد وحماة وشمأل . ولابد أنهم فعلوا كما فعل الآشوريون من معاصريهم فأمروا الكتاب بكتابة الحوليات الملكية والقصص والملاحم والاناشيد والحكم والامثال .

لقد بقيت **دمشق** مركز الثقل في العالم الارامي مدة تزيد على قرنين ، من القرن العاشر الى القرن الثامن قبل الميلاد ، أخضعت دولا كثيرة من كيليكية الى البادية ومن الفرات الى البحر المتوسط ومدت نفوذها الى غزة ، بوابة التجارة مع مصر ، والى العقبة ـ ايلة ، المحطة الهامة على طريق التجارة الى الحجاز واليمن ، وافتتحت اسواقا في مدن فلسطين الكبرى على الرغم من الكيانات الدينية المحلية لاسرائيل ويهوذا خلال القرن الثامن . فاذا كان حال آرام على هذه الدرجة من القوة السياسية والاقتصادية ولهم مثل هذه اللغة القوية الحية ، أليس يفترض ان يكون لهم في لغتهم ما يوازي في

الادب العبري المعاصر آداب الرواة اليهويين والايلوهيميين الموروثة عــن آداب مصر وكنعان .. وهل يعقل ان يظهر في العبرية ، وهي بصورة ما لهجة محلية كنعانيـــة ، حكماء وشعراء مثل عاموس واشعيا وغيرهما ، ولا يكون للآرامية شعراؤها وحكماؤها، وهي اللغة التي ورثت في موقعها الحثية والكنعانية والاكدية العمورية ، واضحت لغة مجتمعات ودول اكبر وأعظم وأقوام اكثر عددا واطول يدا رباعا ؟.

ويجيب الاستاذ أندره دوبون ـ سومر على مثل هذه التساؤلات بقوله : « اننا نعتقد ان اللغة الارامية عاشت عشرها الذهبي في القرون التي امتدت من القرن العاشر الى الثامن ق.م ، أي في العصر الذي بلغت فيه الدول الارامية اقصى قوتها(٩) » .

ولكن نصوص الادب الارامي القديم من تلك المرحلة المبكرة تلفت كلها وياللاسف، لان تلك النصوص كانت تكتب على اوراق البردي الذي لا يقدر على مقاومة عوامل الجو الرطب في سورية بينما بقي الكثير من البرديات في مصر لامكان الاحتفاظ بها طويلا في جو جاف كجو صعيد مصر .. ولقد لحق الادب الكنعاني الفينيفي ما أصاب الادب الارامي القديم ، ما عدا الادب الاوجاريتي الذي بقي منه ما نقش على الواح من الطين . وربمـــا كان من الممكن ان يكون مصير الادب العبري كذلك بعد قضاء الاشوريـــين على مملكـــة اسرائيل وقضاء الكلدانيين على مملكة يهوذا ، لولا حفظ هذا الادب في كتاب .. ذلك ان المجتمع اليهودي الذي عاد بعد السبي من بابل بمساعدة ملوك الفرس ، عمل بجهود حكمائه وكتابه على جمع نصوص التراث العبري التاريخي والديني والادبي في كتاب على يد النبي عزرا ، ثم قام الكتاب والخطاطون بنسخ النصوص المحفوظة جيلا بعـــد جيل ، ثم قاموا بشرحها ونسخها وحفظها بعيدا عن الاخطار كما في مكتبـــة طائفــــة الايسينيين الذين حفظوا مكتبتهم ، عند الخطر ، في مغاور وكهوف قمران على مقربـــة من البحر الميت بعد تصنيفها في ملفات ضمن جرار من الفخار(١٠) .

ولكن شيئا من هذا لم يحدث في العالم الارامي . فالدول الارامية سقطت امـــام التوسع الاشوري الواحدة بعد الاخرى ، وتقوضت اركانها بسقوط مملكة ارام دمشق عام ٧٣٢ ق.م ..ولم تقم للدول الارامية قائمة بعد ذلك . ولذا لم يشهد الادب الارامي القديم اي انبعاث واندمجت الحياة الثقافية للمجتمعات الارامية في حياة شـــعوب المنطقة ودولها في ظل اشور وبابل وامبراطورية فارس ، الى ان حدث التغير الثقافي الكبير باقتحام الحضارة اليونانية قلاع المشرق العربي مع الاسكندر .وبعـــد سقوط مراكز الثقافات القديمة نصبت على بوابات المشرق منارات للفكر اليوناني : انطاكيـــة واللاذقية وافاميا في سورية والاسكندرية وبيرنيقه في مصر ، واعقب ذلـــك الاجتياح الروماني الذي ضم العالم العربي القديم بقوة النار والقانون الروماني (قرطاجة وتدمر)

الى المحيط الثقافي الهليني ـ الروماني لامد طويل استمر حتى الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع .

لقد غرق التراث الارامي القديم وضاع في غياهب الزمن وان بقيت منه صور ونتف حملتها اداب العصور التي تلت في اداب الفرس واليونان .. ثم ترددت في الاداب السريانية . وهي اداب المجتمعات الارامية المسيحية في سورية والمشرق العربي القديم، أصداء الماضي وأخباره وقصصه وامثاله وأسماء اعلامه . ويعود الفضل الى علم الاثار في الكشف عن بعض اثار هذا الماضي ، وفي العثور على بعض النقوش ، وهي نصوص محفورة على الحجارة والانصاب التذكارية، في انحاء مختلفة من سورية: كيليكية وحلب والخابور وحماة ودمشق وغيرها .. مما يسمح للباحثين المختصين بتكوين فكرة واضحة عن اقدم عصور الادب الارامي ولغته وخطوطه .

لنقدم الان بعض الامثلة :

في اواخر القر التاسع اوائل القرن الثامن ق.م تمكن (زكر)(١١) ملك حماة ولعش (وهي منطقة في محافظتي ادلب وحلب الان) من صد تحالف قاده ضده ملك دمشق برهدد ، فأقام لتخليد ذكرى هذا الانتصار نصبا تذكاريا نقش عليه واحد من اقدم النصوص الارامية المعروفة . يرفع الملك يديه الى السماء مسبحا رب السموات (بعل شميين) شاكرا نعماءه على مساعدته في تخليص مقره في حزرك (ربما كانت اريحا) من حصار مميت ضربه حوله المهاجمون المتحالفون :

لنقرأ النص اولا بالارامية بعد ان نقلناه من مصادره الى الحرف العربي(١٢) .

٢ ـ أنه زكر ملك حمت ولعش . إش عني أنه [حصل

٣ ـ [ن] ي بعل شمين وقم عمي وهملكني بعل شم[ين ب]

٤ ـ [حـ] زرك وهو حد علي بر هدد بر حزئل ملك أرمـ

٥ ـ شة] عسر ملكين بحزرك ..

٦ ـ ـوشمو كل ملكيا إل مصر على حزر [ك]

٧ ـ وهرمو سر من سر حزرك وهعمقو حرص من حر[صه]

٨ ـ وإشي يدي إل بعل شمين ويعينني بعل شمين [ويومر].

٩ ـ [لي] بعل شمين إل تزحل كي انه همل[كتك] وانه أ

١٠ ـ قم عمك وانه احصلك من كل ملكيا ..

إن مقارنة بسيطة بين مفردات هذا النص وبين العربية توضح لنا بجـلاء مـدى التشابه في اللفظ والصرف مما يدعو الى استنتاج النتيجة المنطقية وهي اننا أمام لغـا من اللغات العربية القديمة .

هملكني : أملكني ، هي صيغة أفعل جعلني ملكا .

هوحد : وحد .

عهمقو : حفروا بعمق عمقوا ،

يعينني : يُعينني

إل تزحل : لا تزعل ، وزعل بالعربية الفصحى ، تألم وغضب .

انهِ أحصلك : انا احصلك ، الحق بك لاخلصك

أما اذا نقلنا النص الى العربية ، عربيتنا ، فيكون كما يلي:

أنا (زكر) ملك حماه ولعش إني انسان مُعنّى ،

خلصني رب السموات (بعل شميين) وقام معي ،

وجعلني بعل شميين ملكا على (حزرك) .

حينما وحد برهدد برحزئل ملك ارام ضدي ستة عشر ملكا ،

جاؤوا جميعا وضربوا الحصار حول حزرك ،

رفعوا سورا أعلى من سور حزرك ،

حفروا خندقا أعلى من خندقها ،

عندئذ رفعت يدي داعيا بل شميين ،

فأعانني بعل شميين ،

وكلمني بعل شميين بلسان العرافين والمنجمين ،

قال لي :

لا تزعل لانني انا الذي جعلك ملكا ،

وأنا اقوم معك .

أنا الذي يخلصك من كل هؤلاء الملوك الذين ضربوا الحصار على مدينتك .

نستطيع القول ان هذا النص لا يخلو بما فيه من تكرار وايقـاع وعمـق المشاعر

الدينية والعاطفية العميقة من نبرة شعرية تذكر برثاء المدن والبكاء على اطلالها في الادب العبري التوراتي فيما بعد .

لنعرض الان مثالا آخر :

انه نص مختلف تماما ، منقوش على الحجر ومعروف انه نصب من أنصاب سفيرة(١٢) الواقعة الى الجنوب الشرقي من حلب ، وهو مقطع من نص عهد عقد بين ملك أرفاد متع ال بن عتر سماك وبرجايه ملك كتك . وقد جعلت الارباب شهودا لتوثيق العهد وصبت اللعنات على من يجترىء على نقضه او على الحنث باليمين.

« واذا ما نقض متع ال بن عتر سماك ملك أرفاد العهد لبرجايه ملك كتك :

واذا مانقض أحد من عقب متع إل العهد لاحد من عقب برجايه ملك كتك ..

لتلقح سبعة كباش نعجة فلا تحمل .

ولتمسح سبع مرضعات حلمات اثدائهن وليرضعن رضيعا فلا يشبعنه .

ولترضع سبع أفراس مهرا فلا تشبعنه .

ولترضع سبع بقرات عجلا فلا تشبعنه ..

ولترضع سبع نعاج حملا فلا تشبعنه .

ولئن خان متع إل برجايه وابنه وعقبه فلتكن مملكته مملكة قائمة على الرمال ومملكة كأطفاث احلام تنطفىء كما تخمد جذوة النار .

ولينشر الرب هدد فوق أرفاد كل ما على الارض وما في السماء من شر ولينشر فوقها كل ما عنده من آلام .

وليرمها بما عنده من برد كالحجارة .

وليلتهم الجراد زرعها سبع سنين ،

وليأكل الدود ثمرها سبع سنين ..

وليعم القحط فيها فلا نبت عليها عشب .

ولا ظهرت على وجه ارضها خضرة .

وليصمت في ارفاد صوت القيثارة .

وليسمع في أهلها صراخ المرضى وانينهم ،

وعويل الفوثى ومراثي الموتى وشكاوى المعوزين ،

ولتستحل ارض ارفاد الى صحراء وبنيانها الى كوم من الانقاض ..

الا تتضح من هذا النص روح العصر المتسم بالتشاؤم والذعر والخـوف مـن المستقبل ؟ الا يذكرنا بمواعظ النبي اشعيـا التي كتبت بعده وبخاصة ما يـــرد في الاصحاحين الخامس والثاني والثلاثين ، عن تنبؤاته بمصير مدن فلسطين ..

وفي نص اخر من أواسط القرن الثامن يتحدث الملك برركـوب(١٤) عــن ذكرى أبيه بانامو ومآثره في مملكته الواقعة على سفوح جبال الامانوس وكانـت تمتـد على اراضي كيليكية والاسكندرونة :

« القمح والشعير والنعاج والابقار كلها كانت وفيرة في أيامه ،

عندما أكل أهل يأدي (شمأل) وشربوا .. كان ابي ملكا قديرا بين الملوك ، كانت له أراض شاسعة وعربات حربية ،

كان مالكا للفضة والذهب ..»

ثم يتحدث برركوب عن علاقة شمأل بمملكة اشور وولائه لها . ويبدو هذا النص وكأنه صفحة من صفحات الحوليات التاريخية الرسمية ويرتفع الاسلوب الادبي بـه احيانا بما فيه من مبالغة وتصوير واقعي للبطولة والانتصار الى مستوى الملحمة .

ويبرز هذا الانطباع بدرجة اشد عندما يتحدث برركوب عن نفسه وعن منجزاته في نص اخر(١٥) لايخلو من بلاغة ومسحة ادبية ..

وفيما يلي مقتطفات من هذا النص :

« انا برركوب بن پانامو ملك شمأل ..

بصدق ابي وبصدقي اجلسني الرب ركب ال بتايد سيدي تكلاث بلاصر علـى كرسي ابي ..

وعمل بيت ابي اكثر مما عمل اي بيت آخر .

وقبضت على زمام الامر في بيت ابي وجعلته مزدهرا اكثر من اي بيت من بيوت الملوك الاقوياء .

وغبطني أقراني من الملوك على ما أحرزه بيتي من الازدهار ،

واخواني من ملوك سمأل لم يكن لهم قصر جميل كقصري ..

كان لهم قصر كيلامو . .
كان لهم قصر الشتاء وكان لهم قصر الصيف .
لكنني انابنيت هذا القصر » .

بعد عرض هذه النماذج من الكتابات الارامية من بعض ما تبقى من اثار قديمة ، يمكن لنا ان نتتبع تطور اللغة الارامية فنلاحظ ما احرزته هذه اللغة من درجة عالية من النضج بكونها لغة للكتابة وللادب حتى استطاعت ان تعيش وان تستمر على البقاء بعد سقوط الدول الارامية في اواخر القرن الثامن حتى انها فرضت نفسها على فاتحيها المتعاقبين .. .

فبعد ان كانت الدول الارامية تستخدم الاكدية الاشورية الى جانب الارامية في القرن التاسع ، كما يبرهن على ذلك نص ادد يسعي(١٦) ملك جوزانا المكتشف في تل حلف على الخابور .. ، نجد اتجاها لاستخدام الادارة الاشورية نفسها للارامية الى جانب اللغة الاشورية .. وهذا ما يؤكد ان الدولة الاشوريةفي عهد الامبراطورية الحديثة لم تعد منذ اواسط القرن الثامن دولة احادية الهوية ، بل اضحت دولة ثنائية الهوية، اشورية ـ ارامية(١٧) . ..الى ان غدت الارامية وحدها لغة المجتمع الاشوري في القرون اللاحقة .

فالاراميون على الرغم من هزيمتهم العسكرية ، ومن سقوطهم سياسيا وتقوض أركان دولهم المستقلة ، لم يختفوا عن مسرح التاريخ في المشرق القديم ، لان السياسة التي اتبعها ملوك اشور في نقل السكان من اجل اخماد المقاومة والقضاء على الثورات الناشبة ضدهم كانت سياسة ذات حدين ، لانها ادت الى نقل افواج عديدة من الاراميين الى قلب نينوى وآشور ، حيث عاش الآراميون مع الاشوريين جنبا الى جنب وقامت بين الطرفين اوثق الصلات وامتن العلاقات وبخاصة في ميدان التجارة . واذا ما كان الامر كذلك فهل يستغرب العثور على اعداد وفيرة من الوثائق الاقتصادية ممهورة بالآرامية الى جانب الاشورية المسمارية في القرن السابع(١٨) . .

اننا لنرى ان لهذه الظاهرة دلالتها التي نحاول أن نتتبعها فيما يلي :

لقد تلاقى على ارض سورية نظامان للكتابة : نظام الكتابة المسمارية، ونظام الكتابة الابجدية . وفي حين تقدمت المسمارية الى سورية في الالفين الثالث والثاني ق.م(ماري وابلا والالاخ . .) حتى تطورت المقطعية الى المسمارية الابجدية في اوجاريت حيث توقفت بنهاية المدينة ، تقدمت الابجدية الجبيلية واضحت نظام الكتابة للكنعانية الفينيقية ثم

الآرامية . لقد اخذت الارامية تزاحم الاكدية البابلية الآشورية حتى احتلت محلهـا لانها كانت لغة عملية وكتابتها بسيطة . وكان الانتقال من استخدام الكتابة المسمارية ، بعلاماتها التي تعد بالمئات ، الى الابجدية المؤلفة من بضعة وعشرين حرفا ، من أعظـم المراحل الفاصلة في تاريخ الفكر والحضارة . لهذا اضحت الكتابة الارامية هي المفضلة عند رجال الاعمال والتجار والموظفين وغيرهم ، الذين وجـدوا فيها الاداة المثاليـــة للتسجيل والتوثيق ، فتقدمت الى موقعها الجديد لتقف جنبا الى جنب مع الاكديـة والمسمارية لا لكتابة النصوص الاقتصادية وحسب بل لكتابة نصوص تاريخية ونذرية:

من النصوص الارامية التي تقدم لنا صورة عن لغة ذلك العصر (الكلداني) هذا النص من نقش جنزي عثر عليه في نيرب(١٩) عند مدخل من مداخل حلب ، من القرن السادس ق.م . يقول :

« سين أجبر ، (سين يحمي) كاهن شهر (القمر) في نيرب . هاهي صورتي ،
لصدقي قبله أسماني اسما طيبا وأطال ايام حياتي .
يوم موتي لم يحرم فمي من الكلام ،
وبعيني كنت ارى بجلاء ،
وبكاني أولاد من الجيل الرابع من أحفادي ، ونحبوا بدمع سخين ،
لكنهم لم يدفنوا معي أشياء من الفضة او من النحاس ،
بملابسي وحدها أرقدوني ، حتى لا ينبش احد فيما بعد قبري ..
ولتكن من تكون ، ان أسأت الي او تسببت في ما يؤذيني ..
فليمتك شهر ونكال ونسكو اشنع ميتة .
ولتهلك ذريتك » .

كان اكبر تغيير في العصر الكلداني تقدم اللغة الارامية لا في بابل وحدها بل في كل انحاء المملكة البابلية الحديثة الكلدانية التي غلب فيها الاراميون ودخلت ارض الرافدين والشام قبائل عربية كثيرة باعداد كثيفة .

ولقد عثر بين انقاض بابل على حجارة تاسيسية من زمن نبوخذ نصر الملك الفاتح البابلي والمصلح ، تحمل كتابة مزدوجة بخط مسماري وبخط ارامي . ففي ذلك العصر اضحت الارامية لغة الدبلوماسية في كل الشرق العربي بعد الاكدية ـ البابلية ، واخذت

تتطور لتصبح لغة دولية بل لغة عامة للمشرق العربي القديم كله وهو دور لم تصل اليه لا اللغة المصرية ولا الفينيقية .. فقد وجدت وثيقة هامة هي رسالة دبلوماسية ارسلها احد ملوك الفينيقيين الى فرعون مصر ، ومعنى هذا ان كتابا يتقنون الارامية كانوا يعملون في البلاط الفينيقي كما كان يوجد في البلاط المصري الفرعوني كتاب اراميون . وهكذا ورثت الارامية دور الاكدية لتكون لغة التفاهم والخطاب العامة ولتحتل المركز الاول بين لغات المنطقة ، ولتحتفظ بهذا الدور قرونا الى ان حلت العربية في هذا الدور .

وعندما استولى قوروش ملك فارس على بابل واسقط الامبراطورية البابلية .. بقيت اللغة الارامية المظهر الباقي من التراث الحضاري السابق ، وفرضت لغة بابل وحلب ودمشق نفسها لغة للامبراطورية(٢٠) الشاملة الفارسية الاخيمنية ، لغة لمملكة عظمى امتدت من برقة ووادي النيل والمتوسط الى السند والهند وشملت شعوبا واقواما مختلفة الالسنة متعددة اللغات ، كانت الدولة بحاجة الى لغة تسهل التعامل فيما بينها وبين هذه الشعوب ، والاتصال بين الولايات في التجارة والادارة. هكذا كانت الارامية وهي الاكثر انتشارا بين كل لغات الامبراطورية هي المؤهلة للقيام بهذا الدور. ولم يكن بوسع لغة اخرى منافستها . وقد لخص الاستاذ أندره كاكو في محاضرته الافتتاحية في الكوليج دوفرانس(٢١) الوضع اللغوي والثقافي في المشرق العربي خلال تلك المرحلة من الالف الاول ق.م موجزا بمقولة خطيرة مفادها انه « بينما حمل الكنعانيون الفينيقيون لغتهم وحضارتهم الى المغرب واسبانيا وجعل الاراميون من لغتهم امبراطورية ظلت العبرية لغة كانتون محدود » ..

ان هذه الآرامية التي انتشرت منذ القرن الخامس ق.م ، **آرامية الامبراطورية،** تركت وثائق متنوعة عثر عليها في بابل وآسية الصغرى وشمال جزيرة العرب وفي فلسطين ومصر .. وأهم هذه الوثائق وأوفرها عددا هي التي عثر عليها في مصر ومنها مجموعة من الرسائل الادارية التي وجهها الحاكم الفارسي (ارسام) من سوزا وبابل الى كبار الموظفين في مصر باللغة الآرامية(٢٢) .

أما ينبغي قوله بالحاح فهو أن لغة هذه الوثائق في كل هذه المناطق ومن أي بلد اتت **تمثل وحدة لغوية واضحة ، وحدة لم تعرفها المنطقة من قبل بهذه الدرجة من الاتساع والشمول** .. ذلك ان وجود حكومة مركزية ساعد على تأييد استخدام لغة واحدة . كانت الدولة تعد الكتاب (الكاتب = سفرا بالآرامية) الذين يتخرجون في مدارس لها نظام واحد ومنهج تعليمي موحد ، وتفرض في كل ولايات الدولة اسلوبا في الانشاء والتعبير يستند الى قواعد نحوية واملائية موحدة .

حتى ان جاليات يهودية وجدت في تلك الفترة في مصر استخدمت الآرامية في مكاتباتها ومراسلاتها . ويؤكد الاستاذ أندره دوبون ـ سومر ان لغة الوثائق التي عثر عليها في ملفات البردي والخاف في فيلة عند أسوان والتي تعود الى القرنين السادس والخامس ق.م ، انما هي الآرامية ، ولا يوجد أي أثـر للعبرية(٢٢) في لغة هـذه النصوص .

ومن هذه النصوص ، الرسالة التي وجهها احبار واعيان الجالية اليهودية الى الادارة الفارسية في فلسـطين(٢٣)م وجواب الادارة عليهـا بشأن ما اصـاب المعبـد اليهودي في فيلة الواقعة في صعيد مصر . وجاء في الشكوى ان المصريين اغتنموا فرصة غياب الحاكم الفارسي ارسام ، فاستمالوا الى جانب الموظفين الفرس وهاجموا اليهود وقبلوا المعبد اليهودي في فيله راسا على عقب . ويطالب مقدمو العريضة بالتعويض . ويعتبر الباحثون هذه الرسالة نموذجا ممتازا للنثر الارامي في العصر الفارسي . ولكنها من وجهة نظر المؤرخ تعتبر وثيقة هامة تعكس موقف المجتمع المصري من اليهودية وهو موقف لا يتفق ابدا مع موقف هذا المجتمع من عقائـد المجتمع الارامي المقيم في اسوان وهرموبوليس ومنفيس .

وفيما يلي الترجمة العربية للرسالة التي وجهها بالارامية أحبار واعيان الجالية اليهودية الى الادارة الفارسية في فلسطين .

« الى مولانا باجوهي حاكم اليهودية من عبيدك يدونيا (عطا الله) ورفاقه احبار كنيس فيلة .

عليك سلام ربنا ، وليحطك اله السماء بمزيد من عِنايته الكريمة ابدا . وليرفع قدرك عند الملك . أطال الاله حياتك ! ولتشملك السعادة والمسرة دائما ! وبعد . يعرض يدونيا ورفاقه ما يلي :

في شهر تموز من العام ١٤ للملك داريوس ، عندما غادر الحاكم أرسـام ليحظى بمقابلة الملك تآمر كهنة الرب خنوب (خنوم) في حصن فيله مع فيدرانج الـذي كان حاكما هنا ، وقالوا « يجب ان يزال من هنا معبد الاله يهو في حصن فيلة » . عندئذ فيدرانج المجرم ارسل رسالةالى ابنه نفايان الذي كان قائد حامية في حصن اسـوان تتضمن مايلي : « ليهدم المعبد في حصن فيلة ! » عندئذ قام نفايان بقيادة جماعة مـن المصريين مع الجنود والمساعدين . وصلوا الى حصن فيلة بأسلحتهم . وهدموا المعبـد وسـووه بالارض وحطمـوا اعمدتـه الحجرية ، وخمس بوابـات حجريـة مـن

الحجر المقطوع وبواباتها الخشبية الشعرية المتينة المصفحة بالصفر (البرونز) والسقف المبني بخشب الارز . كل هذا مع اشياء اخرى مما كان في المكان جعل طعما للنيران. أما الاواني الذهبية والفضية والاشياء الاخرى التي كانت في المعبد فقد أخذوها واستملكوها .

انه منذ ايام ملوك مصر بنى اجدادنا هذا المعبد في حصن فيلة . وعندما دخل قمبيز الى مصر وجد هذا المعبد عامرا . وقد دمرت كل معابد الهة مصر . ولكن احدا لم يجرؤ على تسبيب ادنى اذى لهذا المعبد .

وعندما حدث ما حدث ، فاننا مع نسائنا واطفالنا لبسنا أثوابنا الخشنة ووضع كل منا نفسه في كيسه ، وصحنا وتوجهنا بالدعاء الى يهو رب السماء .

والان ، خدامك يدونياه ورفاقه وكل يهود فيلة يقولون مايلي : اذا اراد سيدنا فليفكر بهذا المعبد ليعاد بناؤه ، لانهم لا يدعوننا نعيد بناءه . انظر الى اصدقائك والى محظييك الموجودين هنا في مصر ! لترسل اليهم رسالة بشأن معبد يهو هذا تامرهم فيها باعادة بنائه كما كان من قبل ! وعندئذ ستقدم الاضاحي والنجور والمحارق على مذبح الاله يهو باسمك ! ونصلي لاجلك الى الابد نحن ونساؤنا واطفالنا هنا ..

في ٢٠ من شهر مرحسوان من العام ١٧ للملك داريوس .» .

٣ ـ قصة احيقار وحكمته ، موضوع القصة وأصولها الاولى :

اما أهم عمل أدبي حقيقي معروف حتى الان بالارامية القديمة ، أي قبل المسيحية، فهو قصة أحي يقر (أحيقار)(٢٤) ، الشخصية الارامية البارزة في الدولة الاشورية . فما هو موضوع هذه القصة وما هو أصلها ؟ موضوع القصة قديم ومتكرر في آداب الشرق الادنى القديم ، يدور حول تكريم بطل القصة المخلص للملك والدولة ومكافاته على قيامه باعمال باهرة . وهو يذكرنا بقصة سنو حي في مصر (٢٥) التي تعود الى الالف الثاني ق.م. اما القصة الاشورية الارامية فتعود الى القرن السابع . ويعتبر النص الارامي الذي عثر عليه في جزيرة فيلة ، هو الاقدم لكنه غير تام وتنقصه أجزاء كثيرة، وهو يعكس الاصل المسماري ـ الاشوري كما يؤكد غرولو(٢٦) . ويستند ليو اوبنهايم الى دراسة نشرها فان دايك لرقيم مسماري لتأييد الحقيقة التاريخية لشخصية احيقار(٢٧) وان نسجت حولها خيوط صورة اسطورية، وهو أمر مألوف في الادب الرافدي كما في ملحمة جلجاميش وقصة اداپا(٢٨) . ملحمة

جلجامش معروفة ، اما ادابا فهو بطل قصة رافدية باسمه خلاصتها انه رجل هو من الراحلين الفانين مثل جلجامش ، لكنه من اصل الهي كأبطال الاساطير الاغريقية .. وكما اضحى جلجامش رمزا خالدا بين الفانين ، أضحى أدابا احكم الحكماء بين الناس .

عثر على قصة ادابا في لوح مسماري كان يستخدم لتعليم الاكدية المسمارية للكتاب في مصر في عصر العمارنة (من أواسط الالف الثاني ق.م) وقد عثر على نتف منها في ألواح مكسورة من مكتبة آشور بانيبال (من أواخر القرن السابع ق.م) ..

تقول القصة ، قصة أدابا التي يحتمل ان تكون اساس قصة احي يقر ، انه عندما كسر ادابا حارس مدينة اريدو المتمتع بحماية إيا ، الرياح القادمة من الجنوب التي حولت اتجاه مركب الصيد الذي كان يقوده ، دعي للمثول أمام الرب آنو رب السماء للدفاع عن نفسه لاقترافه جريمته ..

نصح إيا أدابا بان لا يتناول طعاما او شرابا يقدم اليه في السماء لان إيا يعرف ان لدى الآلهة طعاما يؤدي الى الموت والفناء . لانعرف نهاية قصة أدابا لكن يعرف من تقاليد العقائد السومرية ان الاله آنو (رب السماء) أكرمه وتلاميذه السحرة في اريدو فاعطوا قوة خارقة لمقاومة المرض والاشباح فاضحى ادابا الساحر الاكبر (اشيبو) بين السحرة الكبار (أبكالو) .اما الصيغ السحرية المنسوبة الى ممثلي هذه القوى الالهية فقد صارت تكتب بعدئذ على شكل تمائم تعلق في البيوت لحمايتها من الارواح الشريرة .

فمن العودة الى هذه الاصول تتبين لنا مع اريكا رينر E. Reiner الجذور العميقة لقصة احيقار الحكيم وتتضح صورة الوزير الارامي ومغزى تجربته . ومن هــذه النصوص المسمارية يفهم انه في زمن الملك اسرحدون ملك آشور وجدت في البلاط شخصية باسم أبا ـ انليل ـ داري ، والاحلامو الآراميون يسمونه أخواقر . فالاصل الارامي لاخي يقر واضح ومؤكد لكنه اضطر الى اتخاذ اسم أشوري لتسهيل دخوله في البلاط الاشوري . أما اصل موضوع القصة فهو سومري أكدي .. ثم اضحت شخصية الرجل محورا لقصة واحداث وحكم زيدت اليه والحقت به عبر العصور حتى وصلت اصداء شهرته الى الغرب عن طريق العالم الهليني باسم ايسوب ، وهو مؤلف خرافات باللغة اليونانية من اصل فريجي من آسية الصغرى عاش في القرن السادس ق.م . ويرجع الدارسون قصته وحكمته الى اصول مشرقية تتصل بقصة أخي يقر (احيقار) وحكمته .. وما من شك في ان خرافات ايسوب المقتبسة عن أخي يقر هي مما أوحى بخرافات لافونتين المعروفة في الادب الفرنسي ..

لنسمع هذه الحكاية من أحيقر : يصادف فهد عنزة وهي ترتجف من البرد فيقول لها : تعالي اغطيك بجلدي . تجيب العنزة : لماذا انا يا سيدي ! لا تأخذ مني جلدي لانه ليس من المألوف ان تحيي الفهود الظباء الا لكي تلعق دمها !.

أليس في مثل هذه الحكاية القصيرة وامثالها بذور كليلة ودمنة .. وخرافات لافونتين ؟.

وكان مؤلف الخرافات الاغريقي **بابريوس** Babrius قد نظم كثيرا من خرافات ايسوب في القرن الثاني الميلادي، وكتب وهو يتذكر اصولها القديمة قائلا : ان الخرافة هي من عمل السوريين الذين كانوا يعيشون تحت حكم نينوس (أي نينوى) وبعل (المعبود آنذاك) لكن أول من رواها للهلينيين هو إيسوب الحكيم .

ففي هذه الاشارة ما يدل على الاصول الاكدية الاشورية لقصة أحيقر التي نقلت الى اللغة الارامية ، وهي اللغة التي اضحت من اللغات العالمية عندما انتشرت منذ العصر الفارسي من الهند الى المتوسط .

ثم في تاريخ الادب الكلاسيكي يذكر ان الكاتب اللاتيني فيدر Phédre (القرن الاول م) هو الذي ادخل خرافات ايسوبيوس الى الادب اللاتيني الروماني بعد ادخال كثير من التعديل عليها وتحميلها معان وتعاليم تربوية أخلاقية .

ويشير الاستاذ دوبون ـ سومر(٢٩) أخيرا الى انه في قصة أحيقر كما سردها ماكسيم بلانود في العصور الوسطى يضحي نادين في القصة انو والملك سنحريب ليكروس . ولكن على الرغم من التغيير الطفيف فان العودة الى اصول القصة تبرز الاساس الاكدي الارامي لعمل الكاتب الاغريقي إيسوب .

إننا نستطيع ان نأخذ فكرة عن هذا الاثر الادبي الآرامي ولكن من المستحيل حتى الان اعادة تكوين الاثر كما كان في روعته الاولى لما لحقه من تحريف وتغيير وتعديل بانتقاله الى لغات اخرى سوى اليونانية واللاتينية ، اذ نجد صدى القصة في سفر طوبيا ثم بطبيعة الحال في السريانية وريثة الارامية القديمة .

٤ ــ خلاصة قصة احيقار(٣٠) :

كان احيقار رجلا حكيما وفاضلا من حكماء الاراميين .. لم يكن له ولد، وكان نادين ابن اخته فحدث نفسه قائلا : « سأتخذ ولدا » . كان الحكيم مستشار ملك اشور سن اخي ايبا = سنحريب ثم أشور أخي إدّينا = اسرحدون .

يتحدث أحيقار عن نادين مرددا ما في نفسه : « ها انني رجل شيخ ، فمن سيكون لي ولدا ليكون من بعدي كاتبا وحاملا لاختام الملك أسرحدون ملك أشور كما كنت أنا للملك سنحريب أبيه ملك اشور ؟» .

يجيب بنفسه قائلا :

« بعدئذ ، انا أحيقار اتخذت نادين ابن اختي ولدا .. ربيته وعلمتـه واغـدقت الاحسان عليه ، رافقته الى باب القصر وأوصلته الى الملك ليمثل امامه وهو بين أفراد حاشيته .. قدمته لاسر حدون ملك اشور . اختبره الملك بأسئلة عن الحكمة فأجاب عن كل ما سئل عنه . أحبه اسرحدون ملك اشور ورضى عنه وقال : « لتعمر حياة الكاتب الحكيم مستشار اشور كلها الذي اوصل ابنه ، بل ليس ابنه هو ، ابن اخته . .» . يضيع حديث احيقار المباشر بعد ذلك لكن قصة أحيقار رممت من مصادر سريانيــة لتواترها فيها كما يلي :

لقد استطاع الوزير الشيخ اقناع الملك بخلافة ابنه المتنبى نادين له في مهامـــه متعهدا بتعليمه حكمته وتجربته وخبرته .. وهنا تاتي الحكم والاقوال التي فاه بها أحي يقر ، وسنعرض امثلة منها فيما بعد ، اما تتمة القصة فهي كما يلي :

« ما ان استقر نادين الشاب في منصبه حتى خان أباه الطيب ، فوشـى بـــه عند الملك بتهم مختلفة اغضبت الملك الذي امر بقتله .. لكن الضابط الجلاد نابوسوم ــ يسكن ، الذي كان احي يقر ولي نعمته ، وفر حياة الحكيم البرىء واعدم بدلا عنه مجرما كان يحتفظ به في السجن . ندم الملك بعد ذلك على تسرعه ، وكان بحاجة الى عقـل أحي يقر وحكمته لايجاد مخرج من موقف حرج وضعه فيه فرعـون مصر . اعترف الجلاد عندئذ بخدعته فأحضر احي يقر للمثول امـام الملك ، وبفضله اسـتطاع الملك الاشوري أن يرد على تحدي الملك المصري بمسائل سأله عنها وان ينتصر . اما ناديــن الناكر للجميل فقد القي في غياهب السجن وبقي فيه الى ان مات ».

موضوع القصة هو كما نرى العقاب العادل للجاحد الناكر للجميل ، والخاتمة الطيبة والاكرام والاجلال للعالم المخلص الحكيم .

وقد الحقت بالحكاية مجموعة من الحكم وجهها احي يقر الى نادين ليعلمه قبل ان يخلفه ، ثم ليؤنبه بعد انكشاف أمره وسقوطه .

٥ ـ حكمة احيقار(٢١)

هذه بعض حكم وأقوال أحي يقر المأثورة ، ومنها ماترك ولا شك اثره في آداب الامم ،

وبخاصـة في الادب التوراتي ، وفي الحكايـات والخرافـات التي ان نقلت الى آداب شعوب البحر المتوسط ، ونستطيع ان نسمع ترداد اصدائها في أدبنا العربي وفي تراثه الغزير من الامثال والحكم والاقوال المأثورة .

في **التربية** يقول :

« لا توفر على ابنك ضرب العصا ، فانك لن تستطيع بدونها ان تقيه من الشر» .

« إن ضربتك يا بني فلن تموت ، ولكنني ان تركتك على هواك فلن تعيش » .

اليس هذا ما نجده في سفر الامثال (٢٣ : ١٢–١٤) : « وجه قلبك الى الادب واذنيك الى كلمات المعرفة . لا تمنع التأديب عن الولد . لانك ان ضربته بعصا لايموت. تضربه أنت بعصا فتنقذ نفسه من الهاوية » .

وفي **آداب الكلام** يوصي بحسن الاستماع وبالحذر وكتم السر والكلام في أوانه. يقول احيقار :

« لاتخمد جذوة كلام الملك، سيكون كلامه شفاء لعظامك» . ونجد في سفر الامثال (١٦:٢٤) « الكلام الحسن شهد عسل حلو للنفس وشفاء للعظام» ويقول: « يا بني! لاتكن ثرثارا فتبوح بكل ما يرد على خاطرك لانالعيون والاذان في كل مكان متجهة الى الافواه ، وكن حذرا فان صنت لسانك سلمت » .

وفي امثالنا : « لسانك حصانك ان صنته صانك وان خنته خانك » .

ويقول ايضا : .

« راقب فمك وصن ما سمعت في قلب اصم لان الكلام كالعصفور ان انطلق من بين يديك لن تسترده ابدا » .

« لا تكشف سرك حتى للصديق لكي لا يكون اسمك سخرية » .

« الاناء الطيب يحفظ الكلمة الطيبة ، لكن الاناء المكسور يسرب ما فيه » .

الا نجد المعنى واللفظ في القول العربي المأثور : « الاناء ينضح بما فيه » .

وينهى احيقار عن مصاحبة الاشرار محذرا من خبايا السرائر : « لايعرف احد مافي قلب صاحبه ، فان ما رأى امرؤ امرأً اخر تافها فليحذره . ليبتعد عن طريقه ولايتعامل معه. هذا ما يفعله الانسان الطيب مع الخبيث » .

وفي **السياسة والدبلوماسية والسلام والحرب** يوصي قائلا :

« انسج الاعيب فمك ثم اعرض مقاصدك في الوقت المناسب لان حيلة الفم اقوى من حيلة الحرب » .

الا أنه ينهي عن الافتراء والاثم : « يابني تحقق بأذنيك كل ما تسمع لان نجاة الانسان في اخلاصه وصدقه اما مايقبحه فهو الافتراء على شفتيه» .

ويضيف الحكيم : « السيف يعكر صفو المياه الهادئة بين الجيران » .

لكنه يوصي بالاعتدال : « لا تكن شديد الحلاوة فتؤكل ، ولا تكن شديد المرارة فتقذف » (لا تكن صلبا فتكسر ولا لينا فتعصر) .

ويستنكر العدوان والاعتداء قائلا :

« لا تشد قوسك ولا تصوب سهمك الى الانسان الصالح مخافة ان يؤيده الاله فيرتد السهم عليك » .

ويضيف بحكمة فيها خلاصة فلسفة **الجبر والاختيار** قائلا :

« لئن شددت القوس ووجهت السهم الى انسان صالح فالسهم منك لكن حركته من الالهة » .

وبشهامة يتباهى حكيم ارام بنجدة المستجير قائلا :

« رفعت القش وحملت النخالة لكنني لم اجد اخف حملا من المستجير الدخيل» .

ويتحدث عن **الفقر والغنى والعمل** فيقول :

« رفعت الرمل وحملت الملح لكنني لم اجد اثقل من الدَّين »

ويؤكد فكرته بقوله :

« يا بني ان كان الدين باهظا والدائن خسيسا فلا تعاقد عليه ! ولكن ان عاقدت على دين فلا ترتح لك نفس حتى تفي بكل ما عليك ! الدين مريح ان كان قصير الاجل، لكن الوفاء به يعادل محتوى البيت !»

ويعبر عن استنكاره للفقر :

« ذقت المر حتى العلقم لكن لم أجد أشد مرارة من الفقر » .

لكنه يحث على العمل ناصحا بالسعي في سبيل العيش : « أحسير انت يابني!

إذن احصد اي حصاد ! واصنع اي صنيع استطعت ، عندئذ ستأكل وستشبع وتعطي لاطفالك ! » .

وهو يوصي بعمل كل انسان ما هو مؤهل له :

« لا توجه العربي (البدوي) الى البحر ولا الصيدوني الى الصحراء لان لكل شأنه »

وبهذا المعنى يقول عاموس :

هل تركض الخيل على الصخر او يحرث عليه بالبقر (٦: ١٢) .

وينهي الغني عن الاغترار بثروته :

« لا تغتر بثروتك ولا تمل مع هوى قلبك » .
« ولا يقل الغني ابدا انني مشهور لاني ثري ».

ويحدث نفسه مناجيا شاكيا ما حل به من بلاء :

« إن كان شقائي مني انا نفسي فممن ابتغي انصافي » . ثم يعترف رغم علمه وحكمته بجهله عندما يتحدث عن الانسان : « عديدة هي نجوم السماء التي لا تعرف اسماؤها ! كذلك هو الانسان لا يعرفه أحد ! » .

أليست هي عين الحكمة على معبد دلفي : « اعرف نفسك !» أليس هذا ما قاله سوفوكليس أيضا :

« ما أكثر عجائب هذا العالم وما اكثر غرائبه ، لكن ليس أعجب ولا أغرب من الانسان ! » .

ولعل حكيم المعرة قد تجاوز حكيم آرام محلقا في البيت الرائع : اتحسب أنك جرم صغير وفيك استوى العالم الاكبر ؟..

خاتمة :

عند قدوم الهلينيين الى الشرق مع جيوش الاسكندر المقدوني انتهى دور الارامية الرسمي بحلول اليونانية محلها لغة للثقافة والادارة . وبفقدان الارامية للعامل الاساسي في وحدتها مع انهيار الادارة الفارسية المركزية، اخذت تنتصر العوامل المحلية والاقليمية فانقسمت الارامية وتفرعت الى لهجات بالكلام واساليب الكتابة والخط .لكن ميدان

انتشارها بقي واسعا جدا بعد ان اضحت لغة اليهودية الى جانب العبرية واكتسبت مكانة مقدسة بعد ان اضحت الارامية السريانية لغة المسيح وحوارييه وتلاميذه . وقد وقع الفتح العربي في وقت كان فيه الادب السرياني في أقصى درجات تطوره ، واستمر ازدهاره في الحضارة العربية حتى القرن العاشر . ونستطيع ان نقول ان حركة انسانية Humanisme عربية سبقت انسانية الغرب بقرون قامت في دمشق وبغداد ومدن المشرق العربي حلب والرقة وحران وطرابلس وانطاكية على اساس الاتصال بالعلوم والمعارف التي قدمتها الحضارات القديمة ، وكانت السريانية التي احتفظت بدور مواز للعربية في الاوساط العليا الفكرية أداة الاتصال الى ان أخذت العربية تنتصر بالتدريج لتصبح لغة المحادثة والحياة العامة قبل ان تصبح لغة التعليم والكتابة والتأليف للسريان وغيرهم(٣٢) . واستمر هذا التراجع متباطئا حتى القرن الرابع عشر ، لكنه تسارع حتى القرن السابع عشر ، فانحصرت السريانية في بعض المناطق مثل معلولا وجبعدين وبخعة وبعض مناطق الجزيرة العليا وطور عابدين ، وتوقف الانتاج الادبي الارامي تقريبا لتبقى بقايا الارامية لغة طقسية تردد اصداء ثقافة عريقة وحضارة قديمة .

هكذا كان دور اللغة الارامية ودور ادبها التاريخي جسرا عريضا مديدا اتصل بالعربية وثقافتها الحية المتجددة القائمة منذ قرون.

الحواشي :

(١) ومنها نماذج فارسية مترجمة الى الارامية عثر عليها بين ملفات فيلة في مصر .
انظر :
A. Cowley (ed.) , **Aramaic Papyri of the fifth century B.C.** (Oxford, 1923) , 204 - 248 .

(٢) مار اغناطيوس افرام برصوم ، الالفاظ السريانية في المعاجم العربية (دمشق ١٩٤٨-١٩٥١) .

(٣) سفر التكوين ، ١١ : ٢٨-٣٢ ، ٣١ : ١٧-٣٠ ، ٢٩ : ١ .

(٤) حول تفرع الاراميين من الاخلامو :
J. A. Brinkman, **A Political History of Post - Kassite Babilonia 1158-722** (Rom 1968).

(٥) تتبع طريق حملات تكلات بلاصر الاول ، راجـع :
J. Starcky, **Palmyre, l'Orient ancien illustré** , (Paris 1952), 28.

(٦) انظر مراحل الصراع في:
P. Garelli, V.Nikoprowetzky, **Le Proche - Orient Asiatique II,** (Paris P.U.F. 1974), P. 110.

(٧) A. Abou Assaf, P.Bordreuil, A.R. Millard, **La statue de Tell Fekheryé et son inscription bilingue assiro - araméenne** (Editions Recherches sur les civilisations, (Paris 1928) , cahier No 7.

(٨) انظر مثلا :
H.Farzat, « Encore sur sur le mot TQm » **Semitica,** (Paris 1968).

(٩) A. Dupont-Sommer, « Littérature araméenne » **Histoire des Littératures I,** (Pléade, Paris 1955) ,P. 633

(١٠) انظر : محمود العابدي ، مخطوطات البحر الميت (عمان ١٩٦٧).

(١١) انظر النص بالارامية في :
John C.L. Gibson, **Textbook of Syrian Semitic Inscription.** vol. II, (Oxford 1975) p. 8.

(١٢) الترجمة الى العربية من عمل مؤلف البحث .

(١٣) انظر النص بالارامية في نقش سفيرة الاول (السطور ١٤-٣٠) ، راجع الطبعة الاساس :
A. Dupont - Sommer , et J. Starcky, **Les inscriptions araméennes de Sefire,** (Paris 1958) pp. 4-5.

ايضــا :

H. Donner-W. Rollig, *Kanaanaïsche* **u. Aramaïsche Inschriften** (Otto Harrassowitz. Wiesbaden 1973), p. 238, No 222-224.

(١٤) H Donner-W. Rollig, ***KAI***, II. No 215,9-15;

(١٥) **idem,** No 216.

(١٦) Abou Assaf et Bordreuil et Millard, **Op. Cit.**

(١٧) انظر :

A. Lemaire et J.M.Durand , **Les inscriptions** Araméennes **de Sefiré et l'Assyrie de Shamshi Ilu,** (Paris 1984).

(١٨) L. Delaporte, **La Mesopotamie, l'Evolution de l'Humanité,** (Paris 1923); **Epigraphes Araméennes** (Paris 1912), p. 23.

(١٩) KAI, 226; J.Gibson, Op. eit., No 19,p.79.

(٢٠) F. Altheim, R.Stiehl, **Die Araber in der Alten Welt,** ler Band, (Berlin 1964), « Aramaisch als Weltsprache » , PP. 181 - 236.

(٢١) A. Caquot, **"Leçon Inaugural,** (Collège de Farnce 1972) .

(٢٢) انظر هذه الرسائل في :

G. R. Driver, **Aramic Documents of the fifth century B.C.** (Oxford 1954), 1957.

وانظر دراسات بورتن وغرولو (بالانكليزية والفرنسية) :

B.Porten , **Archives from Elephantine** (Berkeley 1968) ; P. Grelot , **Documents Araméennes d'Egypte,** (Paris 1972).

(٢٣) A. Dupont-Sommer, La Littérature araméenne, Op. Cit.

(٢٣م) **idem.**

(٢٤) جورج حداد « حكمة الوزير احيقار واثرها في الادب العالمي » مجلة الحوليات الاثرية السورية ، دمشق ١٩٥١ ، ص ١٠ – ٢٨ . كان الدكتور حداد من اوائل من نبه في اللغة العربية الى أهمية احيقار في الادب الارامي والاداب العالمية .

(٢٦) G. Lefébvre, **Romans et Contes Egyptiens de l'Epoque Pharaõnique,** (Paris 1949);

وبالعربية انظر ايضا : جون ولسون (ترجمة احمد فخري) ، الحضارة المصرية ،القاهرة،١٩٦٠.

J. A. Wilson, dans **ANET, pp;** 412-424.

P. Grelot, **Documents Araméennes d'Egypte,** pp. 427 - 429.

(٢٧) راجع حول الاصل المسماري لقصة احيقار :

J. Van Dijke, **Afo** (Archiv för Orientforschung) 1939, pp. 215-218;

J. C. Greenfield, JAOS (Journ. of the Am.Or. Society),1962, P.293ss.
L. Oppenheim, **La Mésopotamie** (Paris 1970) = Ancient Mésopotamia (1964) P. 380.

(٢٨) R.Labat **Les Religions du Proche-Orient,** (Paris 1970) .

وحول القصة انظر :
L. Oppenheim, **La Mésopotamie** p. 274 et n.46 p.380.

(٢٩) A.D.S., « Litterature araméenne » Histoire des Litteratures, p.642.

(٣٠) انظر النص في الانكليزية وفي الفرنسية في :
Cowly, **Op. Cit.,** pp.204 ff.; P. Grelot, D.A.E. **Op. Cit.** ; A.Dupont - Sommer, **Op. Cit.**

(٣١) انظر المراجع السابقة نفسها . تعريب حكم احيقار هنا هي من عمل المؤلف .

(٣٢) انظر الدرسة للباحث محمد عبد الحميد حمد ، ، مار ديونيسيوس التلمحري ، من وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة واثارها ، ١٩٨١ ، منشورات المديرية العامة للاثار والمتاحف .

الإبلائية
لغة مدونة في وثائق ملكية

د. يسرى الكحلك

خلفت لنا الحضارة الإبلائية ، التي عاشت في سورية في الالف الثالث قبل الميلاد، سجلات يزيد عددها على ستة عشر الف رقيم، مكتوبة بكتابة مسمارية مقطعية ،تحكي قصة هذه المملكة واحداث عصرها . فأين وجدت هذه المخلفات ..؟ وعم تتحدث ..؟ وبأي فترة كتبت ..؟ وما هي اللغة التي دونت بها ..؟ هذا ما سنحاول الاجابة عليه في مقالنا هذا .

لسنوات قليلة خلت ، كان علماء الآثار والحضارات الشرقية ، متفقين على ان سورية ، خلال العصر البرونزي القديم ، كانت بلادا واقعة تحت السيطرة الرافدية، وتحوي العديد من المدن والواحات التجارية ، التي كانت بمثابة صلة الوصل ما بين بلاد الرافدين ومصر ، او شواطيء المتوسط . وظل هذا الراي سائدا على الرغم من العثور على عدة كتابات يرد فيها اسماء مراكز حضارية الى غربي الفرات . ولم تاخذ هذه الوثائق أهميتها الحضارية الا فيما بعد .

كان مجد الحضارة السورية عند علماء الاشوريات ، يبدأ من ماري في عصر زيميرليم (الفترة البابلية القديمة) ، حيث جلت المكتشفات الاثرية السجلات الملكية لماري ، والقصر الملكي العائد للالف الثاني قبل الميلاد(١) . وحتى هذا الكشف اعتبر بشكل أو باخر رافديا ، لان ماري كانت تخضع أحيانا للسيطرة الرافدية ، لاهميتها كموقع متقدم على الحدود الرافدية . وتلا هذا مجد اوغاريت وابجديتها العالمية ، ونادرا ما تذكر كتب الشرق القديم ، حتى الحديث منها ، وخاصة المؤلفة باللغة

العربية ، الحضارة السورية الراقية التي عاشت قبل ذلك، وتركز الاهتمام على حضارة بلاد الرافدين فقط ، خلال الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد .

ان التنقيبات الاثرية المثمرة عن الحضارة السورية في الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد ، لا يزيد عمرها على العشرين عاما . وقد بدأت بالكشف عن معابد قديمة على ضفة الفرات اليمنى ، أثناء عمليات انقاذ آثار الفرات عند بناء السد ، على يد بعثة بلجيكية (٢) وقد اعتبرت آنذاك اثارا سومرية ، واصبح جليا ان هذا غير اكيد بعد الحفريات الابلائية التي اجرتها في تل مرديخ البعثة الاثرية لجامعة روما .

وفي الحقيقة لعب الحظ والمصادفة دورا كبيرا في الكشف عن الحضارة الابلائية، وحتى البعثة المنقبة لم تكن تتوقع انها بصدد العثور على حضارة مهمة ، بل مملكة ضخمة . حتى ان اسم إبلا الذي ظهر على اكثر من قطعة اثرية في الموقع ، لم يكن يعني الشيء الكثير ، وان كان هذا الاسم قد ورد اكثر من مرة في وثائق رافدية ، منها هذان النصان لوثيقتين تعودان الى العصر البرونزي القديم (الالف الثالث قبل الميلاد)، لاهم ملوك اكاد ، صارغون ونارام-سن ، يرد فيها ذكر مدن اجتاحاتها خلال حروبهما، وحددا مواقعها بانها في الشمال باتجاه البحر .

يقول صارغون(٣) : « صارغون الملك ، سيسجد في صلاة في تيتول امام دجن . دجن قد اعطاه البلاد العليا : ماري ، يرماني ، إبلا ، حتى غابة الصنوبر وجبال الفضة » . ويقول نارام-سن(٤): « أبدا منذ بدء الخليقة ، لم يستطع أي ملك من الملوك تدمير ارمانوم وابلا ، في ...، نرجال قد فتح طريق نارام-سن القوي ، واعطاه ارمانوم وابلا وقدم له كذلك الامانوس ، جبل الارز والبحر العلوي وبفضل جنود دجن ، واشعاع مجده، نارام - سن القوي ، هزم ارمانوم وابلا، ابتداءمن شاطيءالفرات حتى إلسوم ، لقد تحدى الاشخاص الذين وهبهم دجن له ، والذين سيحملون السلال لأبا إلهه ، لقد سيطر على الامانوس وعلى غابة الارز » .

يبدو واضحا ، ان صارغون ، في وثيقته ، مسرور بانتصاره على ابلا وماري ويرماتي ، هذا النصر الذي اوصله الى غابة الارز وجبال الفضة . ولكن نصه قصير ، ممايدل على ان النصر كان مهما وليس حاسما ،اي أن إبلا ربما هزمت ولكنها لم تدمر، كما ورد في نص حفيده نارام-سن الذي تبدو سعادته اكبر بنصره ، فهو قد دمر مدنا لم يستطع تدميرها أي ملك منذبدء الخليقة ، وقد كرر فخره اكثر من مرة بهذا النصر ، وبدأ وثيقته بزهو عظيم . واما نتيجة انتصاره فهي كما ذكر جده ، كانت الوصول الى غابات الارز وجبال الفضة ، او بمعنى اخر الوصول الى منابع المواد الاولية .

وهنا يحضرنا السؤال التالي : هل كانت إبلا على درجة مـن القـوة العسكرية والسياسية بحيث لم يستطع أي ملك من قبل تدميرها والانتصار عليها ..؟ اذا صح ذلك فهو يقلل من قيمة نصر جده ، وهل كانت من القوة الاقتصادية بحيث سيطرت على منابع الثروة ، اذ على الارجح قصد كلا الملكين بغابة الارز جبل لبنان ،وبجبل الفضة بلاد الاناضول . هذه الاسئلة جعلت مؤرخي هذه الفترة يستبعدون ان تكون إبلا في سورية ، فالطبيعة الجغرافية لا تعطي هذه المؤهلات لمنطقة في سورية . دعـم هـذا الراي وثيقة اخرى وجدت في الالاخ ، فاختلفت اراء الباحثين ، حول موقع إبـلا ، وبقي لغزها ، والمدن الاخرى التي وردت في النص باستثناء ماري ، قائما ، كالكثير من الغاز الحضارات القديمة ، وغاب عن الاذهان ربط النصين السابقين مع اقـدم خريطة في العالم ، عثر عليها في جسور (في العراق) تعود لفترة الامبراطورية الاكادية (نحو ٢٣٦٠ ــ ٢١٨٠ ق.م) ، ذكرت فيها إبلا تحت اسـم (مشـكن ــ دور إبلا) أو (مشكن ــ باد ــ ابلا) ، الاسم الذي ربما كان الاسم السومري للمدينة(٥) .

استمر عمل بعثة تل مرديخ (إبلا) منذ عام ١٩٦٤ وحتى ١٩٧٣ دون الوصول لنتائج مشجعة . فقد تم الكشف خلال هذه المدة عن آثار مدينة تعـود الى العصـر العموري في المنطقة ليس في مخلفاتها ما هو فريد من نوعه ، ومع ذلك اسـتمر عمـل البعثة في التنقيب في الاعوام اللاحقة . وفي عام ١٩٧٤ تم العثور على اولى مخلفـات الحضارة الابلائية وهي عبارة عن ٤٢ سجلا وثائقيا ملكيا ، أثار العثور عليها ضجـة عالمية كبيرةعلى الصعيدين العلمي والصحفي،وتعددت حولها الاراء. وهكذا غدا من المؤكد بالدليل ان ابلا المفقودة هي في سورية ، على بعد خمسة وخمســين كيلومترا جنوبي حلب ، وسبعة كيلو مترات جنوب شرقي سراقب ، في موقع تل مرديخ الاثري(٦) . وبتتالي سنوات التنقيب ، اخـذت الحضارة الابلائية ، عمارة وآثـارا ، طريقها الى النور من جديد . كان هذا الكشف جميلا وجذابا للمهتمين والفضولين ، المغرض منهم والمخلص ، ومع هذا لم تكن إبلا قد قدمت اجمل ما فيها ، حتى عام ١٩٧٦ ، حيث تم العثور اثناء التنقيب ، وبطريق الصدفة ايضا ، على الكنز الذي لم يكن من ذهب او فضة ، بل أكبر قيمة واكثر فائدة، انه سجلاتها الملكية المكتوبةبكتابة مسمارية مقطعية، وهكذا توصلنا الى رسول صادق أمين ، يحدثنا عما كان يجري منذ خمسة الافسنة على ارض الشرق القديم ، وسيطول حديثنا عنه سـنوات . فأين وجـدت هـذه السجلات ..؟ وما فحواها ..؟

وجدت هذه السجلات بكاملها في رحـاب القصر الملكي المسمى (ج) ، الـذي يعود الى سلالة اكريش ــ خلم التي حكمت ما بـين (٢٤٠٠ ــ ٢٢٥٠ ق.م) . بنـي هـذا القصر في قمة تل مرديخ ، مطلا على المدينة في هندسة فنية رائعة ووفق خريطة اعدت

سابقا ، مما هو جديد كل الجدةفي عصره . وهذا موضوع لا مجال للحديث عنه الان . تم العثور على السجلات ، بشكل اساسي في صالتين ، اولاهما كانت مخصصة لديوان السجل وهي الصالة (ل ٢٧٦٩) ، وضمت اكبر عدد منها ، حيث قارب عدد ما جمع حوالي (١٤) ألف رقيم ، حفظت على رفوف خشبية متتالية من اسفل الى اعلىتبعا لثقلها وحجمها ، ورتبت تبعا لموضوعاتها ، والثانية هي (ل ٢٧١٢) حيث عثر على (١٠٠٠) لوح ذات ملامح زراعية ، وهذه الصالة كانت عبارة عن مخزن وتقع خارج القسم الاداري للقصر ، (٤٠٠) لوح تقريبا ذات ملامح اقتصادية وتاريخية ، وادارية وجدت في بهو القصر في الصالة (ل ٢٨٧٥) ، (٥٠٠) لوح وجدت في القسم الشرقي من الجناح الاداري للقصر ، ذات ملامح اقتصادية (ل ٢٧٦٤) ، كما وجدت حوالي (٢٠) لوحة في ساحة القصر ، كانت حتما قيد الكتابة عندما هدم(٧) ، اذ يبدو واضحا جدا ان القصر قد احرق على حين غرة ، فحتما لم يكن ملك إبلا يتوقع الهزيمة امام مهاجميه ، وخراب مدينته واحراق قصره ، هذا ما كان له نتيجتان : احداهما سلبية، فقد فقدنا اجمل تحف وآثار القصر الفنية ، التي سرقت قبل احراقه ، وما ترك من اثاث جميل كان خشبيا فاحترق . والثانية ايجابية تتمثل في كون نصوص الرقم الطينية ، قد حفظها الحرق من البلى فشويت ، مما شوه منظرها ولكنه حافظ على نصها وتماسكها .

وهكذا نلاحظ ان ما خلفته لنا الحضارة الابلائية من نصوص ، تناولت كل مجريات الحياة اليومية في القصر الملكي ، الذي تعاقب على حكمه ستة ملوك من سلالة واحدة، هي سلالة اكريش ـ خلم ، الذي لا نعرف تماما (حاليا على الاقل) كيفية وصوله للسلطة ، ودام حكم هذهالسلالة زهاء ثلاثة قرون اعتلى عرش ابلا فيها على التوالي بعد مؤسسها اكريش ـ خلم ابنه اركاب ـ دامو ، فابنه ايرانيوم ، وتلاه ابيريوم الذي سجل عهده الكثير من الانتصارات والامجاد ، تلاه ابي ـ سيبش ، فدبوخادا، الذي يرجح كونه صغير السن عندما تولى العرش، وفي عهده دمر القصر.

تميز ملوك هذه السلالة بانهم كانوا من كبار الموظفين قبل توليهم العرش، وبمعنى اخر كان كل واحد منهم وزيرا لوالده عندماكان ولي عهده ، وهنا لابد لنا من الاشارة الى عدم صحة النظرية القائلة باغتصاب ايبريوم للعرش بعد ايرانيوم ، اذ ليس في السجلات ما يشير لذلك .

تنقسم السجلات الابلائية كما راينا الى عدة انواع حسب موضوعاتها ، اولاها تاريخية سياسية ، كالنص (TM 75.G.2231)(٨) الذي هو عبارة عن نص مدرسي يحوي (٢٨٩) اسما جغرافيا ، يعتبر نسخة عن نص سومري وجد في ابو الصلابيخ في

العراق ، قام بترجمته البرفسور بيغز Biggs (٩) يتميز النص الابلائـي بكمالـه وكونه اطلسا ممتازا لمنطقة الشرق القديم في عصره ، وبكونه مدونا بكتابة مسمارية مقطعية سهلة القراءة اذا ما قورنت مع السومرية التصويرية ، مما يجعل قراءة الاسماء اصح واسلم ، كذلك يفتح هذا النص مجـالا مناسبا للدراسة اللغويـة المقارنة بـين السومرية والابلائية ، وسنتطرق الى ذلك فيما بعد . في نصوص اخرى نجد العلاقات السياسية الابلائية ، التي كانتذات انماط متعددة ، منها علاقات مع مـدن وممالك خاضعة للسيطرة الابلائية المباشرة جاوز عددها السـبع عشـرة (١٠) ، واخرى مـع ممالك خاضعة للسيطرة الابلائية غير المباشرة ، تقدم الجزية السنوية ويكون جيشها على استعداد دائم لخدمة التاج الابلائي ، كمملكة ماري التي ما ان حاولت التمرد على هذا النوع من الاستعمار ، في عهد ملكها ايبلول ، حتى ارسل ايرانيوم ملك ابلا جيشا جررا ، بقيادة انا ـ داكان ، اخضعها من جديد وقتل ملكها ، وعاقب شعبها بان ولـى القائد الابلائي نفسه عرشها(١١) ، وثالثها ممالك صديقـة تربطهـا مع ابلا معاهدات دفاع مشترك ، كآشور .

النوع الثاني من السجلات اقتصـادي ، كالنص (TM 75.6.1591) (١٢) الـذي يتحدث عن مبادلات إبلا التجارية الواسعة ، ذكرت فيه اسماء(٧٨) مدينة كانت إبـلا قد صدرت لها واستوردت منها، اكثرها غير معروف لنا حاليا ، والنادر الذي عرف منها يدل على السعة الكبيرة جدا للعلاقات التجارية الابلائية في عالم الشرق القديم .

ان هذا النوع من التنظيم الاداري لم يسبق له مثيل في بلاد الرافدين ، فاسماء المدن التي ذكرتها السجلات الابلائية ، والتي كانت مجهولة تماما بالنسبة لنـا ، تعـد بالمئات . ومن المدونات المهمة التي حوتها السجلات ، المدونات المدرسية ، التي كانت بمثابة وثائق لطلاب سيغدون موظفين في الدولة ، لذا حرصت الدولة على ثقافتهم ، ونوعية معلوماتهم ، والاحتفاظ بمدوناتهم ممهورة باسمائهم واسماء معلميهم ، وحتى مدارسهم ، ومن الجدير بالذكر ان هذه الوثائق مهمة جدا لمعرفة المعلومات التي كانت تقدم للطالب الابلائي ، والتي هي بالتالي خلاصة علوم عصره وحضارته .

بالاضافة الى الانواع التي ذكرناها سابقا ، ضمت السجلات الملكيـة مدونات كثيرة ، منها ما يختص بعقود الملكية الزراعية ، والسقاية المائية، والصناعات، ونصوصا دينية واسطورية (١٣) ، بالاضافة الى المدونات الادارية اليومية (١٤) .

كل ما ذكرناه عن السجلات الملكية الابلائية ، هو حقيقي وسهل المعرفة سواء من حيث عددها ، ام من حيث مضمونها العام . ولكن تأريخ فتـرة تدوين هذه السجلات

ليست بالسهولة نفسها . وللوصول الى هذا الهدف هناك وسيلتان : اولاهما المخلفات الاثرية . وثانيتهما ، المخلفات الكتابية . بالنسبة للنهج الاول ، هناك الخزف الابلائي لمرديخ٢ب١ IIB1 ، واختامه الاسطوانية ومخلفاته الفنية ، وكلها تمثـــل الذوق الشرقي في الفترة الاكادية ، مع احتفاظها بكثير من الميزات الخاصة (١٥) . بالنسبة الى السبيل الثاني ، وهو النصوص ، فلدينا في السجلات الابلائية دليل واحد اكيد حاليا، وهو معاصرة ملك ماري ايبلول لملك ابلا ايرانيوم(١٦) . اما الدليل الثاني لتأريخ هـذه النصوص ، فهو بقايا هديتين فرعونيتين كانتا قد ارسلتا للبلاط الابلائي ، اولاهما : قطعتان من بقايا كاس من الديوريت، تحمل كل منهما سطرا من الكتابة الهيروغليفية، حيث كتب اسمان من اعظم اسماء الفرعون الرابع من السلالة الرابعة ، منف،والثانية غطاء وعاءمرمري يحمل اللقب الاول للفرعون الثالث من السلالة السادسة بيبي الاول(١٧). ولما كنا نعرف بالتحديد زمن حكم هذين الفرعونين يمكننا بالتالي تحديد فترة وصول هذه الهدايا للقصر الابلائي . ولكننا هنا نقف امام مشكلة تاريخية مهمة ، وهي معرفة طبيعة العلاقات الابلائية المصرية ، حيث ان النصوص المصرية لم تذكر ابلا الا كمدينة عبرها الفرعون تحوتمس الثالث ، في طريقه نحو الفرات (القرن الخامس عشر قبـل الميلاد) . اما نصوص ابلا فلم يعثر فيها حتى الان على مايشير الى طبيعة علاقاتها مـع مصر ، مع اننا امام دليل مادي على هذه العلاقة .

من المرجح ان يكون كأس الديوريت ، قد قدم هدية للبلاط الابلائي قبل وصول سلالة اكريش ــ خلم الى الحكم بعشرات السنين ، وحفظ في القصر كهدية ثمينة . اما الغطاء المرمري الذي يحمل اسم بيبي الاول ، فيرجح انه نقـل الى ابـلا عن طريـق وسيط ، وليس بشكل مباشر ، وما يدعونا لهذا الافتراض ، هو ما ذكر في السجلات الملكية الابلائية ، عن تصدير كميات هائلة من البضائع لجبيل(١٨) ، لا يعقل ان تكـون لاستهلاكها المحلي ، بل لتنقلها بدورها الى مصر ، وجبيل خبرت التعامل مع البـلاط الفرعوني ، وكانت دوما صلة الوصل مابين مصر وسورية .

امام هذه المخلفات الفرعونية ، نقر بحقيقة مهمة ، وهي ان مملكة ابلا (سويـة مرديخ٢ب١) ، لم تهدم قبل حكم بيبي الاول، انما اثناء او بعد حكمه . وباجراء مقارنة زمنية بين حكم هذا الفرعون وملوك اكاد ، نستطيع القول ، بان نهاية القصر الملكي ج ، كانت على يد نارام ــ سن الاكادي ، داعمين قولنا هذا بالنصين اللذين ذكرناهما فيبداية مقالنا هذا ، واللذين من خلالهما ومن خلال العديد من المعطيات التاريخية واللغويـة الابلائية التي سنتطرق لها فيما بعد ، نستطيع تماما تصور نهاية ابلا بقصرها وسلالتها الحاكمة علي يد نارام ــ سن نحو ٢٢٥٠ ق.م .

قبل دخولنا في مجال دراسة اللغة الابلائية ، نود الاشارة الى الخطوط العريضة للمناقشات التي تعرضت لها نصوصها ، ففي الواقع عندما اكتشفت السجلات الابلائية كان ذلك حدثا مذهلا ، اولا لوفرتها بشكل لم يكن يتصوره أي باحث في هذا المجال ، وثانيا لكونها مكتوبة بكتابة مسمارية ، لم يجد علماء اللغات السامية ، بشكل عـام ، صعوبة في قراءتها . وهنا اختلفت الاراء ، فمنهم من اعتبرها لهجـة من اللهجـات الاكادية ، كما كانت تعتبر لغة ماري سابقا ، واخرون أصروا على ابتعادها عن الاكادية، وتقاربها مع السامية الغربية ، أي الفنيقية والعبرية القديمة ، وآخرون ذهبوا لابعـد من ذلك ، فجعلوها اصل العربية وقاربوها عن لغة عرب الجنوب ، حتى من الاثيوبية ، هذا الى جانب آراء اخرى اصرت على اعتبارها لغة سامية مستقلة تقترب من الاكادية والعمورية . وبين هؤلاء كان المنطقي والخيالي . واستخدم الصهاينة هـذا الكشف استخداما رخيصا وصل بهم الى حد الادعاء بان ابراهيم عند عبوره (حسـب قصـة التوراة) من الرافدين لارض الميعاد ، مر بابلا واستقر بها لفترة ، وجعلوا من الابلائية عبرية قديمة ، ومن الملك ايبر يوم ابراهيم ، وما الى ذلك من ادعاءات بعيدة عن العلـم والحقيقة ، واخذت الصحافة العالمية الصهيونية تروج لهذا النبأ ، لدرجة انها اتهمت سورية باخفاء النصوص وانكار الحقيقة .

كل هذا اثير عند بداية الكشف الابلائي ، ولكن حاليا ، وبعد مرور اكثر من عشر سنوات على هذا الاكتشاف ، اخذت اراء عديدة تقر بالحقيقة وتتراجع عن اخطائهـا السابقة ، وكتب حول هذا الموضوع عديد من الخبراء ، وغدت الابلائية تدرس من قبل اهل الاختصاص بطرق علمية بحتة .

في الحقيقة ، اننا منذ بداية مقالنا هذا سمينا لغة إبلا الابلائية ، لانها لغة مستقلة وليست لهجة اكادية ، او لهجة لغة اخرى ، وهذا ماسنحاول التعرف عليه في السطور اللاحقـة .

ذكرنا سابقا ان السجلات الملكية الابلائية مكتوبة بالمسمارية المقطعية ، وهـي في مظهرها العام تشبه السومرية اكثرمن الاكادية ، اذ انها مكتوبة باعمدة ضيقة جدا ، وزوايا الرمز المسماري حادة وطويلة وغير مملوءة القمة ، وهي طريقة اتبعت في نصوص فارة وابو الصلابيخ السومرية ، هذا وان استعمالها للرموز السومرية يدل على انهـا لغة ذات مؤشرات صوتية اكثرها من سواها(١٩) . اماترتيب الرموز فيها فيتبع العناصر اللغوية(٢٠) ، وهذا ما اتبع في النصوص الاكادية القديمـة (ما قبل الفرعونيـــة) ، ونصوص فارة وابو الصلابيخ ، وكذلك نصوص لاغاش في عهد ايااناتوم ، وفي اوما في عهد لوكال زاكيزي . ولعله من المفيد ان نذكر هنا انه غدا من المرجـح ان النصوص

المدرسية التي اكتشفت في ابو الصلابيخ وفارة ممهورة بالعديد من الاسماء السامية، ترد حاليا الى طلبة ابلائين ارسلوا ببعثات دراسية الى هاتين المدينتين ليعودوا أساتذة في بلادهم(٢١) ، فالعلاقات الثقافية في ذلك العهد البعيد كانت متطورة . اكثر من حدود تصورنا .

عندما درس البرفسور بيغز هذه الاسماء ، واكد انها سامية وليس سومرية ، اعتبرت لغزا محيرا ، اذ انها كتبت في فترة لم تكن فيها اكاد قد نشأت بعد ، وهنا تجدر الاشارة لملاحظة هامة ،وهي انه غدا واضحا عن طريقة الكتابة الابلائية وعلاقاتها الطيبة مع السومريين ، ان إبلا اقدم نشأة وبناء من أكاد ، وهكذا كانت تستقي من معين سومر العريق والمتطور ، مع المحافظة على منابعها الخاصة ، مما جعل الحضارة الابلائية ، على كافة الاصعدة ، تسبق عصرها في كثير من الاحيان .

✶ ✶ ✶

وماذا عن خصائص اللغة الابلائية ..(. بدىء بدراسة اللغة الابلائية منذ العثور عليها ، وأول من فعل ذلك هو البرفسور بيتناتو، الذي كان لغوي البعثة الايطالية(٢٢)، ثم درسها البرفسور الاميركي جلب(٢٣) ، وتلا ذلك تشكيل لجنة دولية مؤلفة من عشرة اعضاء . وسنحاول هنا التعرف على خصائص هذه اللغة .

الفعل : الافعال متوافرة بكثرة في اللغة الابلائية ، واليكم بعضا منها ، كما اوردها بيتناتو في ترجماته : جنفار دامو Jinḫar-Damu= داموا مصاب ، جيبخور ملك Jipḫur-malik= ملك قد حصد ،جيشمع ال **Jisma-il**= هو يسمع ، جيدين كاميش Jiddiň-Kamiš= كميش قد اعطى ، جيبسورني Jipṭurni= هو قد حررني أو حررنا .. الخ.

من الملاحظ ان الافعال السابقة ، قد بدات بمقطع سبق الفعل ، للمفرد المذكر الغائب ، وكانت جي Ji ، وانها جميعا على وزن جيكتل Jiqtul فهل هذا الوزن يدل على زمن الفعل ، أو مظهر من مظاهره، اذا كانت الحالة الاولى فالفعل في الماضي ، فكيف يقاس المضارع او المستقبل منه واذا كان مظهرا من مظاهره فاين الفعل التام والفعل الناقص ..

يجمع بيتناتو وجلب على اعتبار جيكتل **Jiqtul** كزمن الفعل الماضي ، كما هو

الحال في كتب Ktub= كتب ، وعليه يجب ان يكون المضارع والمستقبل على زمن جيكتيــول Jiqqat/i/ul أي باضافة ياء المضارعة ، كما هو الحال في الاكادية، وعليــه وزن بيتناتــو الفعــل الماضــي على كتــل qatal وعــلى وزنهــا qatab = كتب ، وهذا ما يجعلها تتوافق مع اللغات السامية الغربية ، هذه النقطة لم تؤكد بعــد ومازالت قيد المناقشة .

مصدران فقط عرفا حتى الان في الابلائيــة هما اخــذوم ȃḫazum = خطف او حجز(٢٤) ، ومخزيدا maḫazida ضرب (٢٥) .

الاسم : في دراسة الاسماء يفضل دوما اللجوء الى الاسماء الشخصيــة ، حيث ان الدراسة اللغوية من خلال الاسماء ، تختلف عن تلك التي تتم من خلال النصوص ، وتعطي دوما نتائج اسلم .

لقد عرف الابلائيون نوعي الاسم : المذكــر والمؤنث ، واضافــوا للاسم المذكر لاحقة اوم (um) وللاسم المؤنث لاحقة توم (tum) ، كما في ملكوم malikum = ملك ، وملكتوم malikatum= ملكة ، وكما في تيهاماتوم Tihamatum = المحيط المنخفض (مذكر) وفي مبشتوم mupšustum= حياة (مؤنث) .

الفاعل : للفاعل اضيف لاحقة يو (u) ، كما ورد في اسماء احد عشر تلميذا في اللوائح المدرسية(٢٦) . وأما اسماء الملوك فقد اضيف لها فياخرها أ (a) او ك (Q) كما هو الحال في الاكادية القديمة ، وكتبت اسماء الالهة على الشكل التالــي : داكان كننانيم Dagan Kama naim دجن الكنعاني ، وهنا كننانيم هـــو اسم أرض كنعان ، تقاربها في العربية كنانة .

الضمائر الشخصية المنفصلة : انا (ana) وهــو ضمــير المتكلم المفرد ، كما في المثــال A'na malik= انا ملك ، يظهر هذا الضمير في اللغة العمورية بينما يندر استعماله في الاكادية ، وانا واني تستعمل كضمير متكلم في العديد من اللغــات السامية الشمالية كذلك(٢٧) .

انت anta= انت : ضمير المخاطب المذكر المفرد ، تاتي بهذا الشكل في حالــة الفاعل ، وكواتي Kuwati في حالة المفعول به ، اما في حالة الجمع فهــي امانــو amanu= انتم ، وفي الاكادية استعملت كذلك كواتي كمفعول به وشواتي أيضا Šuwati واستعملت شوا Šuwa= هو وشواتي ، كضمير المفرد الغائب، وللفاعل تستعمل شوا Su-wa وللمفعول به شواتي .

الضمائر الشخصية المتصلة : وهي على نوعين ، نوع يستعمل مع الاسماء ، واخر مع الافعال .مع الاسماء : هي النون والياء ، فالياء استعملت لاحقة الشخص المتكلم ، كما فيتوبي ديلو Tūbī-Dilu = ديلوهي إلهتي ، ومن الجدير بالذكر ان هذه اللاحقة مشتركة في جميع اللغات السامية . نا أو ني ، هي لاحقة الجمع المتكلم كما في المثال ريما حادا Rima-Hadda = حادا كاهننا ، عبدني E' bduni = عبدنا(٢٨) .

شو Šu : لاحقة المذكر المفرد الغائب ، وتكتب سود او شو SuD او Šu هذه اللاحقة لوحظت ايضا في نصوص ماري ماقبل الصرغونية ، والاكادية وليس في العمورية والاوغاريتية والعبرية(٢٩) .

مع الافعال : الضمير المتصل بالافعال هو ني (ni) سواء في حالة المفرد امالجمع، مثال جبيني ليم Jibbi'ni - lim = ليم دعاني او دعانا ، جيبسورني Jīpṭurni = هو اعتقني او اعتقنا ، هذا الاستخدام وارد كذلك في العربية والعبرية ني ـ نا .

اداة الاشارة : في الابلائية اميجيوم ammijum (٣٠) = هذا وهذه ،هذه الاداة تاخر ظهورها في اللغات السامية الاخرى ، حتى الالف الثاني قبل الميلاد ، فهي في الاشورية مثلا انجيوم annijum ومعناها هذه .

اداة النسبة : هي شي šĭ (٣١) ، يماثلها شا ـ شو ـ شي ša - šu - ši في الاكادية القديمة والعمورية ، اما في لغة ماري في عهد سلالة أور الثالثة ، فهي سا ـ سي ـ شو sa - si - šu (٣٢) ، وفي استعمالاتها لا يوجد فرق واضح معالجنس او العدد .

اداة الاستفهام : هي مي (mi) = من او ما ،كما في المثال مي ـ كا ـ ال mn-ga-'il = من يحب إل ، ان ما الاستفهامية في الابلائية ، تماثل ما الاوغاريتية والعبرية القديمة والمارية (ما قبل الصرغونية) ، ولكنها تختلف عنها في الاكادية والعمورية فتكون من man = من العربية .

اداة التذكير : هي مينا ناما mi nana ma = اي شيء ، وهي ترد هكذا في النصوص الابلائية (٣٣)

اداة العطف : استعمل في الابلائية حرف الواو (W) للعطف ، وقد يستخدم بمعنى لام العطف ، كما في المثال وياتا W/yta = ليعطي ، وتستخدم بنفس المعنى وا (wa) .

اداة التشبيه : هي كا (Ka) ، ولها نفس الاستعمال في العربية مثال : ميكاال Mika-'il من مثله .

أدوات الجر : إن (In) = في وداخـل ، وهي مستعملة كذلـك في الاكاديـة الكلاسيكية والبابلية ، ونصوص ماري (ما قبل الصرغونية) وكذلك في نصوص ماري التي تعود لفترة اور الثالثة ، اما في الاشورية القديمة فقد استعملت قبل الاسم الذي يبدأ بحرف ساكن ، واستعملت انا i-na قبل الاسم الذي يبدأ بحرف صوتي .

انـا i-na من او الى ، كما في المثال انا بلي سـو =i-na-be-li-su الى سيده ، وانا نستطيع قراءتها كذلك في التعويذات التي وجدت في ماري ، والعائدة للفتـرة ما قبـل الصرغونية(٣٤) ، وكذلك عرفـت في نصوص فارة . ومن الجديـر بالذكر ان أنـا i-na هي ليست أنا a-na= أنَ المعروفة فياللغات السامية الاخرى.

اش iš= الى ـ لأن ، هي معروفة في اللغة الاكادية ، ولكنها كانت تستعملفي نهاية الكلمة ، وقد استعملت في الفترة الصرغونية مع الاشياء الصغيرة مثال كاتيش qâtiš= الى اليد ، او مع الحال ، كما في أرخيش arḫiš= سريـع ، امـا استعمالها كأداة جر قبل الكلمة ، فهذا ما تفردت بـه اللغة الابلائيـة عن أية لغـة ساميـة(٣٥) .

اش ـ دا āš-da= مع او مـن حيث ، وعرفت هـذه الاداة في الاكاديـة الصرغونية ، وكذلك اشتـو ištu مع ، واشتوم ištum= بعد ، اما كما وردت في الابلائية ، فلم تعرف الا في ندرة من النصوص الادبية البابلية واللغـات الساميـة الاخرى، دقيقة من جهة ، وغير دقيقة من جهة اخرى ، فما ذكرناه من المقارنات بـين الابلائية والسومرية والاكادية ، ولغة ماري ما قبل الصرغونية دقيق ومنطقي ، وذلك لتعايش هذه اللقات وتعاصرها ، ولاحقا سنجري مقارنة اوسع مابين لغتي ابلا وماري، وأما المقارنة ما بين الابلائية والاوغاريتية والعمورية والعبرية ، وهي لغات بعيدة عنها في الزمن ، فهو ابعد عن الدقة .

فماذا عن اللغة الابلائية ولغة ماري القديمة (ما قبل الصرغونية) ؟ كنا قد ذكرنا سابقا ، بان ماري قد خضعت للحكم الابلائي في فترة من فترات تاريخهـا القديـم ، وخضعت من جهة اخرى مرارا للسيطرة الرافدية ، واعتبرت لغتها ، حتى الكشوف الابلائية ،لهجة اكادية لها العديد من الميزات ، اذ كانت ابلا في ذلك الوقـت مجهولـة تماما ، ولكن في نصوص ماري التي درست نلاحظ قسمين : أحدهما الحديث ، أي

الذي دونت به السجلات الملكية (٣٦) ، والذي يعود للفترة العمورية وعهد سلالة ليم ، وهم القسم الذي اعتبر لهجة اكادية ـ بابلية .اما القسم الثاني ، فهو النصوص القديمة التي تعود للفترة الاكادية والسومرية والتي كانت عبارة عن بعض النصوص الاقتصادية(٣٧) ، والتعويذات ، وبعض نصوص هبات مقدمة لمعبد الالهة عشتار .

هذه النصوص ليست بلهجة أكادية او بابلية ، وانما نصوص تمت للابلائية بصلات هامة كما سنلاحظ بعد مقارنتهما ، فقد استعملت اداة الجراش îs من او الى، التي تفردت بها الابلائية كما لاحظنا ، كما استعمل ضمير المفرد المذكر الغائب سود او شو sud-ns ، في النصوص المارية العائدة لعهد الملك ايبلول (٣٨) ، كما تعرف في الابلائية والاكادية القديمة ، وفي لغة ماري القديمة . استخدمت بعض المقاطع كافعال ، كما في المقطع سك ريك Sag-Rig7 هو اعطى تعويذة ، وفي إي ـجوب i-Gub= هو ينهض(٣٩) ، وهذا ماعرف في التقاليد الكيشيةفي الكتابة،وفي ابلا كذلك. ميزة اخرى مشتركة بين ابلا وماري ، استعمال بعض المقاطع السومرية النادرة الاستعمال مثال دول تمثال ، واب+اش AB+AS شاهد ..الخ.

اذا أردنا اعتبار لغة ماري القديمة أكادية ، فلماذا كتب اسم ابن الملك ايبلول ممخارسو ومعناها (من الذي يناوؤه) على الشكل التالي Mim-mâ-ḫir-sū ولم يكتب كما كان يجب ان يكون بالاكادية : مينما خرسو Min-ma-ḫirsū لقد استعلت الميم محل النون (٤٠) .

وانها لكثيرة ملامح التشابه بين لغتي ماري (ما قبل الصرغونية) والابلائية، فلدينا مثلا نظام السنين السبعي أو الثماني ، وكذلك تسميات الالهة ، وتسميات شهور السنة وترتيبها ، وكلها تشابهت في البلدين وتشابهت مع التسميات السومرية في نصوص أبو الصلابيخ ، وعليه فمن المفيد هنا الاشارة الى ان الفكرة القائلة بان نصوص ماري (ما قبل الصرغونية) سومرية ، تبددت الان ، فعديدة هي نقاط التباعد وان كان لابد للحضارات أن يكتسب بعضها من بعض .

ونلخص ما سبق فنشير الى عدة نقاط مهمة ، اولا : لا يمكن اعتبار الابلائية لهجة اكادية ، وذلك لان هذه الاعداد الضخمة من النصوص كتبت في وقت لم تكن فيه الاكادية لغة الشرق القديم ، كا تميزت الابلائية عن الاكادية بكثير من نواحيها في كثير من النواحي.

ثانيا : لا يمكن اعتبار الابلائية عمورية ، حيث تنفصل بنفسها ، مثالا على ذلك

عبارة (من يشبهه) في الابلائية هي مي كا ال Mika -'il ، وفي العموريــــة هي مينوكي ال Mannu-Ki-'il

ثالثا : الابلائية لا يمكن اعتبارها كنعانية ، خلافا لما حاول بيتناتو ادعاءه ، ونحـن لن نوغل في هذه الادعاءات ، التي غدت في عداد المرفوضات ، ورد عليها فكرة فكـرة اللغوي الايطالي أركي(٤١) ، والكثير من علماء الاشوريات . فاللغة الابلائية تتباين تماما في نظام حروفها الصوتية عن الكنعانية ، فكلمة عبد في الابلائية والاكادية تأخذ حرفين (الالف والعين) أي تكتب ابدو àbdu وعبـــدو ébdu ، بينمـا تحافـظ عـلى لفظة واحدة في الكنعانية فهي عبد ebed فالحرفان أ ـ ع يتميزان تماما في الكنعانية

كالعبرية مثلا ، اما في الاكادية والابلائية فلا يتمايزان ، وبهذا لا يكن مطلقــا اعتبار الابلائية هي الكنعانية القديمة(٤٢) .

اخيرا نقول ، ان دراسة لغة قديمة كالابلائية ووضع قواعد ثابتة محددة لها لم يزل بعيد المنال ، ويحتاج من علماء الساميات لكثير من الجهد ، وخاصة في عمليــة تحديد قواعدها وتفريقها عن الاكادية ، واما ايجاد مكان ترتيبها بين اللغات السامية الشرقية ، فهو امر ما زال موضع نقاش ، وباختصار ، نستطيع القول بان الابلائيــة يجب ان تضاف لعائلة اللغاء السامية كواحدة منها ، قريبة من الاكادية والعمورية ، تفرعت عنها لغة ماري في احد الايام ، وككل معطيات الحضارة الابلائية هذا الموضوع لايزال بحاجة للكثير من الوقت .

الحواشـــي :

(1) Parrot, A., **Mari Capitale Fabuleuse,** 1974.

(2) Finet,A., « Les Temples Sumériens du Tell Kannâs, » **Syria,** L II, 1975, pp. 157 - 174 .

(3) Kupper, JP . et Sollberger, E., **Inscriptions Royales Sumériennes et Akkadiennes,** 1971, pp. 79 - 114.

في هذا المؤلف راجع النص : IV 17.35.

(4) المرجع نفسه ، النص : Iı - II , 28 .

(5) Freedman, DN., « The Nuzi Ebla »,BIbR. XL/1, 1977, pp.32-33.

(6) Mattiae, P., « Ebla à l'Epoque d'Akkad, » **CRAIB,** 1976, pp. 190-215.

(7) Mattiae, P., «Tell Mardikh, The Archives and Palace,» **J.Archaeology,** XXX/4, 1977, pp. 244-253.

(8) Pettinato, G., « L' Atlante Géografica del Vicine Oriente antica attestato ad Ebla e ad Abu Salabikh , » **Orientalia,** 47 / 1, 1978, pp. 50 - 73 .

(9) Biggs, RD ., « The Abû Sâlâbakh tablets - Apreliminary survey », **Cuneiform studies,** XX/2,1966, pp. 73-88.

(10) انظر المرجع رقم ٨

(11) Pettinato, G., « Relations entre les Royaumes d'Ebla et de Mari au troisième millénaire d'aprée les archives royales de Tell - Mardikh - Ebla ,» **Akkadica** II, 1977, pp. 20-29.

(12) انظر المرجع رقم ٨

(13) Archi, A., « Diffusione del culto DI' NI - DA-KUL, » **SEB** I/7-8, 1979, pp. 105 - 113 .

(14) Archi, A., « An administrative practice and the Sabbatical year at Ebla », **SEB** 1/5-6, 1979 pp. 91-95,

(15) Mattiae, P., « Preliminary remarks on the royal palace of Ebla », **Syro - mesopotamian Studies,** 1978/II.

(16) انظر : المرجع ١١ ، الوثيقة رقم (TM 75. G. 2367)

(17) Mattiae, P. , « Tell Mardikh : Ancient Ebla, » **AJA** , 1982 / 2 , pp. 540 - 543 .

(18) Archi, A. , « Notes on eblaite geography , » **SEB,** 1980/ I, pp. 1-10.

(19) Fronzaroli, P., « Problemi di fonetica eblaïta , I » **SEB** I/5-6, 1979, pp. 65 - 89 .

(20) Pettinato, G.,« Testi Cuneiformi del 3e millenario in paleocananeo rinvenuti nella campagna 1974, Tell Mardihk - Ebla , » **Orientalia,** XLIV, 1975, pp. 361 - 374.

في هذا المقال راجع صفحة ٣٣٦

(21) Biggs, R.D., « Semitic Names in the Fara period » **Orientalia,** 36, 1967, pp. 55-56 .

(22) Op. Cit., 20 .

(23) Geld , i.J., « Thought about Ebla , » **Syro - Mesopotamian studies** , 1978 / I .

(24) انظر : المرجع ١٩ ، ص ٣٧٢

(25) Pettinato, G., « The Royal archives of the Tell Mardikh - Ebla, » **Bar,** 39/2, 1976 , pp. 44-53 .

راجع في هذا المقال ص ٥٠

(26) الامثلة التي نوردها مستمدة من ترجمات بتيناتو في المرجعين ١٩و٢٥

(27) راجع المقال في المرجع ٢٣

(28) Archi, A., « Ancora su Ebla e la Biblia » , **SEB** II/2-3, 1980 , pp.17-39.

(29) المرجع ٢٣ ، ص ١٩ـ٢٠

(30) المرجع ٢٠ ، ص ٣٧٠

(31) المرجع ٢٠ ، ص ٣٧٢

(32) Linet, A., « Observations aur la grammaire des anciennes tablettes de Mari , » **Syria,** L II, 1975, pp. 37-52 .

(33) انظر : المرجع ٢٥ ص ٥٠

(34) Dossin, G., « Les Inscriptions des temples de Ninni - Zaza et de (G) Istarat, » **MAM** / III, 1967 pp. 307 - 331.

(35) انظر المرجع ٢٣ ص ٢٣

(36) وثائق ماري الملكية منشورة في عدة مجلدات ، نشرتها البعثة الاثرية الفرنسية التي عملت بموقع ماري برئاسة البرفيسور اندرية بارو (A.Parrot) تحت اسم (Archives Royales de Mari)

كما درست هذه الوثائق ايضا في جولية (Syria) الفرنسية .

(37) Jestin, R., « Textes économiques de Mari, (IIIe dynestie d'Ur) »,**R.A.,** XL VI, 1952, pp. 185 - 202.

(38) Sollberger, E., « Lost inscriptions from Mari » XVe, **RAI,** 1967 , pp. 103 - 107.

(39) انظر : المرجع ٤ ٣

(40) انظر : المرجع ٢٣ ص ١١

(41) انظر : المرجع ٢٨

(42 انظر : المرجع ٢٣ ص ٢٦

مـاردو (الأموريّون) في نُصوص إيبلا

بقلم الفونسو اركي
استاذ المسماريات في جامعة روما وعضو
الهيئة الدولية لدراسة نصوص ايبلا
عربها من الانكليزية
قاسم طوير
المديرية العامة للاثار والمتاحف

ان اقدم دليل وثائقي على كلمة مارتو (أي امورو) موجود في رقيم مسماري ظهر في موقع فارة بالعراق ، حيث يرتبط مع شخص سومري اسمه (اه ـ سو ـ (بو) اج) يقبض راتبا من مزارع اسمه (إنجار) . ويرد ذكر الاسم مارتو اسما لشعب في وثائق السلالة الاكادية ، ويرقى تاريخ بعض تلك الوثائق الى عهد الملك الاكادي شار ـ كالي ـ شارى ، ويرقى تاريخ البعض الاخر ـ على ما نظن ـ الى عهد سلفه الملك نارام ـ سن . وها هو ارشيف ايبلا يزودنا بحوالي ثلاثين شاهدا على هذا الاسم، وجميعها ترقى الى عهد اقدم بقليل من عهد السلالة الاكادية .

اسفر الجدل العلمي عن تحديد (الجبال التي انهزم فيها الاموريون ـ ما رتو ـ أم ـ على يد الملك شار ـ كالي ـ شاري) في جبل البشري الذي يمتد بين تدمر والشمال الشرقي من نهر الفرات . ولقد اتاح هذا التحديد التعرف على مناطق ، أو على الاقل على منطقة من مناطق استقرار الاموريين في اواخر القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد .

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة اوينتاليا الصادرة عن المعهد البابوي للدراسات المشرقية في روما(العدد ٥٤ لعام ١٩٨٥) .

نستبين من ثنايا نصوص ايبلا ان الاموريين عاشوا في تلك المنطقة منذ القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ، فالرقيم المسماري /ت.م /٧٥/ج/١٣١٧/ ، الحقل التاسع السطر الثالث يمكن ترجمته كالتالي : « اقمشة من اجل فلان في ايمار (مسكنة على الفرات) نذرا منه بعدما هلك الاموريون (أو لان الاموريين قد هلكوا) ، وخروفا من ماشية فلان نفسه ضحية منه للنصر الذي تحقق . اقمشة من أجل فلان في ايمار عندما هلك الاموريون .

وفي جميع الاحوال يبدو واضحا ان كلمة نصر (بالسومرية : جين — شه)تتعلق بالانتصار على الاموريين (مارتو — تيل). لذلك فانه اذا لم يكن اهالي ايمار (مسكنة/ بالس على الفرات) مسؤولين عن هزيمة الاموريين فلابد انهم كانوا مشاركين في تلك الحادثة ، لاسيما وانه قد تبين ان إيمار موجودة في موقع مسكنة / بالس على الفرات، وبالتحديد الى الشمال الشرقي من جبل البشري . يضاف الى ذلك ان الرقيم /ت.م /٧٦/ج/٥٣٣/ يصف أحد سكان مدينة توتول (لعله تل البيعة المجاور لمدينة الرقة الحالية) ، بانه من مواطني « مارتو » . يرد لفظ هذا المكان في نصوص ايبلا في صور مختلفة ، فهو تارة « مارتو » وتارة اخرى « ماردو » ، وبما ان ايبلا استخدمت الاسم الدارج في بلاد مابين النهرين فانه من المؤكد ان الاسم ذو اصل سومري ويعني بالدرجة الاولى « جهة الغرب » وبالدرجة الثانية « الناس القاطنين في الشمال الغربي ». وبناء على ذلك فان الاسم يطلق على منطقة وليس على مدينة ، أي أن هناك منطقة مارتو وليس هناك مدينة باسم مارتو . يضاف الى ذلك انه من النادر ان يرد ذكر اسم مدينة بهذه التسمية على طول الفرات أو الخابور ، وهذا يعني ان مارتو كانت على حدود الطرق التجارية التي سلكها الرسل القادمون من ايبلا . وعلى هذا فانه يأكد لنابطريقة غير مباشرة صحة المأثورات السومرية التي وصفت الاموري بانه « انسان ثقيل الظل يعيش في الجبال » أو « انسان لايعرف حياة المدن » أو « الانسان الذي يأكل اللحم نيئا » .

غير ان هذه الصفات تتعارض مع حقيقة ان نصوص ايبلا، خلافا لنصوص السلالة الثالثة في اور بجنوبي الرافدين ، اضافت صفة « الملك » الى الاموريين ، وذلك بكلتي الصيغتين ، أي لفظة « إن » السومرية التي استخدمها ملوك ايبلا لانفسهم ولنعت حكام المدن السورية ، ولفظه « لوجال » التي استخدمها الديوان الايبلائي في نعت حكام بلاد ما بين النهرين بوجه عام .

ويبدو ان اهالي ايبلا استخدموا الكلمة التي درجوا على نعت ملوك الامم الاخرى بها ، على الرغم من احتمال علمهم بالكلمة التي كانت على علاقة مع ايبلا فان للاموريين مجلس لكبار السن (اب × اش) الى جانب الملك .

تذكر النصوص ارسال ثلاثة انواع من الاقمشة الى ملك الاموريـين (ماردو) وهي : عباءة (أذا ـ أوم ـ توج) وجلباب (أكتوم ـ توج) ، وحزام (اب + I/III دار ـتوج) .

وكانت ايبلا ترسل الانواع الثلاثة الى كبار السن في بلاد الاموريين ايضا ، وذلك بمعدل ١٢ قطعة من كل نوع كما يرد في النص الاول المنشور في المجلد الاول من ارشيف ايبلا ، و ١١ قطعة من كل نوع كما يرد في النص / تم/٧٥/ ج / ٢٢٧٩ ، و ١١ قطعة عن كل نوع كما يرد في النص /ت.م/٧٦/ج/٥٣١/ ، و٩ قطع من كل نوع كما يرد في النص /ت.م /٧٥/ ج ١٢٥٢ / .

بيد اننا لا نستطيع ان نستخلص من ذلك عدد كبار السن في مجلس الملك الاموري، لكننا نعرف ان عدد الالبسة المرسلة الى كبار السن في مدن مثل ايمار (مسكنة على الفرات) وحران وكاكميوم تتراوح بين ثلاث وخمس قطع من كل نوع من الانـــواع المذكورة اعلاه (انظر المجلد الاول من الارشيف الملكي في ايبلا ، تحت اسم : أب×أش).

واخيرا هناك مرتبة ثالثة في هرم البناء الاجتماعي الاموري بعد الملك ومجلـس كبار السن وهي رتبة « اوغولا » أي الناظر ، وقد بلغ عددهم لدى الاموريين ستة ، وذلك كما وردت في النص ت.م /١٧٥/ ج / ١٨٩٥.

سبق ان نوهنا بالهزيمة التي الحقتها ايبلا بالاموريين . لكن ايبلا عقدت معاهدة مع الاموريين أيضا ، ويتبدى ذلك في النص/ت.م/٧٥/ج/١٧٥٥/ ، حيث يجلب ستة من الناظرين الاموريين تقدمة من الزيت وفاء للقسم الذي أدوه ، والنص المذكور هو: « اقمشة من اجل فلان وذلك من الناظرين في مارتو الذين ذهبوا لتقديم الزيت وتأدية اليمين في معبد كورا » . وتجدر الاشارة الى ان العلاقات السلمية بين ايبـلا وماري (تل الحريري على الفرات) قد توثقت بحفل ديني مماثل . فالربة كورا كانت ربــة القسم في ايبلا وربما في جميع المدن السورية الاخرى ...

يضاف الى ذلك كله ان بلاد مارتو (الاموريين) كانت من بين البلدان التي تشترك في عبادة الاله نيكادول الذي كان من الارباب الرئيسيين في ايبلا ، وذلك بناء على الرقيم المسماري /ت.م/٧٥/ج/٢٣٧٧/ .

ان معظم النصوص المتعلقة بتوريد الاقمشة في الارشيف الملكي في ايبلا لاتذكر اسم الجهة المرسل اليها ، لكن الرقيم المســـماري /ت.م/٧٥/ج/٢٢٣٩/ ، والرقيم

/ت.م/ ٧٥/ج/١/٢٤٠١/ ، والرقيم المنشور تحت رقم /١٥/في المجلد الاول من الارشيف الملكي في ابيلا يمكن ترجمة محتوياتها كالتالي : اقمشة من أجل فلان (او عدة اشخاص) من بلاد الاموريين (مارتو) .

فيما يتعلق بانواع البضائع الاخرى فانه ليس من المؤكد اذا كانت كمية الفضة البالغة ٢٫٣٨٠ كغ والمسجلة في الرقيم المسماري/ت.م/٧٥/١٢٣٨/ مرسلة من الاموريين الى ابيلا ، او ان ايبلا ارسلتها الى الاموريين .غير ان الرقيم المسماري/ت.م/٧٥/ج/ ٢٤٩٠/ يذكر توريد بعض الاقمشة الى المدعو يسمع ـدامو (يسمع تموز؟)، الذي ارسل بعض النبيذ الى ملك ايبلا ابي ـزكير وتم استلامها في بلاد الاموريين (مارتو). ونستفيد من محتويات الرقيم / ت.م /٧٥/ ج / ١٠٠٧٩ / والرقيم / ت.م /٧٥/ ج /١٠٢٥١/ والرقيم / ت م /٧٥/ج/١٦٣٨٠/ ، ان الاموريين كانوا يرسلون الغنم الى ايبـلا ، اما الرقيم المنشور تحت رقم /١٥/ في المجلد الرابع من الارشيف الملكي في ايبلا فانه يتحدث عن وصول كمية معينة من الصوف من بلاد الاموريين.

يتألف الرقيم المسماري /ت م/٧٥/ج/٣٠٩/ من قائمة باسماء مستخدمين منهم ٢٠ فردا من بلاد الاموريين و ١٠ من حران و ٨٦ من مدينة عيبال ، لكن لا توجد اشارة الى نوع العمل المطلوب منهم انجازه . اما الرقيم المسماري /ت م /٧٥/ج/٥٤٠/ فانه يسجل اسمين اخرين من بلاد الاموريين على اساس انهما كانا لاجئين او هاربين (زاغ).

ثمة خمسة عشرة اسما اموريا ومن بينهم شخص يدعى (اموتي) ومشفوع بلقب ملك (لوغال) . وهذا الاسم لا يظهر مرة واحدة في وثائق ايبلا فهو يرد اسما لمستخدم لدى احد موظفي بلاط ايبلا ، واسما لاحد ملوك مدينة ارادو . كما في الرقيم المسماري /ت.م/٧٥/ج/١٣٧٣/ ، ويرد في صيغة التصغير اسما لعدد من مدينة ابسو قرب قادش ومدينة جرمو ، واسما لاحد الموظفين (لوكار) في ماري.

ثمة شخصان اموريان في النصوص المسمارية العائدة لسلالة اور الثالثة ببـلاد ما بين النهرين يحملان اسم « ياموتوم » و « ابي ـ اموتوم » ، وثمة اتفاق على ان هـذا الاسم مشتق من فعل «مات»، وقد راج هذا الاسم بين الاموريين خلال العهد البابلي القديم مثل يموت ليم ، ويموت ـ بعل .

بناء على ذلك فان الاسم الايبلائي «اموتي» يمكن ترجمته «يموتو» لان الالف في لغة ايبلا يمكن قراءته (يـا) ايضا (انظر بحث الاستاذ بيليو فرانزارولي بعنوان مواد من اجل معجم ايبلائي ـ قيد الطبع).

وثيقة مقدسية تاريخية جديدة

د. كامل جميل العسلي
الجامعة الاردنية

كناب الوقف الذي أنشــأه الملك الظاهــر بيبرس بن عبــد الله البندراقي الصالحي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ على مقام النبــي موســى عليه السلام

تقديــم :

للملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ ــ ٦٧٦) سلطان مصر المملوكي الكبير ، فضلا عــن بطولاته الحربية الباهرة ، أعمال عمرانية جليلة وحسنات عميمة في طول البلاد الشامية وعرضها . وهو قد أحب بيت المقدس وزارها ثلاث مرات سنة ٦٦١ هـ و سنة ٦٦٤هـ وسنة ٦٦٨هـ ، وجدد بناء ما كان تهدم من قبة الصخــرة ، وجدد قبــة السلسلــة وزخرفها ، ورتب برسم مصالح المسجد في كل سنة خمسة آلاف درهم ، وأنشــأ بجوار القدس خانا كبــيرا للمسافريــن . وكان من مآثــره أيضــا انــه بني قبــة ومسجدا على قبر النبي موسى عليه السلام قبلي اريحا ووقف عليه وقفا سنة ٦٦٨. وقد صار مقام النبي‌موسى من بعد مقصدا لالاف الزوار الذين كانو يؤمونه في « موسم النبي موسى » الشهير في فصــل الربيع من كل عام (آذار أو نيســان) . وقد كنت ابحث عن وقفية الظاهر بيبرس‌على مقام النبي موسى منذ بعض الوقت الى أن وجدتها في صدفة من محاسن الصدف في الكتاب المخطوط ، الذي لم يتم على ما يبدو ، « اعلام الاسلام في مواطن الانبياءفلسطين » للعلامة المرحوم عبد الله مخلص (ص ١٣١ ومابعدها) وهأنذا أبادر الى نشر هذه الوثيقة المقدسية الجديدة التي تتحدث عن مأثرة من مآثــر السلطان العظيم ، وصفحة من صفحات المجد الغابر . وهذا هو نص الوقفية (التي ذيلناها بحواش وتعليقات) :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس لك من دنياك الا ما اكلت فافنيت او لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت »(١) . وقال صلى الله عليه وسلم « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : علم ينتفع به وولد صالح يدعو له وصدقة جارية على يديه »(٢) . ولما كان أحسن الصدقات وأبر المبرات ما لا ينقطع أمده ولا ينتهي مدده ، وهي الصدقة الجارية الباقية بقاء هذه الدار الفانية لا تكون مشروطة بالحياة ولا مقطوعة بالممات وذلك الوقت الذي تدوم فوايده وتبقى عوايده فيحيى ذكر واقفه عند صرف ريعه الى مصارفه ويكون له عمرا ثانيا . ولقد شرف الله سبحانه وتعالى ، تواتر على البرايا بره وتوالى ، بشرف سلوك هذه الطريقة صاحب هـذه المجلة الشرعية والوثيقة المرعية المرضية اليقينية مولانا السلطان الملك الظاهر العادل المؤيد المظفر المنصور ركن الدنيا والدين منقذ الاسلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين فاتح الامصار مبيد الافرنج والتتار مقتلع القلاع من أيدي الكفار وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك ملك الزمان صاحب القرآن مسترد ضوال(٣) الاسلام من أيدي الطغيان ملك البحرين مالك القبلتين خادم الحرمين الشريفين الآمر ببيعة الخليفة(٣أ) قسيم امير المؤمنين خلد الله سلطانه وذلك بعد عودة ركابه العزيز من الحج المبرور وتوجهه لزيارة القدس الشريف تقبل الله عنه في منابه(٤) فأنشأ أنواعا من بقاع الخيرات السنية وأبنية الحسنات البنية فمن جملة ذلك المقام الكريم الذي انشأه على ضريح موسى الكليم على نبينا وعليه افضل الصلاة والتسليم . ووقف حضرة الواقف العالي الشان السامي المكان افاض الله تعالي عليه في جميع الازمان سجال البر والاحسان لمصالح هذا المقام الكريم المبارك عدة من اصناف الاوقاف بنية وافية وعزم كاف فمنها الاراضي والاملاك الجارية في ملكه وتحت تصرفه والتي ابتاعها من ماله الخاص ، وهي جميع القرية المسماة بترمسعيا(٥) وجميع القرية المسماة بالمزرعة(٦) وجميع القرية المسماة بخربة ابي فلاح(٧) وجميع ارض قرية سور باهر(٨) وكلها من اعمال القدس الشريف ومنها جميع الطاحونة الواقعة على المياه المعروفة بواد القلط(٩) وجميع مياه واراضي هذا الوادي وجميع مياه واراضي الفوار(١٠) وقرية اريحا بكاملها ، ومنها جميع أراضي الغور الواقعة بين دير السيق(١١) غربا الى زعترة (١٢) والبحيرة المنتنة(١٢) شرقا من أعمال القدس الشريف ايضا ارضها وترابها وحجرها وماءها وشجرها بجملة مالها من الحدود والمرافق والتوابع واللواحق والطرق والمسالك وساير ما لا بد منه لذلك ذكر او لم يذكر سطر أم لم يسطر وقفا صحيحا شرعيا حبسا صريحا مرعيا وسبيلا محكما مبرما مرضيا . ولقد تحقق ذلك وصح وتبين شانه واتضح حيث أقر واعترف مولانا السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري بانه وقف وسبل كافة ماذكر مجمعا او مفصلا

مما اعد للاستغلال من القرى والموقوفات بجميع حقوقها ومراسمها وحدودها ممايدخل الوقف بمقتضى الشرع المطهر .. أما البقاع المباركة المرقومة فقد وقفها وعينها ليتصرف عليها(١٣أ) في اطعام الطعام لزوار مقام النبي موسى الكليم عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والتسليم ابان موسم الزيارة من كل عام وفي الانفاق على التربدارية(١٤) الموجودين في مقام هذا النبي الكريم . ولا جناح على من وليها ان يأكل منها بالمعروف . وقد نصب متوليا لاقامة مصالح كافة الموقوفات ورعاية مهمات هذه المسبلات من البناء والتعمير والاستغلال والقبض والبسط والحفظ والضبط وأمور التسجيل عين العلماء والمدرسين الكرام بدر سما المعالي الفخام صدر اساطين الموالي العظام قدوة الصلحا الشيخ الشريف عبد الله بن يونس(١٥) وقد رام مولانا الملك الظاهر بيبرس سيد ملوك الارض على الاجماع المخصوص بملك اشرف البقاع ان يرجع عن وقفه هذا(١٦) ويرد الموقوفات الى ملكه القديم فعارضه المتولي المرقوم وتحاكما الى المولى الفاضل فخر الاسلام وشمس الائمة مظهر كلمة الله العليا الحاكم الموقع على الكتاب بتوقيعه الشريف المستطاب لازال عقد المسائل محلولة باسنان اقلامه فنظر في محل النزاع وشاهد في جانب المتولي رجحانا قويا وعاين في يده برهانا جليا وحكم بصحة هذه الاوقاف ولزومها على الشرايط المسطورة على رأي من يراه من الايمة رضوان الله عليهم حكما صحيحا شرعيا ووقفا صريحا مرعيا فصار وقفا لازما مسجلا لا يجوز بعد ذلك تغييره وتبديله « فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم »(١٧) وأجر الواقف على الله جرى ذلك وحرر في أواسط رجب سنة ثمان وستين وستماية .

شهود الحال

جمال الدين بن اقوش النجمي(١٨)	محمد بن عبد الله
عبد مولانا الملك وولي السلطان	ولي مولانا السلطان

(وقد كتب باعلا كتاب الوقف هذا وعلى الجانب اليسار منه : صدر من العبد الفقير اليه سبحانه وتعالى الخوجه جمال الدين بن ربيع(١٩) المولى خلافة بمدينة القدس عفي عنه) .

حواش وتعليقات :

(١) صحيح مسلم ، زهد ٢ .
النسائي ، وصايا ١ .

(٢) مسلم ، وصية ١٤ .
ابو داود ، وصايا ١٤.
الترمذي ، احكام ٢٦ .

(٣) ضوال ، جمع ضالة (مؤنث ضال) ، وهي الشيء المفقود الذي تسعى وراءه .

(٣) بيبرس هو الذي اقر خلفاء بني العباس بمصر ، بعد انقراض دولتهم ببغداد .

(٤) مناب : أناب الى الله : رجع اليه واقبل وتاب ، والمناب هنا : الرجوع الى الله والاقبال عليه.

(٥) ترمسعيا : قرية شمال شرق رام الله على بعد ٢٣ كم منها وتقع قرب قرية سنجل . يذكر أهلهـــا انهم حجازيون من بني مرة . تملك ترمسعيا ١٧٦١١ دونما ، والمشهور ان اراضي القرية موقوفـة على مقام النبي موسى . وهذا ما تؤكده الوقفية . (الدباغ : بلادنا فلسطين ج٨ ، ق٢ ، ص ٢٨٣ /٢٨٤) .

(٦) المزرعة : المقصود ما يعرف اليوم بالمزرعة الشرقية شمال شرق رام الله ايضا على بعد ٣ كم مـن طريق القدس نابلس عندالكيلو٣٣ . اقرب قرية لها سلواد ، من قرى بني مرة أيضا (الدباغ ، المصدر السابق ، ص٢٩٦) .

(٧) خربة ابي فلاح : شمال شرق رام الله . كفر مالك اقرب قرية لها ، صغيرة ، مساحتهاالان ١٩ دونما وتملك ٨١٨٦ دونما ،تحيط بأراضيهاأراضي ترمسعيا والمزرعة الشرقية ، والقرى الثـلاث متجاورة . (الدباغ ، المصدر السابق ص ٢٩٩) .

(٨) سور باهر : (صور باهر اليوم) : قرية تقع جنوب القدس قرب قرية بيت صفافا، يحيطباراضيها اراض عرب السواحرة وعرب العبيدية وسلوان وبيت لحم وبيت صفافا والقدس . كان عددسكانها ١٩٦١ ، ٢٣٣٥ نسمة .

(الدباغ ، المصدر السابق ص ١٦٩/١٧٠) .

(٩) وادي القلط : وادي يقع قرب اريحا تنتهي اليه المياه من تلال البيرة وعناتا والرام . وتتجمع فيـه ثم تستمر في سيرها نحو الشرق الى ان تنتهي بوادي الاردن . كان اهل القدس يؤمونهللنزهة . ويحتوي وادي القلط على اثار وبه مغارة فيها كتابات يونانية . (وطاحونة القلط) بها قناة ،ونفق منقور في الصخر وبقايا جسر .

(الدباغ ، المصدر السابق ص ٥٣٢) .

(١٠) الفوار : عين الفوار تقع الى الشمال الشرقي من قرية عناتا التي تقع خلف جبل الزيتون الـى الشمال الشرقي من القدس . وتقع قرب عين القلط ، بين هذه الاخيرة وعين فارة .

(١١) دير السيق : كان هذا الدير يقع على نشز عال قبلي القدس ، مشرف على الغور ، وعلى قبـة

موسى التي بناهاالظاهر بيبرس .
(بلدانية فلسطين العربية للاب مرمرجي الدومنيكي ص ٨٣ ، نقلا عن العمري) . ويقول مجيرالدين الحنبلي ان الظاهر بيبرس مر بالدير الذي يبعد عن القدس نحو نصف بريد ، عام ٦٦٨ هـ .. وكان فيه نحو ٣٠٠ راهبفأمر بهدم صوامعهم خوفا على القدس من العدو المخذول .
(الانس الجليل ، ج٢ ، ص ٨٧) .

ويعرف موقع الدير اليوم باسم « دير السوق » أو « خربة السوق » وهو موقع اثري . ويطلق على الموقع ايضا « دير الزق » و « خربة مشمش » .

(١٢) زعترة : يقول الدباغ (ج ٨ ، ق٢ ، ص ٤٩٨) : ان زعترة قرية قريبة من بيت لحمومنقريةتقوع. ولا ادري ان كانت هي المقصودة ، ولا أرجح ذلك ، ولعل المقصود قرية اخرى كانت الى الشرق من مقام النبي موسى وقرب البحر الميت .

(١٣) البحيرة المنتنة ، هي البحر الميت ، ومن اسمائها ايضا : بحيرة زغر ، وبحيرة لوط .

(١٣أ) كذا فيالاصل ، ولعل وجه الصواب ان يقال : « ليصرف ريعها » .

(١٤) التربدارية : القيمون على التربة او المقام .

(١٥) هو جد آل يونس (الحسيني اليوم) بالقدس ، فيما نعتقد .

(١٦) لما كان الامام ابو حنيفة ، دون تلامذته وباقي الائمة ، يبيح للواقف نسخ الوقف والرجوع عنه فان الواقف كان يقيم دعوى شكلية على الناظر او متولي تسجيل الوقف لاستعادة العقار الى ملكيتهعلى اساس ان الوقف الذي اعلنه غير لازم ويمكن الرجوع عنه . ولدى نظر الدعوى كان القاضي يثبت الوقف استنادا الى آراء الامام ابي يوسف وغيره من الائمة الذين كانوا يرون عدم جواز رجوع الواقف عن وقفه . وبذلك كان يتأكد لزوم الوقف وتثبت الوقفية .

(١٧) « فمن بدله .. سميع عليم » الاية ١٨١ من سورة البقرة .

(١٨) هو جمال الدين اقوش النجمي : كان مملوكا للملك الصالح نجم الدين أيوب ، ثم اصبح استادارا له (اي مديرا لشؤون قصره) ، وانتقل الى خدمة الظاهر بيبرس في ١٩ ذي القعدة سنة ٦٥٨ (٢٦ اكتوبر١٢٦٠) واصبح استادارا له أيضا . وفي سنة ٦٦٠ اصبح كافلا للممالك الشامية، أي نائبا للملك في الشام ، ثم عزل في ربيع الاول سنة ٦٧٠ . وتوفي في ٥ ربيع الاول سنة ٦٧٧،وقد اناف علىالسبعين .

(انظر الذهبي ، دول الاسلام ، ج٢ ، طبعة حيدر اباد ، ص ١٣٣) . وتاريخ ابي الفدا ،تحقيق رايسكه ج٥ ، ص ٣٠ . وابن تغري بردى « المنهل الصافي » ، مخطوط باريس Ar 2069 ورقة 5R,V وليوماير « مجلة دائرة الاثار الفلسطينية QDAP المجلد الثاني ، رقم١ (سنة ١٩٣٢) ص ٢٧ » .

(١٩) يقول الانس الجليل ج٢ ، ص ٢١٧ ، ٣٣٧ ،٣٣٨ : ان جمال الدين بن ربيع كان أمين الحكم في القدس (أي متولي شؤون الايتام في محكمة القدس) وهي وظيفة تولاها سنة ٨٨١ . وقد توفي في ١٣ جمادى الاولى سنة ٨٩٢ .

وتظهر الوقفية ان ابن ربيع تولى قضاء القدس أيضا .اما لقب الخوجة (الخواجة) الـذي يسبق اسمه فكان يطلق على المعلم او التاجر . والذي يظهر لنا ان ملاحظة عبد الله مخلص حـول صدور كتاب الوقف عن جمال الدين بن ربيع لا تعني كتاب الوقف الاصلي لبيبرس وانما كتـاب وقف يثبت كتاب الوقف الاصلي صدر في اواخر القرن التاسع الهجري (أي بعد كتاب الوقف الاصلي باكثر من مائتي سنة).

وكانت العادة ان القضاة كانوا يثبتون كتب الوقف الاصلية ، ويشهدون بصحتها ، عندما ترفع لهم قضايا تتعلق بالوقف ، قبل اصدار حكم في القضية .

ومن المؤسف ان عبد الله مخلص لا يشير الىالمصدر الذي نقل عنه كتاب الوقف .. (وهــو سجل من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس على الارجح) ، ولا يذكر رقم السجل ولاتاريخه .

الأرشيف الوطني الهندي في نيودلهي
وموجوداته من وثائق العراق والخليج العربي

د . مصطفى عبدالقادر النجار
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

يعد الارشيف الوطني الهندي أكبر مستودع للوثائق في قارة آسيا على الاطلاق، حيث انه يضم عددا ضخما من وثائق شركة الهند الشرقية وحكومة الهند البريطانية ويرجع تاريخ تلك الوثائق الى عام ١٧٤٨ .

والارشيف الوطني الهندي لا يمكن ان يستغنى عنه طلاب البحث في مختلف حقول المعرفة .وموجوداته لا تقتصر على الوثائق الهندية المحلية ، وانما تتعداها لتشمل وثائق معظم الدول الاسيوية التي تعاملت معها بريطانيا بشكل او بأخر ، بما فيها وثائق العراق وبقية أقطار الخليج العربي والجزيرة العربية التي هي موضع اهتمامنا في هذا البحث .

والسجلات تلك تمثل خزينا غير محدود لملايين الوثائق التي تغطي استراتيجية المنطقة بجوانبها المختلفة العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وحتى النفسية منها ، وذلك للفترة الحديثة .

تأسست دائرة الارشيف الوطني الهندي عام ١٩٨١ . وكانت تعرف باسم (دائرة السجلات الامبراطورية The Imperial Record Department) بعد ان برزت الحاجة الملحة لها ، وذلك بعد ان تكدست الوثائق والسجلات في الدوائر المختلفة وأصبح أمر اتلافها شائعا(١) .

وعليه فقد شكلت في كلكتا لجنة خاصة للاشراف على فرز الوثائق والسجلات للعمل على حفظ ما هو مفيد منها، وعين (المستر فورست Mr. Forrest) اول مسؤول للدائرة المذكورة حيث بدأ عملية تصنيفها وجمعها في مكتبة مركزية موحدة وذلك وفقا للاسس التالية :

١ ـ سجلات الشؤون الداخلية من عام ١٧٥٢ الى عام ١٨٧٩
٢ ـ سجلات اللجان الصحية من عام ١٨٤٥ الى عام ١٨٥٩
٣ ـ سجلات اللجان العسكرية من عام ١٧٧٧ الى عام ١٨٥٨
٤ ـ سجلات الاشغال العامة من عام ١٨٥٠ الى عام ١٨٧١
٥ ـ سجلات الشؤون الخارجية من عام ١٧٦٤ الى عام ١٨٢٩
٦ ـ سجلات الشؤون العسكرية من عام ١٧٨٦ الى عام ١٨٩٣

وقامت دائرة الارشيف بعد ذلك باصدار سلسلة من المنشورات المطبوعة للوثائق المتوفرة فيه غطت الفترات التاريخية المختلفة ، وضع بعضها باللغة الانكليزية وبعضها الاخر باللغة الفارسية .

والذي يهمنا من وثائق هذا الارشيف بشكل اساسي هو ذلك الجزء الخاص بدائرة الشؤون السياسية والخارجية (Foreign and political Department) التي كانت مسؤولة بشكل خاص عن ادارة الشؤون الخارجية والعلاقات الخارجية لشبه القارة الهندية . لذا فأن الوثائق الخاصة بالعراق والخليج العربي والجزيرة العربية نجدها في هذا القسم(٢) .

ان وثائق قسم الشؤون السياسية والخارجية كانت قليلة في بداية الامر ثم اخذت في الازدياد والتضخم تبعا لازدياد العلاقات الخارجية للسلطات البريطانية في الهند .

ونجد فهارس لوثائق القسم السياسي والخارجي تكاد تغطي جميع الفترات التاريخية منذ بداية تاسيس القسم وحتى بداية القرن العشرين(٣) . والفهارس هذه نجدها قليلة بالنسبة للسنوات الاولى من تاسيس هذا القسم ثم اخذت بالازدياد في السنوات التالية ، فمثلا لانجد للفترة من ١٧٥٦ ـ ١٨٧٣ الا مجلدين من الفهارس(٤)، ثم اصبح هناك فهرس واحد لكل بضع سنوات ، ثم صارت فهرسا واحدا لكل سنة، وفي المراحل الاخيرة اصبح هناك عدة فهارس للسنة الواحدة .

والفهارس هذه تربو على المائة فهرس جميعها غير منشور عدا فهرس واحد . اما الفهارس التي تلي هذين الجزاين المطبوعين فنجدها بوضعها القديم بخط اليد ، وقراءتها متعبة للغاية . وهي مفهرسة بحسب الحروف الابجدية(٥) .

وفهارس الفترات التالية للقرن التاسع عشر افضل للقارىء ، فهي مطبوعة ، والاسماء فيها واضحة للغاية ، وهناك يجد الباحث اسماء كالبحرين والبصرة وبغداد وغيرها . وقد ثبت رقم المجلد الذي وردت فيه هذه المعلومات والمناسبة التي ذكر فيها امام كل اسم من هذه الاسماء (٦) .

وبالنسبة للعراق والخليج العربي والجزيرة العربية موضع اهتمامنا الخاص ، نلاحظ ان السجلات الاولى لقسم العلاقات الخارجية لم تول تلك المناطق اهتماما كبيرا ، وذلك ان حكومة بومباي كانت تمارس سلطة كاملة في ادارة الشؤون الخارجية، وكان ارتباطها مباشرة بلندن دون ان تكون لها صلة بالمديريتين الاخريين (كلكتا ومدارس) . وحتى بعد تشريع البرلمان البريطاني عام ١٧٧٣ قانون التنظيم الذي خول كلكتا وحاكمها حق الاشراف على كل من بومباي ومدراس ، فان بومباي استمرت في ممارسة الانفراد بمعالجة الشؤون الخارجية للبدان الواقعة الى غرب شبه القارة الهندية ، وبضمنها العراق والخليج وشبه الجزيرة العربية(٧) .

ولهذا السبب يجد الباحث ان المادة المتوافرة في ارشيف كلكتا والموجودة في الارشيف الوطني الهندي عن العراق والخليج العربي والجزيرة العربية قليلة جدا .

وحدث شيء مهم غير هذه الصورة في القرن التاسع عشر ، وهو ان حكومة الهند في كلكتا بدات تمارس سلطة اكبر ونفوذا اوسع على الشؤون الخارجية الهندية ، واخذت تنتزع شيئا فشيئا الصلاحيات التي كانت تتمتع بها حكومة بومباي(٨) .

ولم تعد لحكومة بومباي اهمية تذكر في ادارة الشؤون الخارجية في أواخر القرن التاسع عشر وانحصرت ادارة تلك الشؤون بحكومة الهند في كلكتا . ومن ثم في دلهي بعد انتقال العاصمة الهندية اليهام عام ١٩١١(٩) . كما ان دائرة السجل الكبرى اصبحت تابعة لوزارة التربية الهندية بعد ان ظلت تابعة لوزارة الداخلية منذ تاسيسها حتى ذلك التاريخ.

وبعد انتقال العاصمة صار من الضروري أن تنقل السجلات الرسمية والوثائق الى المقر الجديد . وقد تم فعلا تخصيص مبنى مستقلا لها شيد عام ١٩٢٦ ، واكتمل

نقل المحفوظات له نهائيا عام ١٩٣٧ . وصار الارشيف الوطني الهندي بعد هذا التاريخ مستعدا لقبول خدمات الباحثين على الوجه الاكمل .

قررت الحكومة الهندية في كانون الاول عام ١٩٣٩ ان تفتح الباب ، بحدود معينة، لطلاب البحث والدارسين للافادة من المعلومات والاقتباس من الوثائق . وفي عام ١٩٤٣ فهرست موجودات الارشيف من الوثائق والسجلات في(١٠) ٣٩ مجلدا . وقد خففت بعض القيود على الباحثين بعد عام ١٩٤٦ ، وفسح المجال لهم للاطلاع على كافة السجلات لغاية عام ١٩٠١ .

وظل الارشيف الوطني الهندي يطالب الوزارات المختلفة بضرورة توسيع خدماته وان يكشف المزيد من الوثائق للباحثين لتشمل سنوات ما بعد عام ١٩٠١ .

وقد حدث تطور ملحوظ على الارشيف في اب ١٩٤٧ جعلت موجوداته تتضاعف بشكل غير محدود ، نتيجة لهجرة مختلف الوكالات السياسية والتجارية مقار اعمالها مخلفة وراءها سجلاتها ووثائقها كافة للارشيف الوطني . وهي بلا شك ثروة علميـة غنية لا تقدر بثمن لطـلاب البحث العلمي يمكن اخضاعهـا للدراسـة والاستنتـاج والتحليل وكشف الحقائق والتوصل الى نتائج في غايـة الاهمية وفي مختلف حقـول المعرفـة .

وقد واجه الارشيف الوطني صعوبة كبيرة في استيعاب هذا القدر الضخم مـن السجلات والوثائق ، حيث انها كانت من الكثرة بحيث تجعـل الارشيف عاجـزا عن استيعابها دفعة واحدة لاسيما وان معظم تلك السجلات والوثائق لم تكن منظمة وفق ترتيب موحـد .

وبينما كان الارشيف الوطني الهندي مشغولا بمواجهة ذلك السيل العـارم من المحفوظات واذا بوزارة الخارجية الهندية تفاجئه بقرار عام ١٩٤٩ بنقل حوالي مليون محفظة من محافظها ، والتي كانت من قبل محفوظة في سملا ، اليه (١١) .

وهكذا حصلت زيادة مفاجئة في حجم السجلات والوثائق في الارشيف وصـار مجموع ما يحتوي عليه قرابة ٥٫١١٣٫٠٠٠ محفظـة و ١٠٣٫٠٠٠ مجلد ، وهـو في نمـو مستمر .

ومما يجدر ذكره ان الحديث عن الارشيف سـيبقى ناقصا غـير متكامـل دون الاشارة الى المكتب الاقليمي (Regional Office) الذي شكل في بهوبال (Bhopal)

عام ١٩٥٤ . وكان هذا المكتب قد اسسته الحكومة المحلية في بداية الامر ثم تقدمت بـه تلك الحكومة الى الحكومة الهندية التي اوفدت بعثة خاصة لاستلام موجوداته وتنظيمها(١٢) .

وقد صار الارشيف الوطني الهندي محط انظار جميع دارسي شؤون اسيا ، وبضمنها العراق واقطار الخليج العربي والجزيرة العربية .

ويضم الارشيف الان تراثا اسيويا أكثر منه تراثا هنديا ، وهو في كل هذا يتميز عن دور السجلات البريطانية بقدر ضخم من المراسلات المحلية والوثائق الاصلية التي لا يمكن العثور عليها في مكان اخر .

وثمة ملاحظة أخيرة لابد من ذكرها عند المقارنةبين الارشيف الهنديوالبريطاني(١٣) والتي تهم كل باحث ينوي الرجوع اليهما ، وهي ان مستوى الخدمات يختلف في الهند عما هي عليه في بريطانيا من حيث التسهيلات وتهيئة مستلزمات البحث ، هذا اضافة الى ان طريقة الحفظ وفهرسة الوثائق والسجلات ليست بالمستوى المطلوب في الارشيف الهندي على العكس من الارشيف البريطاني حيث يعد ارشيفا متطورا على مستوى عالمي ، ويكفي ان نذكر ان عملية الاستعارة في الارشيف الهندي تتطلب انتظارا يتراوح بين ثلاث أو اربع ساعات ، وللباحث الحق في استعارة عشرة مجلدات فقط في اليوم الواحد ، على حين انه لاتوجد مثل تلك الصعوبات في الارشيف البريطاني . والامل معقود على مثقفي الهند ، لان يولوا هذا التراث العالمي العظيم اهمية خاصة . وان يتوجهوا لادخال احدث الطرق والوسائل لحفظ هذا الخزين العلمي الضخم من اجل النهوض بالارشيف الهندي الى مصاف دور الوثائق والسجلات المتقدمة في العالم .

ونتوجه بالدعوة الى حكومات اقطار الخليج العربي لان تسرع في تصوير الوثائق الخاصة باقطارها قبل ان تنالها عاديات الزمن .

الحواشي :

(١) راجع عن تفاصيل ذلك:
Handbook to Recorde of the Government of India in the Imperial Record Department .

(٢) كانت الوثائق تحفظ في دائرة موحدة يطلق عليها اسم (Public Dept.,) لغاية عام ١٧٥٦ حيث اسست دائرة العلاقات الخارجية (Foreign Department) ومنذ ذلك التاريخ صارت تحفظ الوثائق الخارجية بشكل منفصل .

(٣) K. D.Bhargava : **Cuide to the Recorde in the National Archives of India,** part I (Introduectory) New Delhi, 1959, pp. 1 —3 .

(٤) هما بعنوان : Index to Land Revenue Records .

(٥) معظم الورق الذي كتبت عليه تلكا لفهارس ممزق ومتآكل الجوانب . وقد قام الارشيف بلصق تلك الاوراق بالشمع الشفاف وتم حفظها بطريقة جيدة .

(٦) وثائق العراق والخليج العربي والجزيرة العربية ليست مصنفة تصنيفا منفردا متميزا وانما يمكن للباحث ان يعثر عليها تحت اسم المدن والموانيء التي تخص تلك المناطق . فهو يرجع في الفهرس الى حرف (B) ليعثر على مادته تحت اسماء : بصرة ـ بغداد ـ بوشهر ـ بندر عباس ـ بحرين، وهكذا.

(٧) K. D. Bhargava, **op. cit.**

(٨) **Ibid.**

(٩) نقلت حكومة الهند البريطانية العاصمة الى دلهي حيث اصبحت مقرا لنائب الملك ودوائره الاساسية.

(١٠) K. D. Bhargava, **op. cit.** p.8.

(١١) وذلك بعد ان حصلت الهند على استقلالها فقد ارتات وزارة الخارجية الهندية الغاء محفوظاتها الوثائقية من سملا وتحويلها للارشيف الهندي في دلهي .

(١٢) K. D. Bhargava, op . cit. p.8.

(١٣) لاخذ فكرة عامة عن وثائق الارشيف الهندي في دلهي ومقارنتها بوثائق وزارة الهند في لندن يمكن الرجوع الى المادة الوثائقية التي اعدها (Jean C. Lencaster) المنشورة في مجلتي :
1 — The British Association. Vol. IX, No. 43. April 1970, pp. 130-141.
2 — British Society for Middle Easterm Studies Bulletin, Vol . 3, No. 1, 1976 , pp. 29 - 35.
حيث يعطي تفاصيل تلك الوثائق واصنافها ومجلداتها وفتراتها التاريخية والصور المتوفرة في لندن من الارشيف الهندي .

علاقة كندة بدولة الفرس وعمالهم ملوك الحيرة

محسن يونس
جامعة دمشق

لم يكن لكندة مبدأ سياسي محدد عبر تاريخها التي عاشته وصنعته ، سواء في حضرموت ، ام في نجد ، قبل رحيلها او بعده .. فقد تعددت ولاءاتها السياسية في داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها حسب الظروف التي عاشتها . من هنا نجدها تارة مملكة عربية مستقلة لا تربطها اية احلاف او وصايات مع أية قوة اخرى ، وتارة على خصام كبير ومتأزم مع مملكة الحيرة وبلاد الفرس وتارة اخرى على صداقة وود مع الفرس وعمالهم العرب ، ونزاع مستعر من الروم وعمالهم ، او في حالة وئام وصداقة مع الغساسنة والبيزنطيين ضد الفرس ، ونجدها حينا اخر تنهج نهجا استقلاليا خاصا بها تقف من خلاله موقفا معاديا لجميع القوى المجاورة لها .

لم نجد في المصادر العربية وغيرها اشارة تدل بشكل مباشر او غير مباشر على اتصال قبيلة كندة بدولة الفرس او عمالهم العرب اللخميين في الحيرة قبل هجرتها الى غمر ذى كندة ، حيث يبدو انه لم يكن للكنديين ذاك البعد السياسي والقوة التي تؤهلهم الى الاتصال بالدول العظمى كدولة الفرس او الروم ، زد على ذلك انه لم تكن هناك من مصلحة مشتركة تلح على وجود مثل هذا الاتصال انذاك ، ولربما لم يكن ذلك بفعل السياسة الفارسية فاطماع الفرس في شبه الجزيرة العربية لها قدمها التاريخي منذ قرون قديمة قبل الميلاد(١) . ولعل السبب الذي ادى الى ذلك هو عدم بلوغ هذه القبيلة العربية حدا من القوة له التأثير في السياسة العربية الجنوبية ، الامر الذي لايغري قوة عظمى كدولة الفرس الى تكوين نوع من التحالف او الصداقة مع كندة دون تحقيق مكاسب من خلال ذلك . ويبدو ان انهماك كندة

في الصراعات الداخلية والحروب مع حضرموت(٢) هو الذي جعلها تظهر بهذا المظهر من الضعف فابعد عنها دولة الفرس العظمى المجاورة التي كانت بامس الحاجة الى وجـود حلفاء عرب اقوياء لها في شبه الجزيرة ، لما لهذه المنطقة من اهمية استراتيجية باللغة لبس بالنسبة لبلاد الفرس فقط بل للعالم القديم ايضا .

وبمجرد مغادرة كندة حضرموت الى نجد(٣) ، وبعد انتهاء فترة تأسيسها وارساء حجر الزاوية المتين في صرح مملكتها الذي تم في حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي على يد ملكها او (سيدها)حجر الملقب بـ (آكل المرار) ، نجد نجم كندة يسطع كقوة بارزة في تاريخ شبه الجزيرة العربية بشكل يبشر بامكان الاعتماد عليهافي فرض سياسات معينة على القبائل العربية المتنوعة في ديارها المختلفة ، كقبائل ربيعة ونزار ومعد ، التي شغلت رقعة واسعة في بلاد العرب القديمة (٤) .

وبعد ان وصلت كندة الى اوج سلطانها ومنعتها في ظل ملكها الحارث بن عمرو صاحب الشأن الرفيع في بناء تاريخ ومجد هذه المملكة ، بقوته وشجاعته وتوسعاتـه وكان قد ورث عرش كندة عن ابيه عمرو المقصور ، بدات هنا ،في هذه المرحلة التاريخية من تاريخ هذه المملكة العربية ، الدول الكبرى المجاورة لها والممالك العربية الاخـرى بالتقرب منها وخطب ودها املة بقيام نوع من التحالف معها ، ذلك ان تلك الـدول وجدت في هذه المملكة الفتية ما يحقق اهدافها في فرض سياسات ترغب في احلالها في شبه الجزيرة العربية .

لقد عاصر الحارث بن عمرو الكندي اعظم شخصيات الاكاسرة والقياصرة والملوك مثل الملك الفارسي قباذ وكسرى انو شروان ، والمنذر بن ماء السماء في امارة اللخميين في الحيرة ، والحارث بن جبلة الغساني في دولة الغساسنة ، والامبراطـور الروماني جستنيان ، وذلك بالاضافة الى معايشته للنزاعات الشديدة والحـرب بـين فارس وبيزنطة . فقد تقدمت سياسية بيزنطة بنتيجة تلك الصراعات علىالسياسة الفارسية في بلاد العرب القديمة ، ويعزو الباحثون والمؤرخون هذا التقدم الى النجاح العسكري الذي حققته دولة الحبشة ــ حليفة بيزنطة وشريكتها في الدين والمصالح الاقتصادية ــ باحتلال القسم الجنوبي والجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية (٥) . نتيجة لهذه الانتصارات البيزنطية ــ الحبشية ، كان لزاما على الامبراطورية الفارسية ، والحال هذه ، ان تجد لنفسها مخرجا تواجه فيه هذا التوسع وتوقفه عند حد معين الى ان تتمكن من دحره نهائيا اذا ما قيض لها ذلك ، وهذا امل حلمت الامبراطورية الفارسية في تحقيقه طيلة فترة الصراع البيزنطي الفارسي على شبه الجزيرة العربية .

في هذه الاثناء قام الملك الكندي الحارث بن عمرو بتجهيز حملة عسكرية كبيرة على راسها ولديه (حجر) و (جبلة) ، وذلك سنة ٤٩٧م حسب روايـة ثيوفانيس(٦) ،

وامرهما بمهاجمة حدود الامبراطورية البيزنطية في الاجزاء الجنوبية من بلاد الشام ، ثم اتبعها بحملة ثانية بعد اربع سنوات قادها ابنه (معد يكرب) وذلك حسب ثيوفانيس ايضا(٧) . ونجحت الحملة وتمكن الامير الكندي من تخريب مناطق كبيرة من بلادالشام. وقادت هذه الغارات جميعها الى عقد صلح بين الحارث بن عمرو الكندي والامبراطور البيزنطي انستاسيوس . وكان الطرف المفاوض من قبل بيزنطة هو جد الامبراطور الروماني دون ان يذكر المؤرخان (ننوز) و (ثيوفانيس)(٨) اللذان اوردا خبر هذا الصلح شروطا او بنودا له ، وربما تضمن توقف الحارث الكندي وابنائه عن غزو المقاطعة الرومانية ومن ثم اصبحت (فلسطين وشبه جزيرة العرب وفينيقيا) تنعم بالسلام والهدوء(٩) كما روى ثيوفانيس ، بالاضافة الى توجيه الحلف ضد فارس وعمالها في الحيرة .

ونجد في تاريخ (يوشع) العمودي(١٠) ما يؤيد مثل هذا ، اذ ذكر ان عرب الرومان الذين يدعون بني ثعلبة قد زحفوا في عام ٥٠٣م على حيرة النعمان واستولوا على قافلة كانت متجهة اليها ، وعرفت الحيرة في السريانية باسم (حيرتا النعمان) . وبنو ثعلبة الذين قاموا بالهجوم على الحيرة هم بطن من بطون قبيلة بكر بن وائل ينتسب اليها الحارث بن عمرو الكندي من جهة امه .. وكانت قبائل بكر وتغلب في تلك الايام تشكل عماد قوة مملكة كندة في غاراتها على اللخميين .

وفي هذه المرحلة نجد النزاع بين الحارث الكندي والمنذر بن ماء السماء يصل الى درجة حاسمة، فقد ذكر الكاتبان جون مالالاس (John Malalas) (١١) وثيوفانيس(١٢) ان ديوميدس (Diomedes) القائد الروماني في فلسطين تحارب لسبب ما مع رئيس كندة الحارث بن عمرو الكندي ، وان ذلك الرئيس تراجع امام ديوميدس ، خوفا من بطشه الى داخل البلاد نحو الهند (أي جنوب شبه الجزيرة العربية او شرقيها وهي غالبا ما عدها البيزنطيون من الهند) فلما بلغ ذلك الملك الحيري المنذر بن ماء السماء استغل فرصته وتبعه بحملة قادها بنفسه حيث تمكن من قتله والاستيلاء على ماله واهل بيته .

وما ان سمع الامبراطور البيزنطي جستنيان بهذا حتى امر جميع عماله العرب في مناطق حدود امبراطوريته بمطاردة الملك الحيري وجيشه ، وكان ممن ذكر من قبل هذين الكاتبين من عمال الروم الذين اشتركوا في مطاردة المنذر كل من ديونيسوس (Dionysuis) حاكم فينيقيا و (حنا) حاكم المنطقة الفراتية (وسيباستيانوس)و (كيلاركوس) ثم (الحارث بن جبلة الغساني) امير غسان الذي اصبح تابعا للرومان بعد موت الحارث الكندي .

ونستطيع ان نستخلص من خلال ما سبق ان العداء كان كبيرا بين الملك الكندي

والدولة الفارسية وعمالها اللخميين ، كما نستنتج مقدار متانة الصداقة البيزنطية الكندية . واما يتعلق بعلاقة الحارث الكندي بالغساسنة التي كان يحكمهم اميرهم الحارث بن جبلة فهذا امر ليس واضحا تماما ، ولكن الذي لاشك فيه هو انه لم تكن بينهما خصومة ، لان الحارث بن جبلة الغساني كان بين الذين خرجوا ليثأروا لمقتل الامير الكندي الحارث بن عمرو .

ان تاريخ الحارث بن عمرو الكندي لم يكن كله عداء للفرس وصداقة لبيزنطة وعمالها العرب ، فقد وردت روايات متعددة في المصادر العربية تذكر جميعها ان الملك الفارسي قباذ راى بعد اعتلائه عرش فارس من قوة الملك الكندي وشجاعته ، وما اظهره من مقدرة فائقة في مهاجمة الحدود البيزنطية في بلاد الشام واجبارها على توقيع معاهدة عدم اعتداء بين الجانبين ، انه من المناسب اتباع سياسة تقربه من مملكة كندة وملكها ، ويبدو ان الحارث الكندي كان يتوق الى اللقاء مع الفرس بعد ان أفهم بيزنطة انه ليس بالقوة الصغيرة في المنطقة العربية ، وليس بالامكان السيطرة عليه بسهولة ، وربما كانت رغبته في التعامل مع الفرس والملك الفارسي محصلة لظروف دولية كانت تخيم على شبه الجزيرة العربية وافقت مصالح كل من الملك الكندي الذي تاق للسيطرة على الحيرة ، ورغبة الملك الفارسي قباذ بالتحالف مع مملكة كندة وملكها القوي بعدما اوقف ارتباطه بالبيزنطيين اثر انعقاد الصلح بين بيزنطة وفارس عام٥٠٦م(١٣) ، وبسبب موقف الحيرة من الحركة المزدكية التي تبناها قباذ كما سنرى ، اضف الى ذلك ، ان رغبة الحارث الكندي في اقامة مثل هذا التحالف مع الفرس ربما جاءت نتيجة تحرك قبيلتي بكر وتغلب باتجاه الشمال تاركتين مناطقهما القديمة في اليمامة ونجد لتستقرا في العراق على مقربة من الحدود الفارسية ، وان هاتين القبيلتين كانتا تشكلان عماد قوته العسكرية وبدونهما كان لا يستطيع فرض شيء من رغباته السياسية ، لذا توجب عليه ان يتلاءم مع الوضع المستجد ويقبل بالتقارب مع الملك الفارسي والسياسة الفارسية(١٤) . اما ما يتعلق بالجانب الفارسي وملكه قباذ : فقد رات هذه الدولة لدى عاملها في الحيرة في تلك الاثناء المنذر بن ماء السماء انحرافا عن ولائه التقليدي للفرس وميلا نحو بيزنطة . وقد ايد قيام التقارب بين المنذر اللخمي وبيزنطة المفاوضات التي جرت بين الجانبين اثر الحملات العسكرية التي قام بها المنذر بن ماء السماء ضد ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في بلاد الشام واسية الصغرى وتمكنه من اسر قائدين عسكريين كبيرين لبيزنطة عام ٥١٩ م ، فقد اراد الامبراطور البيزنطي ان يفك اسر القائدين ويعقد صلحا وحلفا بين المنذر ودولته فأرسل الى المنذر عام ٥٢٤ م رسولا وبصحبته وفد كبير فاوض المنذر في امر اطلاق سراح القائدين البيزنطيين الاسيرين(١٥) . وقد وصفت تلك المفاوضات بانها كانت تحمل طابع الود لدرجة كبيرة ، وهذا امر بالطبع لم يكن يرضي الملك الفارسي ويوائم سياسة بلاده في بلاد العرب القديمة ، لذا كان على الدولة الفارسية ان تتخذ اجراء سريعا ضد سياسة المنذر العدائية وتنزل به العقوبة المناسبة بطرده من الحيرة .

ويقدم (مناندر Menander) دليلا آخر على اتباع الملك الحيري سياسة تفاهم مع بيزنطة بقوله : « كان المنذر يتسلم من الامبراطورية البيزنطية مساعدات بين الحين والاخر وذلك عندما كان لا ينحاز الى جانب الفرس ، وقد كان متفقا مع الرومان على الا يحرك ساكنا حين تنشب الحرب بينهما »(١٦) . ولعل هذه الاسباب وهذه الشواهد قد دفعت قباذ الى اتخاذ قراره بطرد المنذر بن ماء السماء من الحيرة وتولية الملك الكندي الحارث بن عمرو مكانه واتخذه حليفا بدلا منه ، ويبدو ان الظروف الدولية قد ساعدت على قيام هذا التقارب بين مملكة كندة وبلاد الفرس في هذه الاونة ، فكان التحالف(١٧) .

وعندي لم يكن اعتناق الملك الفارسي للمزدكية ورغبته في تعميمها داخل بلاده وعلى عماله العرب ، وما لاقاه هذا المذهب من ردود فعل سلبية على هذين الصعيدين ورفض المنذر اتباعه ، وقبول الملك الكندي الحارث الدخول فيه ، الا سببا مباشرا اتخذه الملك الفارسي لعزله واحلال الحارث محله . ويقدر بعض المؤرخين، وفي مقدمتهم جواد علي بعد مناقشات طويلة ان ذلك كان فيما بين ٥١٥-٥٣١م(١٨) . هذا وعلق جواد علي على هذه القضية بقوله : « وليس بمستبعد في نظري ان تكون هذه القصة (قصة دخول الحارث الكندي في المزدكية) ومتابعته دين قباذ من وضع أهل الحيرة المعادين لكندة ، وضعوها والصقوها بالحارث الكندي لتكون سبة له وعارا عليه وعلى كندة لهذا العمل الذي قام به تجاههم ، وهم كما نعلم يكرهون هذا الكندي وينكرون توليه الحيرة ، ولا يدخلون اسمه في قائمة ملوك الحيرة كما صرح بذلك ابن الكلبي»(١٩) .

وقد استقامت طبيعة الود والتحالف بين المملكة الكندية وبلاد الفرس طيلة تولي قباذ عرش الامبراطورية الفارسية ، لكن السياسة الخارجية الفارسية تغيرت بشكل جذري بموت قباذ وانتهاء حكمه واعتلاء ابنه كسرى انو شروان للعرش ، فقد كان منذ حياة ابيه عدوا لدودا للمزدكية ولتعاليمها ، بمجرد وصوله الى العرش اصدر امرا باعادة المنذر بن ماء السماء الى عرش الحيرة وطرد الملك الكندي الحارث بن عمرو منها ، فخرج طريدا باتجاه جنوب شبه الجزيرة العربية خوفا من انتقام المنذر وبطشه.

وبعودة المنذر بن ماء السماء ثانية الى عرش الحيرة بدات صفحة جديدة من الصراعات العسكرية بين مملكة الحيرة بقيادة المنذر وملوك كندة انتهت بمقتل الملك الحيري على يد الحارث بن جبلة الغساني في يوم مشهور من أيام العرب في الجاهلية اطلق عليه اسم يوم حليمة نسبة الى المكان الذي وقع فيه القتال (مرج حليمة قرب قنسرين) او نسبة الى (حليمة) بنت الحارث الغساني التي كانت تطيب جند أبيها وتلبسهم الدروع وتعدهم للقاء المنذر الحيري ، وقد ارخ المؤرخون هذا اليوم بعام ٥٥٤م(٢٠) .

ويبدو ان المنذر بن ماء السماء لم يقف عند حد مطاردة الحارث بن عمرو الكندي

او قتله(٢١) في منطقة الشمال من شبه الجزيرة العربية ، بل تابع الصراع مع ابنائه من بعده الذين بقوا متمسكين بما ملكهم واثدهم في حياته على بعض القبائل العربية العدنانية وصبروا على قتال المنذر الذي حاول تشتيت امرهم بالخديعة والمكر تارة وبالقتال تارة اخرى ، وحول هذا الامر يذكر لنا اليعقوبي في تاريخه(٢٢) : « انه لما قتل الحارث الكندي قام ولده بما كان في ايديهم من سلطان وصبروا على قتال المنذر طلبا بثار ابيهم . فلما راى المنذر تغلبهم على ارض العرب نفسهم ذلك ، واوقع بينهم الشرور فوجه الى سلمه الغلفاء بهدايا ، ثم دس الى شرحبيل من قال له : ان سلمة اكبر منك وهذه الهدايا تاتيه من المنذر ، فقطع الهدايا فاخذها ، ثم اغرى بينهما حتى تحاربا فقتل شرحبيل ، فكانت معه تميم وضبه فلما قتل خاف الناس ان يقولوا لاخيه سلمة ان اخاك قد قتل وجعل يسمع قولهم فجزع لقتل اخيه وندم على ان المنذر انما اراد ان يقتل بعضهم بعضا ، وفي ذلك قال سلمة شعرا البيتين التاليين :

ان جنبي عن الفراش لناب كتجافي الاسر فوق الظراب
من حديث نما الي فما يـر فأ دمعي ولا اسيغ شرابي .

واذا كانت كندة قد انهارت بانتهاء امر الحارث بن عمرو وابنائه من بعده بفعل صراعات ونزاعات القوى المختلفة وفي مقدمتها المنذر بن ماء السماء . فان محاولة الامير الكندي امرىء القيس بن حجر الذي بذل جهدا لا يعرف الونى للثار لابيه واعادة سلطان كندة تحت قيادته ، قد اصطدمت بسياسة الدولة الفارسية المناوئة لكندة وملوكها ، بالاضافة الى حقد الملك اللخمي المنذر الذي اراد بدوره اطفاء شعلة كندة واجتثاث جذورها بكل الوسائل المتاحة ، ولذلك نجده بمجرد التجاء قبيلة بني اسد اليه طالبة الحماية والنجدة ضد امرىء القيس الكندي يعلن لها حمايته ، ويعد العدة مع القبائل العربية الموالية له ، بالاضافة الى جيش الاساورة الذي ارسله انوشروان اليه ، لسحق الاماني والرغبات التي حلم بها الامير الكندي(٢٣) . وحول هذا الجانب من ملاحقة الدولة الفارسية وعاملها على الحيرة لكندة وملوكها يذكر ابو الفرج الاصفهاني في الاغاني(٢٤)، وابن خلدون في كتابه العبر(٢٥) . « ان امرىء القيس بعد ان انفضت عنه قبيلتي بكر وتغلب التجأ الى معشر الخير ابن ذي جدن احد ملوك حمير حيث امده بخمسمائة فارس وجنود اخرين لمقاتلة بني اسد فلما علمت اسد بهذه الحملة التجأت الى ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء الذي وجه في طلبه الفرسان من قبائل اياد وبهراء وتنوخ، وامده انوشروان بجيش من الاساورة ، فسرحهم في طلبه فتفرقت حمير ومن كان معه عنه امام تفوق جيش العدو هذا ، فنجا من المنذر في عصبة من بني اكل المرار ومعه شيء من ماله وادرعه كان قد ورثها عن ابائه » . ويذكر ابن خلدون ان معركة وقعت قبل ذلك جرح فيها امرؤ القيس ، وتحدث ابن قتيبة(٢٦) عن مقتل ثمانية عشر اميرا كنديا في (جفر الاملاك) بعد ان تمكن المنذر من اسرهم في حملته هذه .

واذا كانت معظم علاقات ملوك كندة من بني آكل المرار مع الفرس وعمالهم العرب علاقة نزاع وغزوات وحروب وقتال على نحو ما ذكرنا ، فان الصورة تأخذ شكلا مغايراً تماما بالنسبة لعلاقة ملوك كندة من (بني الجون) مع بلاد الفرس حيث يبدو ان عامل الزمن كان كفيلا بتغيير سياسات الجانب الفارسي ومملكة كندة بعد امرىء القيس بن حجر اخر امراء بني اكل المرار (حوالي منتصف القرن السادس الميلادي) . ففي هذه الفترة كانت فئة ثانية من حكام كندة قد ظهرت على مسرح تاريخها عرفت باسم (الجونيين) نسبة الى (معاوية الجون)(٢٧) .

لم يظهر حكم (معاوية جون) على بعض قبائل كندة فجاة بعد موت امرىء القيس ، بل يعود حكم الجونيين في المنطقة الشرقية لمملكة كندة الى زمن الملك الكندي عمرو المقصور الذي حكم عرش هذه المملكة بعد حجر آكل المرار . ففي هذه الفترة تولى اخوه معاوية الجون الحكم فيمنطقة اليمامة وهجر (البحرين)(٢٨). بينما سيطرت بجانبها قبائل عربية قوية بزعامة (كليب وائل) رئيس تغلب على نجد فانشأت قوةمهمة هناك في معارضة مقصودة لا لحمير وحدها بل لعمالها من كندة ايضا(٢٩) ..

واذا كانت مملكة كندة قد انهارت بموت الحارث بن عمرو واولاده من بعده في منطقة نجد بعد ملاحقة الفرس والمنذر بن ماء السماء لهم ، وهم من بقي منهم بالعودة الى حضرموت ثانية ، فان ما بقي من الكنديين في اليمامة تحت زعامة معاوية الجون ، كانوا قد تاخروا قليلا باللحاق باخوانهم في حضرموت لبعض الوقت . وفي هذا الوقت تعرض الكنديون الى يومين من اشهر ايام العرب في الجاهلية قوة وبأسا خاضهما الكنديون في اليمامة بكل ما استطاعوا من قوة ، هما (يوم جبلة) و (يوم ذي نجب)(٣٠)، وكانت نتيجتهما نهاية ما لكندة من اثر سياسي في شمالي ووسط شبه الجزيرةالعربية، الى جانب ولادة موقف سياسي جديد شغلته كندة مع الفرس .

لقد وقع يوم جبلة اصلا بين قبائل تميم وعامر ولكنه شمل عدة قبائل اخرى اشتركت في القتال حليفة لهذا الجانب او ذاك ، كان من بينها معاوية الجون ومن معه من رجال كندة حيث لقي مصرعه في المعركة ، وغادر ارض اليمامة على اثرها قسم كبير من الكنديين الى حضرموت كما يذكر الهمداني(٣١) . ومهما يكن من شيء فان الروايات العربية لا تذهب مذهب الهمداني في ان الكنديين اضطروا الى ترك الميدان في اليمامة والبحرين بعد وقعة يوم حليمة مباشرة ، فقد قاتل امير (هجر) من بيت الجون بجيشه من المرتزقة وكندة في وقعة (ذي نجب) في العام التالي ليوم جبلة ،وربما جاءت الضربة القاضية لكندة في يوم ذي نجب فكانت سببا مباشرا لانحلال قوتها نهائيا فيشمالي شبه الجزيرة العربية (٣٢) .. وما ان انتهى ال الجون من خوض ايامهم في منطقة اليمامة والبحرين حتى اشرف القرن السادس الميلادي على نهايته . وبدات اخر فلول الكنديين بالعودة الى مكانهم الاول حضرموت بعد ان تلقوا الضربة القاضية

فكانت عودتهم الى ديارهم السابقة كما يذكر الهمداني(٢٣)، ولابد انها ارتبطت بالتطلعات التوسعية الفارسية في جنوب شبه الجزيرة العربية .

فحول هذه الفترة ، وحول التطلعات السياسية الفارسية في بلاد العرب القديمة وما يمكن ان يكون لمملكة كندة من دور ، يذكر اولينذر . « ان هجرة الكنديين من اليمامة والبحرين الى حضرموت لابد انها حدثت في نهاية القرن الساس الميلادي والتي ترتبط حقا بالغزو الفارسي للعربية الجنوبية ، فلا بد ان كندة في هجر والمشقر قد اعتمدت اعتمادا مطلقا على الفرس الذي نشأ لديهم خلال النصف الثاني من القرن السادس اليلادي ميل قوي نحو التوسع السياسي في الخليج العربي ، ولما امتد هذا التوسع الى العربية الجنوبية ، فان كندة بعدما أصابها من شدائد في نجد واليمامة ربما هللت لامكان عودتها وهي حليفة للفرس الى منازلها الاولى واستئناف علائقها القديمة مع افراد قبيلتها من سكان تلك المشارف»(٢٤) .

---

* حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسالته « كندة في الاسلام حتى القرن الثاني للهجرة » باشراف الدكتور سهيل زكار .

المصادر والمراجع :

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى ، العرب في العصور القديمة ، دار النهضة العربية ، الطبعة الاولى ١٩٧٨م ، ص ٣٩٢ .

(٢) اليعقوبي : احمد بن واضح ، تاريخ اليعقوبي ، دار صادر بيروت ج١، ص ٢١٦ .

(٣) الحموي ،ياقوت ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٧ ج ٦ ، ص ٩٨.

(٤) الضبي ، المفضل بن محمد ، المفضليات ، شرح ابن الانبارى ، تحقيق لايل ، بيروت ١٩٢١ م. ص ٤٢٨ . الدينوري ، ابو حنيفة احمد بن داوذ ، الاخبار الطوال القاهــرة ١٩٦٠ م ص ٥٣ وما بعدهــا .

(٥) ابن هشام ، ابو محمد عبد الملك ، السيرة ، القاهرة ١٩٥٥م القسم الاول ، ص٤٣٠ وما بعدها.

(٦) Chronographia, p. 141.

(٧) المصدر السابق ص ١٤٣ .

(٨) المصدر السابق والصفحة نفسها .

(٩) المصــدر السابق والصفحة نفسها .

(١٠) يوشع العمودي ، الفصــل ٥٧ .

(١١) Chronographia, Lib, XVIII (col 641)

(١٢) Cronographia, p. 179

(١٣) اوليندر جونار ، ملوك كندة من بني اكل المرار ، بغداد ١٩٧٣ م ، ص ١١٤ .

(١٤) See O., Blau Arabien in Sechsten Jahrhundert, Z. D. M. G. 23, Leipzig 1869, p. 579 FF.

(١٥) عاقل نبيه ، تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي ، مطبعة الداودي ، دمشق ١٩٨٢م ، ص١٧٥.

(١٦) Fragmenta Historicorum Graecorum, call. C, Malleres, V. 4, Paris 1851.

(١٧) ليس معنى ذلك ان المنذر بن ماء السماء الملك اللخمي عامل الفرس على الحيرة لم يقدم خدمات الى الفرس قبل ميله الى الروم وسياستهم ، فقد خدم الفرس قبل ذلك ونفذ سياستهم وخاص في مناسبات عديدة حروبا ضد عرب الروم (الغساسنة) والروم انفسهم لميكنلهمصلحة بخوضها بقدر ما كانت تحقق من مصالح كبرى لدولة الفرس . ومن أشهر المعارك التي خاضها في سبيــل ذلك ما حدث عام (٥١٨ و ٥١٩م) عندما هاجم المنذر ممتلكات بيزنطة في سورية بعدمــا رفض امبراطور بيزنطة جوستين الاول دفع الاتاوة التي قبلت بيزنطة بدفعها لفارس في الصلح الذي عقد بينهما عام ٥٠٦ م ، ثم خاض المنذر المعركة التي حدثت بين الفرس وبيزنطة عام ٥٢٨م الى جانب الفرس وتوغل في بلاد الشام ، وجدد هجماته على سورية سنة (٥٢٩م) وتوغل فيها حتى انطاكيــة وانسرب فيها الى داخل الامبراطورية البيزنطية في اسيا الصغرى واحرق هناك عددا من القــرى والمدن من بينها مدينة خلقدونية . نظر : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاســلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٧٦ ، ج ٤ ، ص ٥٤ .

(١٨) جواد علي : المفصل ج٤ ، ص ، ٦٧-٦٩ .

(١٩) المصدر السابق : ج٤ ، ص ٧١ . بالاضافة الى ذلك فقد ذكر اوليندر في كتابه ملوك كندة من بني اكل المرار ،بغداد، ص١٠٧ مايلي : « ان الحارث استطاع ان يبسط سلطانه على الجزء الاعظم من بلاد اللخميين في اثناء اعوام الاضطراب ما بين (٥٠٣ ـ ٥٠٦م) عندما اشتد اوار الحرب بين بيزنطة والفرس . اما ان الحارث قد عد ملك العراق في نظر قبائله فهذا امر يوضحه شاعر كندة العظيم امرؤ القيس حفيد الحارث في البيت التالي :

أبعد الحارث الملك بن عمرو ... لـه ملك العراق الى عمان

انظر شرح ديوان امرىء القيس ، حسن السندوبي ، القاهرة ١٩٥٩م ص، ٢١٥ـ٢١٦ .

(٢٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، دار صادر ، ج١، ص ٥٤٢ .

(٢١) هناك روايات عديدة جاء بها الاخباريون العرب في مصادرهم تروي لنا جميعها كيفية موت الحارث الكندي لكن بشكل مختلف . راجع تلك الروايات في كتاب كندة في الاسلام حتى نهاية العصرالاموي، دمشق ١٩٨٥ ، ص (٩٧ـ١٠٠) .

(٢٢) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٧ ـ١٩٧٠م ،ج٩ ص٩٣.

(٢٣) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر . دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ١٩٥٦م ، ج٢ ، ص ٢٧٥ .

(٢٤) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٧ ـ ١٩٧٠ م

(٢٥) ابن خلدون ، العبر ، ج٢ ، ص ٢٧٥.

(٢٦) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ليدن ١٩٠٢ ، ص ٤٤.

(٢٧) الجون : لقب معاوية الكندي وقد لقب بالجون لشدة سواده . انظر الاغاني : ج١١، ص١٣٣.

(٢٨) الاصفهاني ، الاغاني ، ج٩ ، ص ٧٩ . حيث جاء فيه : « كان عمرو بن حجر وهو المقصور ملكا بعد ابيه وكاناخوه معاوية وهو الجون على اليمامة وامهما شعبة بنت ابي معاهر بن حسان بن عمرو بن تبع » .

(٢٩) اوليندر : المصدر السابق،ص١٨٣.

(٣٠) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ج٥ ، ص ١٤١ . حيث جاء فيه « قال ابو عبيدة يوم شعب جبله اعظم ايام العرب » .وفي كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني جاء مايلي عن يوم جبلة « فحشدوا (أي بني ذبيان) واستعدوا وخرجوا وعليهم حصن بن حذيفة بن بدر ومعه الحليفان اسد وذبيانيطلبون بدم حذيفة واقبل معهم شرحبيل بن الاخضر الجون بن آكل المرار والجون هو معاوية الكندي في جمع من كندة واقبلت بنو حنظلة بن مالك والرباب عليهم لقيط بن زرارة يطلبون بدم معبد بن زرارة وينثربي بن عدس واقبل معهم حسان بن عمرو الجون الكندي في جمع عظيم من كندة » . وقد عين تاريخ يوم جبلة بعام ٥٥٢م كما ذكر اليزيدي في نقائض جرير والفرزدق طبعة لايل ، ص ٦٨٦.

(٣١) الهمداني (الحسن بن احمد) : كتاب صفة جزيرة العرب ، دار اليمامة ١٩٧٤م، ص ١٦٨ـ١٦٩.

(٣٢) ابن الاثير : لكامل فيالتاريخ، دار صادر بيروت ، ج١ ، ص٥٩٥.

(٣٣) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، دار اليمامة ١٩٧٤ ، ص ١٧٥.

(٣٤) اوليندر ، المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

جغرافيَّة اليَمَن

في القرن الأوّل للهجرة / السّابع للميلاد

محمد سعيد شكري
جامعة عـدن

اختلف الباحثون في سبب تسمية اليَمَن يمناً ، فمنهم من ينسبها الى يمن بـن قحطان ، او الى يمن بن قيدار ، وقيل سميت يمنا لانها واقعة على يمين الكعبـة ، أو لانها على يمين الشمس ، او لتيامن الناس اليها(١) .

وفي النصوص العربية الجنوبية « المسـند » وردت كلمـة « يمنت ـ يمنات » كمنطقة صغيرة ذكرت في نص يعود عهده الى ايام الملك شمريهرعش (٣٠٠م أو بعدها بقليل) بعد كلمة حضرمـوت في الترتيب (سبأ وذي ريدان وحضرمـون ويمنت) . وتعنى يمنت ، في العربية الجنوبية ، الجنوب .

و « يمنت » الواردة في النص السابق في راي جلاسر (Glaser) منطقـة تشمل القسم الجنوبي الغربي من جزيرة العرب ، من باب المندب حتى حضرموت(٢) .

وفي الكتابات المعينية(*) المهمة، كتابةرقمت برقم Glaser III5 = Halvey 335, (Halevey 578 تتحدث عن حرب وقعت بـين « ذيمنت » و « ذشامت » ، اي بين الجنوب والشمال . ومن « يمنت » جاءت كلمة اليمن(٣) .

يتضح أن « يمنت » هي أرض الجنوب ، جنـوب الجزيرة العربيـة ، مقابـل

(*) اختلف الباحثون حول الفترة الزمنية للنص ما بين قبل الميلاد وبعده ، لكنه سابق عن نص الملك (شمريهرعش) انظر جواد علي : مرجع سابق ٧٩/٢ .

« شامت » أرض الشمال ، شمال الجزيرة العربية (*) . وبهذا فان النص المعيني يشير الى ان التسمية قديمة ولكن نتيجة للتجزئة السائدة آنذاك في الرقعة السياسية اليمنية لم تتمكن الكلمة من النمو ، فظهرت في نحو القرن الرابع الميلادي (٣٠٠م أو بعدها بقليل) لتدلل على منطقة محددة . وبما ان للكلمة عمقها التاريخي والجغرافي فسرعان ما انتشرت لتشمل كل حدود اليمن الطبيعية وأقسامها ، حسب تحديد المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين ، في العصور الاسلامية المختلفة .

يحتل اليمن الجزء الجنوبي من شبه جزيرة العرب ، ويشكل بحدوده الطبيعية ـ في بداية الاسلام ـ شبه جزيرة طبيعية متميزة ، تمثل صلة الوصل ما بين الهند والصين ، وشرق افريقية والمحيط الهندي(٤) .

وتأتي الاهمية الكبرى لموقع اليمن من كونه يقع على « فرضتي الدنيا »(٥) آنذاك: البحر الاحمر والخليج العربي ، مما جعله معبرا للتجارة العالمية الى فارس ، وشرق البحر المتوسط (بلاد الشام) ، ومصر ، وبلاد الاغريق ، وروما من جهة ، ومع الحبشة ، وشرق افريقية وسيلان والهند والصين من جهة اخرى(٦) .

وهذه الاهمية الاستراتيجية والتجارية للموقع اليمني ، جعلته هدفا ومطمعا لغزوات اجنبية مرات عديدة (٧) .

وقد اثر الموقع في عملية الاختلاط السكاني والحضاري بين اليمن ولاقطار التي اتصل بها ويظهر ذلك على السواحل او في المناطق اليمنية الداخلية(٨) .

كما شكل هذا الموقع الفريد ، منطقة كثافة سكانية عالية في الجزيرة العربية على العصور (٩) .

حدود اليمن :

قسم العرب جزيرتهم الى خمسة اقسام :

تِهامة والحجاز ونَجد والعروض واليَمَن(١٠) . وقد أفاض المؤرخون والجغرافيون العرب والمسلمون في العصور الاسلامية في تبيان وتفصيل حدود وأقسام اليمن ، التي تحتل الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية .

يحد اليمن من الشرق الخليج العربي ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، ومن

(*) يرى الهمداني ان الجزيرة العربية « عند اهل اليمن يمن وشام فجنوبها اليمن وشمالها الشام ». الصفة : ٦٤ .

الغرب البحر الاحمر (القلزم)(١١). ويفصل بين اليمن في الجنوب وباقي الجزيرة العربية في الشمال خط يبدأ من حدود عُمان ويَبْرين الى حد ما بين اليمن واليمامة فالى حدود الهُجَيرة وتَثليث وانهار جُرَش وكُثْنَة ، منحدرا في السراة على شَعَف عنز ، الى تهامة على ام جحدم — وهي أول حدود اليمن — الى البحر حذاء جبل يقال له كدمل بالقرب من حمضة(١٢) .

ويحدد الاصمعي بداية الحدود الشمالية الشرقية لليمن عند بينونة — وهي ليست من اليمن — بين عمان والبحرين(١٣) ومما يلي المشرق غربا رمل بني سعد الذي يقال له يبرين وهو منقاد من اليمامة حتى حضرموت(١٤) .

اما حدود اليمن الشمالية في العصور القديمة ، فلم تشر المصادر الى تحديد رسمي لها ، غير ان هيمنة الدول اليمنية القديمة السياسية والحضارية قد وصلت الى اصقاع بعيدة شمالا ، وناوءت الدول اليمنية القديمة الفرس على حدود العراق والجزيرة ودول الشام ، بل ان السيطرة اليمنية السياسية والاقتصادية كانت لاتضاهى على المنطقة الممتدة من الحجاز الى الشام(١٥) . ويبدو ان علاقات اليمن الاقتصادية فرضت الوجود البشري والسياسي والحضاري في خط الحجاز — الشام(١٦) .

اما الحديث عن سيطرة الدول اليمنية على القبائل العربية في وسط الجزيرة وتعيين ولاة لها على هذه القبائل وعلى أهم مدنها في اليمامة ونجد ، ومكة ويثرب(١٧) ، فذلك ما افاضت بذكره المصادر القديمة .

ولهذا نستطيع ان نقول ان الحدود الشمالية لليمن كانت تتحدد حسب قوة النظام السياسي اليمني وهيمنته على خطوط التجارة ، في الجزيرة العربية ، ومع العراق والشام ، ومدى سيطرته على القبائل في وسط الجزيرة العربية وشمالها .

لكن المصادر الجغرافية والتاريخية الاسلامية أعطت تصورا للحدود اليمنية الشمالية في فترة بداية سيادة الاسلام على اليمن . آخذة في اعتبارها الامتداد السكاني المتصل للقبائل اليمنية ، سواء في تهامة أم سروات الحجاز ونجد ، فالحد الفاصل بين حدود اليمن من جهة تهامة « ام جَحْدم » ، وهي قرية بين الازد وكنانة (١٨) . ويعتبر ياقوت (الليث) « في اول ارض اليمن » (١٩) ، اما في سروات الحجاز فحد اليمن من يلملم ثم على ظهر الطائف(٢٠) . حيث يشير البكري وياقوت(٢١) الى نزول بجيلة وثقيف ، « حضرة الطائف » ، واشتراكهما فيها منذ الجاهلية حتى قيام الاسلام . وما زالت بجيلة في مواطنها حتى عصرنا الحاضر(٢٢) . ثم يمتد الخط (خط الحدود) شرقا الى بلاد خثعم بين بيشة وتربة وما صاقب تلك البلد التي نزلتها (خثعم) منذ العصر الجاهلي (٢٣) ، وتوجد اليوم في هذه المناطق وخاصة تربة والقرى التابعة لها عشيرة البقوم من قبيلة الازد اليمنية وجبلهم المنيع حضن(٢٤) ، الذي كانت تمتلكه قبيلة قضاعة اليمنية في الجاهلية(٢٥) .

ويلي خط الطائف ـ تربة جنوبا سراة الازد «أزد شنوءة » التي يعتبرهاياقوت(٢٦) « مخلاف باليمن » بل ويجعل امتداد ارض شنوءة على محجة مكة الى عرفة ويفرع اليها سيل الصلة من ثور . ويسمى البكري(٢٧) سراة شنوءة بالحجاز الاسود تفريقا له عن حجاز المدينة .. وللتفريق الجغرافي السابق دلالة مورفولوجية اذ ان كل قسم يعتبر اقليما موروفولوجيا له خصائصه المميزة في الارتفاع والمناخ والحياة النباتية(٢٨) . ويطلق على هذه المنطقة سابقة التحديد اليوم « عسير » ، نسبة الى قبيلة عسير التي تنتسب الى قبيلة الازد اليمنية (٢٩) .

ويلتقي خط الحدود يلملم ـ الطائف ـ تربة ـ بيشة المتجه شرقا بالتحديدالسابق للهمداني عند وادي تثليث من ديار قبيلة مذحج اليمنية (٣٠) ، وتحدد بعد ذلك بعض المراجع(٣١) الحديثة وادى الدواسر كحد شمالي لليمن ، ومن ثم حدود اليمامة، فيبرين مرة أخرى .

وهذا التحديد الجغرافي للحدود الشمالية كان نتاج عوامل تضاريسية ومناخية ونباتية ، ناهيك عن الجوانب السكانية ، إذ شكلت اليمن وحدة طبيعية متكاملة ذات خصائص جغرافية متميزة عن باقي وسط الجزيرة العربية وشمالها .

وهذا ما تشير اليه احدث الدراسات الجغرافية الطبيعية حيث تعتبر اليمن من وجهة نظر التقسيم الجغرافي مصرا (Country)مميزا ، يشمل حيزا جغرافيا يمتد من جبال عسير في الحجاز وحتى خليج عدن .. وله خصائصه الجيولوجية والنباتية والمناخية المميزة(٣٢) .

فمرتفعات اليمن الشمالية ، سراة شنوءة (سراة عسير) شكلت اقليما مورفولوجيا خاصا ، اذ تعتبر أكثر ارتفاعا من جبال الحجاز الشمالية ، اذ يتراوح ارتفاعها بين (١٨٠٠ ـ ٣٠٠٠ متر) فوق مستوى سطح البحر(٣٣) .

كما تهطل الامطار الموسمية على اليمن ، ومنها عسير ، بينما تظل المناطق الشمالية من خط الحدود اليمنية بعيدة عن هذه الامطار . ولهذا فان الخصوبة تنتهي شمالا عند مدينة الليث على شاطىء البحر الاحمر . وتؤمن الامطار الموسمية زراعة الارض اليمنية ، زراعة منتظمة ، وتوجد فيها خضرة دائمة في اودية خصبة(٣٤) .

وقد تنبه لهذه الخصوصية الجغرافي اليمني الهمداني(٣٥) ، حيث ذكر صفة بلاده بـ « اليمن الخضراء لكثرة اشجارها وثمارها وزروعها » .

أما من حيث الحدود الشمالية الشرقية لليمن ، فقد اكتنفتها مناطق صحراوية واسعة خالية من الابار والسكان والمراعي ، قفرة لا تسلك الا بصعوبة كبيرة (٣٦).

ومن الجدير بالذكر ان الصراع في منطقة الحدود الشمالية لليمن ظل قائما بين القبائل الجنوبية والشمالية منذ الجاهلية حتى بداية العصر العباسي دون ان يحصل اي تغيير يذكر في هذه الحدود(٣٧) ، ودليلنا على ذلك ان الوثائق السياسية لم تشر البتة الى اي وجود سكاني كبير للقبائل الشمالية في هذه المنطقة(٣٨) وقد سجلت المصادر(٩٣) بعد ذلك مدا سكانيا لاحقا للاسلام ،اتجه جنوبا حيث بدأت عشائروقبائل شمالية تظهر في مناطق الحدود الشمالية لليمن سواء اكانت مدنا ام قرى او مراعي ، وتشكل فيها اعدادا كبيرةمثل قبيلة عنز في جرش وقريش في قريتي تبالة والمراغة.

واثر هذا المد السكاني تأثيرا كبيرا على المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين ، فتم تحديد الحدود الشمالية لليمن حسب الفترةالتي كتبوا فيها كتاباتهم، مستجيبين بذلك لاحداث طرأت متأخرة على قيام دولة الخلافة الراشدة .

وتأثر بذلك التحديد المتأخر للحدود الشمالية بعض من بحث في تاريخ اليمن(٤٠) في صدر الاسلام ، فجاء تحديدهم لحدود اليمن بعيدا عن المنطلقات الديموغرافية والبيئية والحضارية ، ولم يأخذوا بعين الاعتبار التغييرات التي طرأت في فترات لاحقة منذ قيام الاسلام ، فاسقطوا حدود القرن الرابع الهجري لليمن على حدودهاالشمالية في صدر الاسلام .

ولهذا فانه من خلال البحث والاستقصاء الكاملين للمصادر الادبية والجغرافية والتاريخية يمكن اجراء الرصد الواضح لحدود اليمن الشمالية في الفترة مدار بحثنا هذا ، وهي صدر الاسلام .

وبناء على التحديد السابق للجغرافيين والمؤرخين العرب والمسلمين للحدود اليمنية فان ما « صار خلف تثليث وما قاربها الى صنعاء وما والاها من البلاد الى حضرموت والشحر وعمان ومابينهما : اليمن وفيها التهائم والنجود واليمن يجمع ذلك كله »(٤١) وتفصيل المناطق اليمنية كما يلي :

سراة بجيلة ، سراة الازد (عسير) بلاد خثعم ، بلاد مذحج ، بلاد فرسان وحكم وعك والاشعريين ، نجران ، مخلاف صنعاء ، مخلاف الجند ، حضرموت الاسعاء (الشحر) مهرة عمان(٤٢) .

ومما يؤيد ان هذه المواضع تشملها اليمن « كتب العهود من الخلائف لولاة صنعاء اليمن ومخاليفها ، وعك ، وعمان ، وحضرموت »(٤٣) .

كما تضم اليمن العديد من الجزر في البحر الاحمر مثل : دهلك ، فرسان ، كمران

جزر زقر ، جزر فاطمة ، جزيرة ميون (بريم) عند المدخل الجنوبي للبحر الاحمر .. وفي البحر العربي مثل جزيرة سقطرة ، وكوريا موريا ومصيرة (٤٤) .وتقدر المصادر القديمة مساحة اليمن «نحو الثلثين من ديار العرب»(٤٥) وتختلف المراجع(٤٦) الحديثة في تحديد مساحة اليمن الطبيعية في عصرنا الحاضر .

وتنقسم اليمن تضاريسيا الى الاقاليم التالية :

السهول الساحلية : وتقسم بدورها الى الاقسام التالية :

١ ـ السهل الساحلي الغربي لليمن ، واشتهر في الكتابات القديمة بتهامة أو الغور . وتمتد تهامة اليمن التي تسمى « بلاد حكم والاشعريين وعك » من الليث شمالا الى باب المندب جنوبا ، ويحدها غربا ساحل البحر الاحمر وشرقا المرتفعات الغربية ، وتقطع هذه المرتفعات اودية عدة تنتهي الى البحر الاحمر ، ويتركز فيها الاستقرار السكاني . ويتراوح عرض سهل تهامة بين ٤٠ و ٧٠ كم (٤٧) . ومن الجدير ذكره هنا ان الهمداني (٤٨) يعتبر عدن جنوبية تهامية ، ويرى القلقشندي (٤٩) ان عدن « اعظم المراسي باليمن » ، وظفار « قاعدة بلاد السحر » تهاميتان ، معتبرا الساحل الجنوبي لليمن من تهائم اليمن .

٢ ـ السهل الساحلي الجنوبي : وهو سهل ضيق يتراوح عرضه بين ٨ و ١٧كم حيث يتصل بعد خط طول ٥٧° شرقا برمال الصحراء اليمنية « الربع الخالي » ، ويشمل ثلاثة اقسام رئيسة :

أ ـ ساحل عدن   ب ـ ساحل حضرموت   جـ ـ ساحل ظفار(٥٠) .

٣ ـ السهول الشرقية وتنقسم الى قسمين .

أ ـ الباطنة : التي تقابل « تهامة » في غرب اليمن وتمتاز بخصوبتها وسعتها وتمتد بين مسقط جنوبا ودبا شمالا ، ويصب فيها عدة اودية من مرتفعات الحجر الغربي أهمها وادي سمايل ووادي الجزي الذي يصب قرب صحار(٥١) ..

ب ـ السهل السالحي : المطل على الخليج العربي ابتداء من مدخل الخليج حتى حدود اليمن الشمالية الشرقية عند بينونة ، ويقع ضمن نطاق السهول الشرقية للجزيرة العربية(٥٢) .

المرتفعات اليمنية :

١ ـ اقليم المرتفعات الغربية لليمن « السروات » ، يشكل وحدة طبيعية قائمة بذاتها تمتد من مشارف الطائف شمالا « سراة بجيلة » ، لتضم جبال عسير « سراة

الازد » عند خط ٢٠° شمالا ، الى جبل العر « شمسان » في عدن جنوبا ، ويتسع امتداد المرتفعات الغربية لليمن نحو الشرق كلما اتجهنا جنوبا ، ويزداد ارتفاعا ، فيصل ارتفاع أعلى قممها ، جبل النبي شعيب (٣٠ ميلا غرب صنعاء) الى ٣٧٦٠مترا. متـرا .

ويتراوح ارتفاع الجبال اليمنية بين ٥٠٠٠ر٠٠٠ر١٠٠ قدم (٥٣) * ومن اشهرها جبال « هجير في سقطرة » والعر (شمسان) وردفان وحرير وجحاف وثمر والكور والظاهر وصبر والتعكر وريمان وحصن ارياب وضوران وشبام وحضور ومسوَر المنتاب والمصانع وجبل أبها والحَضَن وبرَط وهيلان ونقم وعيبان وأسبيل ومشوة والعود(٥٤) .

٢ ــ المرتفات الشرقية لليمن « مرتفعات عمان » .

تقع هذه المرتفعات شرق اليمن ، وتختلف بنيتها عن المرتفعات السابقة وتأخذ شكل هضبة ارتفاعها ٤٠٠٠ قدم تمتد موازية لساحل خليج عمان من راس مسندم في الشمال الى ساحل البحر العربي جنوبا .

وتنقسم هذه المرتفعات الى ثلاثة اقسام : في الشمال صخور مسندم ويليها جنوبا الحجر الغربي . وتمتاز منطقة جبال الحجر الغربي بانتشار مجموعة من الاودية الخصبة فيها تصب في سهل الباطنة ويتمثل قسمها الثالث وهوالجنوبي بكتلتي الجبل الاخضر والحجر الشرقي بالتتابع .

وأعلى جبال مرتفعات اليمن الشرقية الجبل الاخضر اذ يبلغ ارتفاعه ٣٠١٨ مترا (٥٥) .

ــ الهضاب اليمنية :

١ ــ الهضبة الشرقية لمرتفعات اليمن الغربية او ما يسمى في المصادر القديمة « نجد اليمن » ، وتقع شرق المرتفعات اليمنية الغربية وتنحدر تدريجيا الى الشرق ، وتقطعها عدة اودية الى الشرق مثل بيشه وتثليث والجوف والى الجنوب مثل تبن وأبين اللذان يصبان في ساحل عدن . ويحد هذه الهضبة شرقا صحراء اليمن . ويبتدىء طول هذه الهضبة من الجبال الجنوبية لليمن المطلة على لحج وأبين « حرير وجحاف ، وبقية جبال سروحمير ومذحج » وينتهي في الشمال للاقليم اليمني الى اعراض نجد : تثليث وبيشة وتبالة . ومن اشهر مدن نجد اليمن جرَش ونجران وصعدة وصنعاء والجند وجبا وجيشان ومنكث وذَمار ورَداع وردمان وقرن وحِصِي(٥٦) . ومتوسط ارتفاع الهضبة « نجد اليمن » ٥٠٠٠ قدم ، ويزداد الارتفاع فيها تدريجيا نحو الجنوب في منطقة يريم . وتشتهر الهضبة بالقيعان (الحقول)

للزراعية المتعددة ، اما في شمال الهضبة فان الارتفاع يتراوح بين ٤٠٠٠ ــ ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر . واهم التلال الصخرية شمال الهضبة اليمنية جبال القهر ، وجبال الوجيد وجبال القارة الواقعة شرق وادي تثليث(٥٧) .

٢ ــ هضاب حضرموت ومهرة ، ويحدها من الغرب جبال سرو مذحج وحمير، والاجزاء الجنوبية من الهضبة السابقة ، وتتدرج في الانحدار صوب الشرق الى أن تصل الى ما يقرب من ١٥٠ مترا عند خط طول ٥٧ شرقا ، ويستمر هذا المستوى نحو ٢٥٠ كيلو متر الى أن تصل الحد الجنوبي لجبال اليمن الشرقية في عمان . ويقطع هذه الهضاب وادي حضرموت من الغرب الى الشرق ويصب بالقرب من سيحوت ،(٥٨).

ــ اقليم الصحراء اليمنية « الربع الخالي »(٥٩) .

وهو اقليم واسع يقع شرق الهضبة اليمنية « نجد اليمن » وشمال وشمال شرق هضاب حضرموت ومهرة ، وغرب مرتفعات اليمن الشرقية في عمان وغرب السهول الساحلية الشرقية لليمن الواقعة على الخليج العربي ، حيث تنتهي حدودها مع حدود اليمن الشمالية والشمالية الشرقية ، ويقسم اقليم الصحراء اليمني الى :

آ ــ صحراء الصيهد : وتتفرع من الدهناء من ناحية اليمامة ويبرين والفلج ، وتكون شرق أعراض نجد تبالة وبيشة وتثليث وترج وشرقي نجران والجوف ومأرب وبيحان (٦٠) .

ب ــ الاحقاف وتقع شمال هضبة حضرموت ومهرة ورمالها كثيرة وغزيرة (٦١) .

ج ــ وبار وتشكل الجزء الشمالي الشرقي للصحراء اليمنية وحدودها الشمالية رمل يبرين واليمامة والبحرين (٦٢) .

ويختلف مناخ اليمن باختلاف اقاليمة التضاريسية ، ووفقا للقرب والبعد عن البحر والقرب والبعد من خط الاستواء . وتهب على اليمن الرياح الموسمية سواء الرياح الموسمية الافريقية صيفا التي تسقط امطارها على غرب اليمن ، ام الرياح الموسمية الشتوية الاسيوية لتسقطا مطارها على شرق اليمن في اقليم عمان ومهرة وحضرموت .

ويتركز هطول المطر في اليمن في فصل الصيف . ويحدد ابن خرداذبة شهور المطر في العاصمة صنعاء وما والاها بحزيران ، وتموز وآب وبعض ايلول(٦٣) .

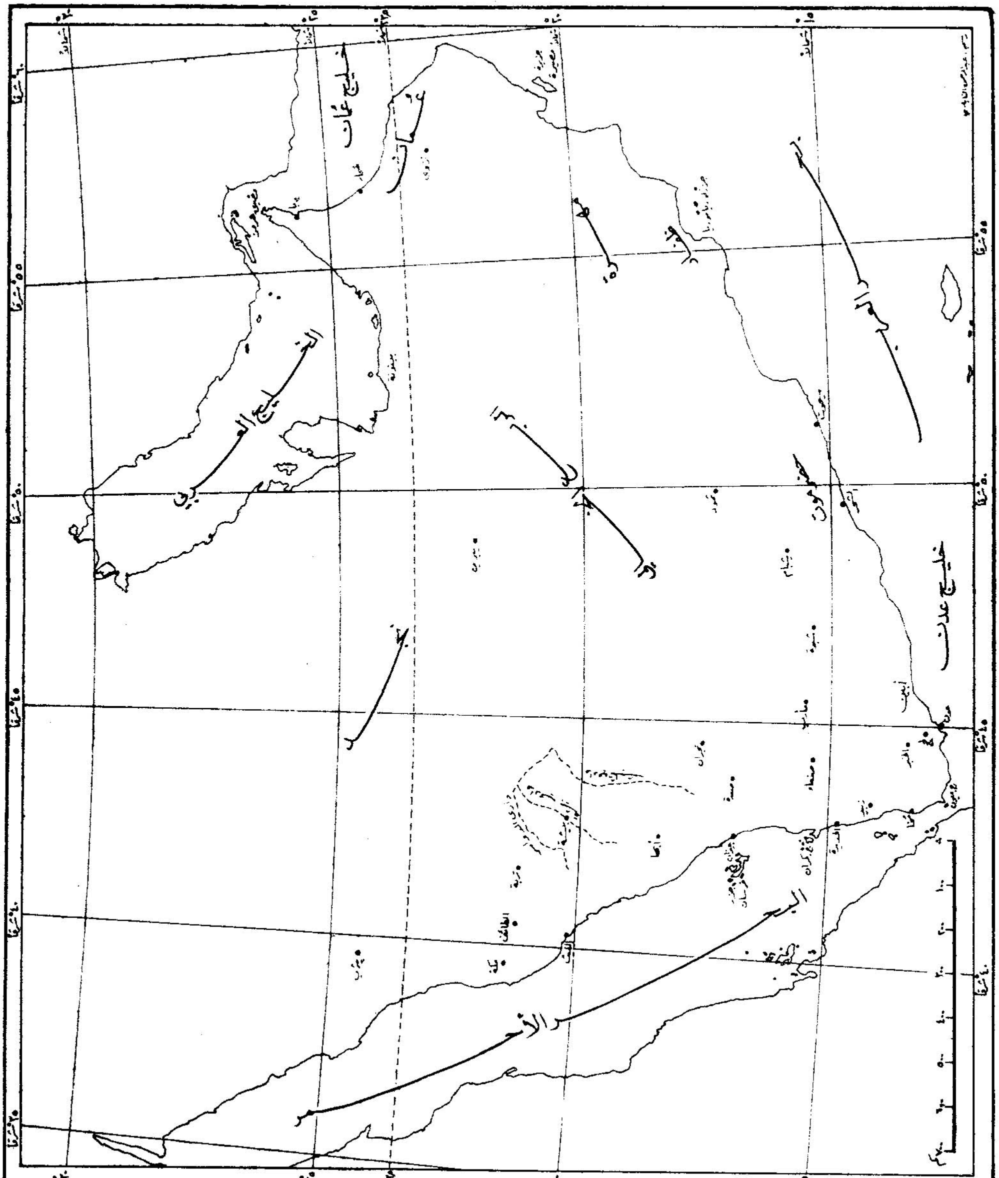
وتشتد درجة الحرارة في التهائم والسهول اليمنية صيفا ، بينما تظل درجة الحرارة في المرتعات والهضاب اليمنية معتدلة (٦٤) ، كما ان معدلات الامطار في سهول

تهامة تقل عن معدلها في المرتفعات . ومطر المرتفعات اكثر من مطر المناطق الهضبية الداخلية(٦٥) .

وتؤثر الامطار في التربة اليمنية فتزداد خصوبتها تبعا لزيادة الامطار . والتربة في اليمن تربة طميية أو غرينية في المناطق غزيرة الامطار ، وحمراء بنية أو بنية ـ صفراء في المناطق الجبلية . وهذه الانواع من الترب تكونت نتيجة التعرية المائية في الوديان التي تجري مياهها فترة ليست بالقصيرة بعد نزول الامطار في اقاليم اليمن جميعا ، وهي تربة غنية بخصوبتها(٦٦) .

ونتيجة لتنوع المناخ في اليمن وتنوع انواع التربة ، تتنوع النباتات الطبيعية والغلات الزراعية ، حيث تقوم الزراعة على دلتا الوديان اليمنية الشهيرة ، وفي القيعان الزراعية ومدرجات الجبال الشاهقة(٦٧) .

ونكتفي هنا بذكر أنواع النبات الطبيعي ، ويجمل الهمداني(٨٦) ذلك قائلا : « نبات اليمن بين روض وشجر عرى ، وعضاة مطعمة ، وعضاة شوكة ، وحشائش وزهور وانوار ، فاما الحشائش ففيها أكثر حشائش العقار » . وتنمو اشجار السلم والاراك والحموض والعلاك والصبر الجحدمي في شمال اليمن(٦٩) ، والحشائش واشجار السنط والاثل والسلم والقضاب والفضاة والهجليج في سهول تهامة(٧٠) وتنبت في الصحارى الخزامي والرخامي والسخبر والكمأة في فصل الربيع(٧١) ويمكن القول ان الجزء الشرقي والشمالي للهضاب اليمنية ، غني بالنباتات الرعوية وينطبق ذلك على هضاب عمان الداخلية وسفوح الجبال فيها (٧٢) .


خليج عمان
خليج عدن
حضرموت

(١) المسعودي (ابي الحسن علي) ، مروج الذهب ، دار الاندلس ، بيروت ٤٣/٢ . البكري (عبد الله بن عبدالعزيز) ، معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ ، ١٤٠١/٣ . الرازي (احمد بن عبد الله) ، تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق حسين العمري ،الطبعةالثانية ، ١٩٨١ ، ١٠ . القلقشندي (ابي العباس احمد) ، صبح الاعشى ، المطبعة الاميرية ،القاهرة، ١٩١٣ ، ٦/٥ .

(٢) علي (جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠ ، ٥٣٠/٢ - ٥٣١ . بافقية (محمد) ، تاريخ اليمن القديم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ ،١٤٥ .

(٣) جواد علي ، ٧٩/٢،٨٨،٥٣١. بافقيه ١٤٥ .

(٤) الاصطخري ؟ ابي اسحاق ، الاقليم ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ٧ . ابن حوقل (ابي القاسم) ، صورة الارض ، مكتبة الحياة ، بيروت ٢٩ ، ٥١ الهمداني (الحسن بن احمد) ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمدبن علي الاكوع ، دار اليمامة ، الرياض ، ١٩٧٤ ، ٦٥ البكري ، ٩/١ .ياقوت ؟ شهاب الدين) معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ١٣٧/٢ ، ٤٤٧/٥ . القلشندي ١٠،٦/٥ - ١١ ، ٥٥ . الافغاني (سعيد) اسواق العرب ، دار الفكر ،دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٠، ٢٠ . لطفي عبد الوهاب ، العرب في العصور القديمة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩، ٣٣٠،٩١ - ٣٣١ . جمال اغا (شاهر) ، جغرافية اليمن الطبيعية، مكتبة الانوار ، دمشق ١٩٨٣ ، ٧. الاكواع ؟محمد) ، اليمن الخضراء ، دار مكتبة الجبل ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢ ، ١٤٧ . باوزير (عبد الله) تاريخ اليمن القديم ، مشروع كتاب « تطور المجتمع اليمني » جامعة عدن ١٩٨٥ ، ٢٦ ، « الحركات الشعبية في اليمن » . جعفر ظفاري ،مجلة الثقافة الجديدة اليمنية ، عدد مارس ، ١٩٧٥ ، ٨ .

(٥) المقدسي ؟ شمس الدين ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مطبعة بريل (ليدن) ،الطبعة الثانية ، ١٩٠٦ ، ٩٧ .

(٦) ابن حبيب (ابي جعفر)، المحبر، دار الافاق الجديدة ، بيروت ٢٦٥ - ٢٢٦ ، الاصبهاني (ابي فرج) الاغاني ، مطبعة التقدم ، مصر ، ١٣٢٣ هـ ، ١٣٤/٢٠ المقدسي ، ٩٧ . القلقشندي،٥٥/٥. جواد علي ٦٤٨/١ ، ٦٥٢ ، ٢٣/٢ ، ٢٧٨ . جعفر ظفاري ، ٧. باوزير : ٢٦ .

(٧) ابن هشام (عبد الملك) ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا واخرين ، مطبعة البابي الحلبي مصر ، ١٩٣٦ ، ٧١/١ . الطبري ؟ ابي جعفر محمد) ، تاريخ الطبري ، تحقيق محمد ابوالفضل، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٠ ، ١٢٧/٢ . الحميري (نشوان) ، منتخبات من اخبار اليمن ، دار الفكر دمشق ، طبعة ثانية ، ١٩٨١ ، ١٤٩ . لاندو (روم) ، الاسلام والعرب ، دار العلم للملايين، الطبعة الاولى، ١٩٦٢ ، ٢٢ ، جواد علي ، ٢ / ٦٣١ .

(٨) الاصبهاني : ، ٢٠/٦- ٣١ ابن عبد البر (ابي عمر) ، القصد والامم ، مطبعة السعادة ، القاهرة، ١٣٥٠هـ ، ٢٦ . عمارة اليمن (نجم الدين) ، تاريخ اليمن ، تحقيق الاكوع ، مطبعة العلم ،الطبعة الثانية ١٩٧٩ ، ١٣٤ . جواد علي ، ٥٣٠/١ - ٥٣١ ، ٤/ ٣٠٣ ، لطفي عبد الوهاب ، ٩١. جمال اغا ، ٩. باوزير ، ٢٨ . الاكواع ، ٣٦٦ وما بعدها .

(٩) جمال آغا ، ١٠ . حتى ؟ فيليب) ، تاريخ العرب (مطول) ، دار الكشاف ، بيروت ،الطبعة الرابعة، ١٩٦٥ ، ٥٩/١ .

(١٠) الهمداني ، ٥٨. البكري ٧/١ . ياقوت ، ١٣٧/٢ .

(١١) الاصطخري ، ٧ . ابن حوقل ، ٢٩ . الهمداني ، ٦٥ . البكري ، ٩/١ . ياقوت : ، ١٣٧/٢ ، ٤٤٧/٥ . القلقشندي : ، ٦/٥ . ابن ابن المجاواد (جمال الدين) ، تاريخ المستبصر مطبعةليدن، ٣٩/١ . الزبيدي (محمد) ، تاج العروس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ٣٧١/٩ .

(١٢) الهمداني ، ٦٥ . ياقوت ، ٤٤٧/٥–٤٤٨ .

(١٣) ياقوت ، ٤٤٧/٥ .

(١٤) الهمداني ، ٦٥ . البكري ، ١٦/١ .

(١٥) الطبري ، ٨٩/٢ – ٩٠ . الاصبهاني ، ١٧٣/٩ .
ابن خلدون (عبد الرحمن) ، المقدمة ، دار العودة ، بيروت ، ١٠ . النويري (شهاب الدين)، نهاية الارب في فنون الادب ، مطبعة دار الكتاب المصرية ، القاهرة ، ٤٠٦/١٥ . جواد علي ، ١٢١/٢ فيليب حتى ، ٥٢/١ . انظر التوراة سفر اخبار الايام الثاني ٢١ : ١٦ ، ١٧ .
الترسيسي (عدنان) ، اليمن وحضارة العرب ، مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٠ .

(١٦) نيلسون (ديتلف) ، التاريخ العربي القديم ، ترجمة فؤاد حسين علي ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ٤٢–٤٤ ، ١٤٧ . جواد علي ، ١٢١/٢ وما بعدها . الاكوع ، ٣٣ .

(١٧) ابن شرية (عبيد) ، اخبار عبيد ، يلي « كتاب التيجان في ملوك حمير » ، حيدر اباد ،الدكن، مطبعة دار المعارف العثمانية ، ١٣٤٧ هـ ، ٣١٣ . ابن هشام ، ٢٥/١ ، ١١٧–١١٨ . الطبري، ١٠٥/٢ الهمداني ، الاكليل (الجزء الاول) تحقيق الاكوع ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٧٧ ،٢١٢/١، ٢١٦وما بعدها ، الاكليل (الجزء الثاني) ، تحقيق الاكوع ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٩٦٦، ٢٤٨/٢ ، الاكليل (الجزء العاشر) ، تحقيق محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ ، ٤٢/١٠ . الاصبهاني ، ٦١/٨–٦٢،٨٢/١٥ . ابن الاثير (عز الدين)،الكامل في التاريخ ، دار صادر، بيروت ، ١٩٦٥ ، ٥٠٤/١ . ابن خلدون (عبد الرحمن) ، العبر المطبعة المصرية ،بولاق ١٢٨٤ هـ ، ٣٠/٢ .

(١٨) الهمداني ، الصفة ، ٦٥ . ياقوت ، ٢٥٠/١ .

(١٩) ياقوت : ٢٤٤/٢ .

(٢٠) الاصفهاني (الحسن) ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ، دار اليمامة ،الرياض، ١٩٦٨ ، الطبعة الاولى ، ٣٧٥ . الاصطخري :، ٧ . ابن حوقل ، ٢٩ . الاصبهاني ، ٢١١/١٨. القلقشندي ، ١٥/٥ حول (تحديد موقع يلملم) .

(٢١) معجم ، استعجم ، ٩٠/١ ، معجم البلدان ، ٢٠٥/٣ . وانظر : الهمداني : الصفة ١٢٠ .

(٢٢) ابن بليهد (محمد) ، صحيح الاخبار (عما في بلاد العرب من الاثار) ، بيروت ، الطبعة الثانية، ١٩٧٢،١٨٥/٢ .

(٢٣) الواقدي (محمد بن عمر) ، المغازي ، تحقيق مارسدن جونس ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٦ ، ٧٢٢/٢ . ابن سعد (محمد) ، الطبقات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ١٦٢/٢ . الطبري ، ٤١/٣ . الهمداني الصفة ، ٢٥٨ ، البكري ، ٩٠/١ ، المقدسي ، ٨٨. السهيلي (ابي القاسم)، الروض الانف ، شركة الطباعة الفنية المتحدة ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ٢٥٢/٣ . ياقوت ، ٥٢٩/١ ، ٢١/٢ . الزبيدي ، ٢٨٥/٤ . حميد الله (محمد) ،الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، دار الارشاد ،بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ ، ٢٤٣–٢٤٤ .

(٢٤) حمزة (فؤاد) ، في بلاد عسير ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض ، الطبعة الثانية ،١٩٦٨، ٢٦ .

(٢٥) الاصبهاني ، ١٢٩/٢١ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ٢٠٥/٣ ، ٣٦٨ – ٣٦٩ . وانظر الهمداني ، الصفة ، ٣٣ . وابن حوقل ، ٣٠، اذ يجعلا مكة اخر حد اليمن .

(٢٧) المصدر نفسه ، ١٣/١ .

(٢٨) ابو العلا (محمود طه) ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، الجزآن الاول والثاني ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، والجزآن الثالث والرابع ، مطابع سجل العرب ، القاهرة، الطبعة الاولى ، ٤٠/١ . الغنيم (عبد الله) اقاليم الجزيرة العربية (بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة) جامعة الكويت ، ١٩٨١ ، ٣٦ .

(٢٩) فؤاد حمزة : ٨٥–٨٦ ، ٩٩ .

(٣٠) الهمداني ، الصفة ، ٦٥ . البكري ، ٩/١. ياقوت ، ١٣٧/٢ .

(٣١) وهبة (حافظ) ، جزيرة العرب في القرن العشرين ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٦٧ ، ٤١ . الويسي (حسين) ،اليمن الكبرى،١ الترسيسي:١١٧.

(٣٢) جمال آغا : ٥١٥ .

(٣٣) عبد الله الغنيم : ٢٧،٣٦،٤١ (نقلا عن محمد محمود الصياد في « هذه الجزيرة العربية »، مجلة جامعة الملك سعود ، العدد الاول ، السنة الثانية ، الرياض ، ١٩٥٤ ، ص ٥٧ . ابو العلا ، ٤٠/١–٤١ .

(٣٤) ابن رسته (ابى العلا احمد) ، الاعلاق النفسية ، المجلد السابع ، مطبعة بريل (ليدن) ١٨٩١، ١٠٩/٧ وما بعدها . الهمداني : الصفة ٦٥ .
المسعودي ، ٣٥/٢ البكري ، ١١٢٩/٣ ، المقدسي ، ٩٣ . ياقوت ، ٥٢٩/١ ، ٢١/٢ .القلقشندي، ٤٠/٥ وما بعدها . الزبيدي ، ٢٨٥/٤ .حتى ، ٢٠/١ . حافظ وهبة ، ٤–٥ ، ٣٣ ، ٣٥–٣٦. ابو العلا،٢٠/١ ، ٤٩ ، ٥٩ . الاكوع ، ، ٣٢ . بليايف (ي،) ، العرب والاسلام والخلافة العربية ترجمة انيس فريحة ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٣ ، ٥٩–٦٠. الدباغ (مصطفى) ، جزيرة العرب (موطن العرب ومهد الاسلام) ، منشورات الطليعة ، بيروت الطبعة الاولى ، ١٦٩٣،١١٢/٢ .

(٣٥) الصفة ، ٦٥ . وانظر ياقوت ، ٤٤٧/٥ .

(٣٦) ابن حوقل ،–٤١ . الهمداني ، الصفة ، ٦٥. البكري ، ١٦/١ .

(٣٧) ابن عبد ربه (احمد بن محمد) ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، المكتبة التجارية الكبرى ، بت ، ٧٦/٦ – ٧٧ . الهمداني ، الاكليل ، ٤٢٥/١ الاصبهاني ، ٦٨/٧ ، ١١٣، ٢/٩، ١٦–١٧ ، ٦٦/١٠ ومـا بعدهـا ، ١٢٦/١١ ، ٤٥/١٢ ، ٦٢/١٣ ، ٦٧ – ٦٨ ، ٩٣/١٥ ، ٢١٥/١٨ . ياقوت ، ١٥/٢ ، ١٢٦ ، ٣ /٨٨ . النويري ، ٤١٤/١٥ – ٤١٥ .

(٣٨) محمد حميد الله ، ١٢٨ – ٢٠٨ ، ٢٤٢ – ٢٤٥ .

(٣٩) ابن جعفر (قدامة) ، الخراج وصناعة الكتابة ، يلي المسالك والممالك ، لابن خراوازية ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٨٨ . الهمداني ، الصفة ، ٢٥٥،٢٥٨،٤٣١ . ياقوت ، ٥٢٩/١ ، ٢١/٢ ، ٧٤/٣.

(٤٠) انظر ، نزار عبد اللطيف ، أهل اليمن في صدر الاسلام ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت، ١٩٧٨ ، ٣٧ .

(٤١) الهمداني ، الصفة ، ٥٩ . البكري ، ٩/١ . ياقوت ، ١٣٧/٢ .

(٤٢) الاصطخري، ٧ ابن حوقل ، ٢٩ . الهمداني ، الصفة ، ٦٥ ، ١١٩ ــ ١٢٠ . ــ البكري ،٩٠٧/١، ١٣ ، ١٦، ٦٣ ، ٩٠ ، ٣٠٥ ياقوت ، ٥٢٩/١ ، ١١١/٢ ، ١٣٧ ، ٢٠٧ ، ٢٠٥/٣ ، ٣٦٨،٤٤٧/٥ . ابن المجاود ، ٣٩/١ــ٤٠ . الزبيدي ، ٢٨٥/٤ ، ٣٦٢/٥ ، ٣٧١/٩ . عاقل (نبيه) ، تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي ، مطبعة الداودي ، دمشق ، ١٩٨٢ ، ٢٥ . جواد علي ١٧٠/١٠ وما بعدها ٥٥١/٢ ــ ٥٥٢ . الكواع ، ٣٣ . بن بليهد ، ١٨٥/٢ ،

(٤٣) الهمداني ، الصفة ، ٥٩ .

(٤٤) ــالهمداني ، الصفة ، ٦٧ــ٦٨ . ياقوت ، ١٣٩/٢ ، ٤٩٢ ، ١٤٤/٥ . ابن المجاود ، ٢/ ٢٧١ . الويسي ، ١ــ٢ الاكواع ، ٩٢ . الدباغ ، ٢٣/٢ ، ٨١ ، ١٢٢ .

(٤٥) الاصطخري ، ٧. ابن حوقل ، ٢٩ . ابن المجاود ، ٤٠/١ .

(٤٦) الويسي ، ٢ــ٣ . الترسيسي ، ١١٩ . الاكوع ، ٩٢ .

(٤٧) الهمداني : الصفة ، ٥٧ ، ٧٠ ، ١٢٠ . ابن حوقل ، ٤٣ . البكري ، ٧/١ وما بعدها .المقدسي، ٦٩. ابو العلا ، ٢٧/٣ . الاكوع ، ٣٨ــ٣٩ .

(٤٨) الصفة ، ٧٠ .

(٤٩) صبح الاعشى ١٠/٥ وما بعدها .

(٥٠) ياقوت ، ٦٠/٤ . القلقشندي ، ١٠/٥ وما بعدها . ابو العلا ، ٢٠/٤ الفنيم ، ٤٠ .

(٥١) الدباغ ، ١١٢/٢ ، الفنيم ، ٤٤ .

(٥٢) ابو العلا ، ٢٧٥/١ . الدباغ ١١١/٢ . الفنيم ، ٤٣.

(٥٣) الهمداني ، الصفة ، ٩٩ وما بعدها . ابن حوقل ،٤٥ .ابو العلا،٤٠/١،٢٧٥الفنيم.٣٦،٤١.الاكوع ٤٤ . لاتذكرالمصادر القديمة ارقام الارتفاعات الجبلية .

(٥٤) الهمداني ، الصفة ، ١٤١ ــ ١٤٢ ، ٢٦٥ ــ ٢٢٦ . ابي مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ٨/١ .الاكوع، ٤٣وما بعدها . يعقوب (هارولد) ، ملوك شبه جزيرة العرب ، ترجمة احمد المضواحي ، دار العودة بيروت ، ١٩٨٣، ٣٨٥ . الدباغ ، ٩/٢ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٨٢ .

(٥٥) ابو العلا ، ٤٢/١ ــ ٤٣ . الفنيم ، ٤٥ وما بعدها . الاكوع ، ١٣٧ .

(٥٥٦) الاصطخري ، ٧ . الهمداني ، الصفة ، ٧٧ وما بعدها المقدسي ، ٦٩ ــ ٧٠ . القلقشــندي ، ٣٧/٥ وما بعدها. ابو العلا . ٤١/١ ، ٣٩/٢ ، ٢٩/٣ ــ ٣٠/٥ . الاكوع ، ٣٦ــ٣٧ .

(٥٧) ابو العلا ، ٣٩/٢ ، ٢٩/٣ ــ ٣٠ .

(٥٨) الفنيم ، ٤٠ . ابو العلا ، ٢٣/٤ ــ ٢٤ ، ٣٠ .

(٥٩) الفنيم ، ٧٧ . نقلا عن احمد بن ماجد ، كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد ، تحقيــق ابراهيم خوري ، وعزة حسن ، دمشق ، ١٩٧١ ، ص ٣٠ «حدد ابن ماجد الربع الخالي بانــه مشارق مارب والجوف ».

(٦٠) الهمداني ، الصفة ، ١٦٦ ــ ١٦٧ ، الاكوع ، ٤١ ، يخلط عبد الله غنيم بين صيهد ووبــاد ، انظر اقاليم الجزيرة العربية ، ٨٤ .

(٦١) ابن حوقل، ٤٤ . المقدسي ، ٨٧ . نشوان ، ٢ . ياقوت ،١١٥/١ . الاكوع،٤١ .

(٦٢) البكري ، ٣٧٥/٢ – ٣٧٦ ، ١٣٦٦/٤ – ١٣٦٧ ، النويري ، ١٠٩/١٠ . الاكوع ، ٤٤.

(٦٣) ابن خراذابه (ابي القاسم) ، المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٥٦ . ابن رسته ، ١٠٩/٧ . ابو العلا ، ٤٨/١ – ٤٩ ، ٣١/٣ ، ٣٤ ، ٣٥/٤٤. جمال آغا ، ٢٩٩ ، الافوع ، ٦١ وما بعدها.

(٦٤) ابن رسته ، ١٠٩/٧ . ابن حوقل ، ٤٣ . المقدسي ، ٩٥،٣٣ . القلقشندي ، ٣٩/٥،٥٥ . ابو العلا ، ٣٥/٤ . الدباغ ، ١١٢/٢ .

(٦٥) جمال آغا ، ٣١٩ وما بعدها .

(٦٦) ابو العلا ،٥٩/١ . اغا ٣٢٢ .

(٦٧) الهمداني : الصفة ، ٢٤٣ . المجاهد (عبد الله) ، اسس زراعة وانتاج المحاصيل الحقليـــة في الارض اليمنية ، عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الاولى ،١٩٨٠ ، المقدمة ص٧ . عمر (سلطان)، نظرة في تطور المجتمع اليمني ،٦٧.

(٦٨) الهمداني ، الصفة ٢٧٦ .

(٦٩) ياقوت ، ٢٥٠/١ . الزبيدي ، ٢٨٥/٤ .

(٧٠) ابو العلا ، ٤١/٣ .

(٧١) الاصبهاني ، ١٥٩/١٠ .

(٧٢) المجاهد ، ٤٠٥ وما بعدها . الدباغ ، ١١٤/٢ الغنيم ، ٤٣ .

لمحات عن يهود الجزائر
منذ مطلع القرن الثامن عشر حتى ١٨٣٠

محمد داده

حرص أغلب الكتاب اليهود على المبالغة في تصوير ألوان الاضطهاد التي تعرض لها اليهود في الجزائر خلال العهد العثماني ، متناسين عن عمد ذلك الرخاء الذي شهده يهودهم في مختلف النواحي ، ومتجاهلين عن قصد أن الجزائر كانت من أهم المناطق التي آوت اليهود الفارين من وجه الاضطهاد المسيحي في اوربا ، يشهد على ذلك ازدياد عددهم المطرد ، والذي ما كان ليزداد لولا شعورهم بالامن والطمأنينة والسلام.

وقبل أن نتناول جوانب هذا الموضوع يجدر الاشارة الى ان يهود المنطقة لم يشكلوا وحدة عنصرية عرقية ، بل كانوا جماعات ترتبط بالدين والتقاليد والعادات، فالموجات المتتالية التي جاءت من انحاء حوض البحر المتوسط ومن ورائه قد طمست كل الميزات العرقية الواضحة في المنطقة . فبالاضافة الى العنصر السامي القديم الذي جاء مع الفينقيين منذ تأسيس قرطاج ثم بعد تهديم القدس في عهد « تيتوس » كان هناك عدد لا بأس به من البربر المتحولين الى اليهودية ، وقدمت من شبه جزيرة ايبيريا موجة اخرى ابتداء من العصور الحديثة . وقد لجأ اليهود الى الجزائر هربا من الاضطهاد الديني الذي كانوا يلاقونه في هذه البلاد ، كما قدم الى المنطقة مستوطنون يهود من بعض المدن الاوروبية منذ بداية القرن ١٨ ، ولا سيما من ليفورن، بحثا عن الثروة والاستغلال التجاري .

ومنذ ذلك الوقت بدأ يظهر فرق واضح بين اليهود المحليين (القدامى والوافدين من الاندلس) ، الذين كانوا على صلات طيبة مع المسلمين ، وبين اليهود الليفورنيين، الذين افادوا ، بصفتهم أجانب ، من نظام الامتيازات ، ومن حماية الحكام الاتراك ، ومن ثم بدأوا يسيطرون على الطائفة اليهودية المحلية وعلى اقتصاد الجزائر وسياستها

وقد سمحت طبيعة الحكم العثماني في الجزائر خلال هـــذه الفترة لليهـود الليفورنيين ، بتدعيم مراكزهم في البلاد ، اذ أدى تردي الوضع الاقتصادي في الايالة الى نقص عدد المتطوعين في الاوجاق الجزائري ، فعمد حكام الاقاليم العثمانية الـى ارسال الاشقياء والمساجين وقطاع الطرق وحثالة المجتمعات(١) ، ومن هؤلاء كان حكام الجزائر ، الذين كانوا غير قادرين على تسيير أعمال الدولة لان اكثرهم توصل الـى منصبه بفضل تمرد الانكشارية المطالبة بزيادة الاجور ، بعد ان كان هؤلاء الحكام يباشرون مهنا تعد بسيطة لا علاقة لها بشؤون الحكم ، مثل مهنة الفحامين او الاسكافيين او الكناسين واصدق مثال على ذلك : الداي مصطفى ، الذي قيل بانه كان كناسا ورفعه اليهود الى مرتبة الداي(٢) وكذلك الداي علي الفسال ، الذي كان يغسل الامـوات قبل سنة ١٨٠٨(٣) .

وعلى هذا الاساس ، يمكن القول منذ البدايـة ، ان فساد الحكم العثمانـي في الجزائر ، هو الذي يسر لليهود الليفورنيين السيطرة على سياسة الجزائر واقتصادها.

التنظيم الطائفي والحياة الدينية :

في الواقع أن ثمة حقيقة يصح أن نبدأ بها ، وهي أن النظام العثماني في الجزائـر ترك لليهود حرية تنظيم أمورهم وعلاقاتهم الداخلية حسب شعائرهم الخاصة وعباداتهم المرعيـة .

نظر العثمانيون الى اليهود في الجزائر بوصفهم جماعة متميزة لها ديانتها وعقائدها الخاصة ، فوجب عليهم اذن ، في ظل التسامح ، أن يمنحوهم حرية العبادة والاقامـة والسفر والتعليم ، وأن يحافظوا على حياتهم وأملاكهم ، والا يتدخلـوا في شؤونهـم الداخلية التي عهد بادارتها الى الرؤساء الدينيين ، ومقابل تلك الحماية التي كانـوا يتمتعون بها فرضت عليهم ضريبة معينة هي (الجزية) .

وفي هذا الصدد يقول القنصـل الامريكي (وليام شالر) في مذكراته ، فهـم « يتمتعون بحرية تامة في ممارسة عقائدهم الدينية ، وهم يخضعون لقوانينهم الدينية في الاحوال الشخصية (.......) وبوصفهم رعايا جزائريين يتمتعون بحرية التنقـل والاقامة حيث يرغبون ، وبممارسة المهنة التي يرونها في حدود القانون في جميع أنحاء المملكة ، واليهود غير قابلين للاسترقاق »(٤) .

كان يتولى ادارة أمور اليهود رئيس من أبناء الطائفة يعينـه الحاكم(٥) يدعـى المقدم أو الشيخ(٦) فهو الذي يمثل رعيته في كافة أمورها أمام السلطات العثمانيـة ، ويطلع الوزراء على جميع مقررات طائفته ، ويقـوم بتنفيـذ أوامر الداي ونزواته

الشخصية ، فهو المسؤول المباشر عن دفع الضرائب تجاه الادارة العثمانية ، التي كانت تنظر الى اليهود كوحدة دافعة للضرائب(٧) .

وبجانب رئيس الطائفة ، كان هناك مجلس للطائفة اليهودية (TOBE - HAïR) يتألف من اربعة اشخاص ، غالبا ما كان يختارهم المقدم .. وقد اختص هذا المجلس بادارة شؤون الطائفة ، وبالناحية المالية خصوصا ، اضافة الى ذلك كان المجلس يقدم خدماته لكل ما يخص الضرائب والمساهمات .

الى جانب المجلس ، كانت هناك وظائف أخرى اشتملت عليها المؤسسة الطائفية مثل وظيفة الكزبار (Guizbar) والكاباي (GABAï) والشابر (CHABER) . فالكزبار ، هو الموظف الذي اختص بتنظيم المعابد ومراقبتها ، كما اختص كذلك بتوزيع الصدقات . اما الكاباي والشابر ، فقد اختصا بدفن الموتى ، والى ذلك اختص الاخير بمراسيم الزواج (٨) .

وقد كفل النظام الملي المحافظة على حياة اليهود الدينية . ومن الجدير بالتنويه أن المصادر الاوروبية في معظمها تجمع على أنه لم تكن هناك قيود على اقامة دور عبادة في الاحياء اليهودية .. ويقول (روزى) بهذا الصدد ، ان اليهود كانوا احرارا في بناء الكنس والاروقة التي كانت تستخدم كغرف للتعليم الديني(٩) .

ويلاحظ أن اغلب اليهود في الجزائر عاشوا تحت تأثير التقاليد الدينية المستمدة من تعاليم التلمود ، وتعلموا مبادىء الديانة مشافهة عن طريق الحاخامية . والجدير بالذكر ان اليهود الليفورنيين ، او اليهود الاحرار كما كانوا يسمونهم ، كانوا لايخضعون للمؤسسة الطائفية ، غالبا ما نجدهم يتضايقون من اليهود الاهالي في الكنيس عندما كانوا يشاهدونهم يمارسون طقوسهم الدينية (١٠) .

وكانت الصلوات تقام بالعبرية التي كانت مجرد لغة دينية لاغير ، وكان معظم اليهود يجهلون معانيها (١١) . ومن الخطأ كما يقرر (وليام شالر) أنهم كانوا يتكلمون اللغة العبرية ، ولكنهم استخدموا لغة عربية متميزة قليلا من لغة العرب ، وممتزجة بكلمات عربية وتركية وافرنجية(١٢) ..

وكان اليهود في الجزائر على مذهبين : فالتلموديون الذين كانوا منقسمين الى سكليين وكبوسيين يمسونهم الاجانب (Fostareros) او العجم ، والاخرون أي الاهالي ويدعون توشايم (Residents) أي المقيمين ، والمذهب كان مذهب السفارديم وبعض القرائين . اما الاشكنازيم الذين ينحدرون من اصل الماني ، فلم يكن لهم وجود في الجزائر .

ويلاحظ أن كثيرا من اليهود الذين يشعرون أن أجلهم قد اقترب يسلمون كل ممتلكاتهم لورثتهم ولا يبقون لانفسهم الا ما يسمح لهم بسد الرمق في القدس التي يقصدونها ليلفظوا هناك انفاسهم الاخيرة . ولقد شاهد (وليام شالر) في سنة ١٨١٦ عددا منهم وهم يبحرون في آخر حج لهم على متن سفينة استؤجرت خصيصا لنقلهم الى شواطىء سورية(١٣). الا ان هذا السفر الذي كان يقدم عليه اليهود خلال هذه الفترة ، كان يعد مخاطرة كبيرة ، لذلك كانت قلة منهم تصل الى فلسطين(١٤). ومما لا شك فيه ان ارتباط اليهود بتراثهم الديني هو الذي كان يربطهم بفلسطين لما كانت تحمله من ذكريات مقدسة ، وهو الذي دفعهم الى المجيء اليها لاسباب دينية لاغير .

الوضـع التعليمي :

تشهد كتب الاوروبيين الذين زاروا الجزائر خلال هذه الفترة ، ان التعليم اليهودي ، كان منتشرا في أنحاء البلاد ، وأن كل يهودي حسب قول (كوهين) كان يعرف القراءة والكتابة(١٥) .

والدولة العثمانية ، كما هو معروف ، لم تتدخل في شؤون التعليم وعدته من جملة الامور المرتبطة بالطوائف الدينية ، فخولت الجماعات اليهودية المنتشرة في انحاء البلاد حق تأسيس المدارس الخاصة بها وادارتها، وغالبا ما تكون غرفا ملحقة بالكنيس .

ومهما يكن من أمر ، فان الطائفة اليهودية كانت ترمي الى ان يكون تعليم ابنائها تحت اشرافها حتى توجههم الوجهة التي تريدها ، وحتى يشبوا على ولائهم لدينهم وطائفتهم . وفي هذا المجال عنيت بالتعليم الديني وبث المفاهيم الدينية فيهم ، كما اهتمت كذلك بمبادىء الحساب لان التجارة والحرف تقضي معرفة ذلك . ولذلك ظل التعليم اليهودي كالسابق تعليما دينيا بحتا ، يبدأ في المنزل على يد الاباء الذين كانوا يسهرون على تربية اطفالهم . فلا يدخل الطفل الى المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة الا وتكون القيم الخلقية والاجتماعية قد ترسخت فيه . اما التعليم في المدارس ، فكان يشرف عليه رجال الدين . غير أن طرق التدريس ظلت كالسابق تقليدية لا تعتمد على أية وسيلة تربوية ، وكان يغلب عليه الحفظ والاستذكار .

هذا وقد كان التعليم اليهودي الذي اشرفت عليه الطائفة يشمل حسب (كلانسوال) على ثلاث مراحل :(١٦)

١ ــ المرحلة الاولى : وفيها يدخل التلميذ الذي تتراوح سنه ما بين الرابعة والثامنة الى المدرسة ، ويتعلم القراءة تحت اشراف رجال الدين .

٢ ــ المرحلة الثانية : وفيها يدرس الطلاب تاريخ العهد القديم (التوراة).

٣ ــ المرحلة الثالثة : وفيها يتلقى الطلاب مبادىء الكتابة والحساب .

أما التعليم في هذه المدارس الدينية ، فكان يتم باللغة العبرية ، ويذكر (هايدو) أن التلاميذ كذلك تعلموا اللغة العربية التي كانوا يكتبونها باحرف عبرية(١٧) .

واذا كان الفقراء يكتفون بهذه المراحل من التعليم ، فان الاغنياء يواصلون تعلمهم فغالبا ما كانت الاسر الغنية تبعث أولادها الى اوروبا ، وخصوصا الى ايطاليا ، ليتلقوا مبادىء التجارة ويتعلمون اللغات(١٨) .

الاحوال الاجتماعية :

يمكن تقسيم اليهود الى ثلاث طبقات رئيسية

١ ــ طبقة غنية وتضم التجار الكبار والصرافين .

٢ ــ طبقة متوسطة وتضم التجار الصغار وبائعي المفرق .

٣ ــ طبقة فقيرة وتضم الحرفيين والباعة الجوالين .

وقد عاش اليهود في حرية ، وفي كل مكان عوملوا بتسامح من جانب العرب سواء أكانوا يعيشون في أحيائهم أم في بقية أجزاء البلاد . غير أن اليهود تعرضوا مثل بقية العرب لظلم الاتراك العثمانيين . ولا ينكر ان هذا الظلم تحول في بعض فترات الى اضطهاد ، ولكن يجب الا يفهم من ذلك ، أن اضطهاد اليهود هذا كان لمجرد أنهم يدينون باليهودية . وفي الحقيقة ، ان النظام العثماني لم تكن له قوانين مضبوطة ومدونة تحدد ما لقيصر وما للرعبة للرعية ، لهذا ساد الظلم وارتفع الباطل ، وقلت ثقة السكان في الحكام . ولكن ، ومهما كانت تصرفات الاتراك العثمانيين الشديدة تجاه اليهود ، فانها لم تصل الى حد التعدي على معتقداتهم الدينية كما حدث لهم في أوربا ، بل نجدهم يتمتعون في الجزائر زمن العثمانيين بحرية العبادة والاقامة ، والى جانب ذلك عوملوا باحسان بالنسبة للامم الاخرى .

وعلى هذا الاساس ، فان سوء معاملة المسلمين لليهود لا ترجع الى عقيدتهم وانما ترجع بالدرجة الاولى الى سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم تجاههم . وليس هناك دليل واحد يقيم الحجة على أن المسلمين اساؤوا معاملة اليهود لمجرد أنهم يهود . فالمسألة اذن ليست دينية كما فهمها من أراد المس بالدين الاسلامي وبأهله ، ولكنها مسألة سياسية بالدرجة الاولى .

وعلى اية حال ، فالعلاقات بين اليهود والمسلمين كانت حسنة طوال هذه الفترة

ما عدا فترات محدودة لقي فيها اليهود بعض المضايقات الخفيفة ، وخصوصا في أواخر العهد العثماني ، بسبب الظروف الصعبة التي مرت بها البلاد . وفيما يخص هذه الفترة بالذات ، فان الجزائر قد تعرضت لمجاعات وأوبئة ، وكان طبيعيا أن يستغل اليهود هذه الظروف ليزيدوا في الاسعار ، الامر الذي أدى الى نقمة المسلمين عليهم.

النشاط الاقتصادي

نتج عن وجود العنصر اليهودي النشيط في البلاد الجزائرية خلال هذه الفترة من العهد العثماني ، نشاط اقتصادي غير معهود ، برز في مختلف المجالات الاقتصادية من صناعة وتجارة وخدمات أخرى . ولا نبالغ اذا قلنا إن اليهود أثروا تأثيرا بليغا في الحياة الاقتصادية ، وذلك اعتمادا على القاعدة الوثائقية لهذه الفترة التي توضح بشكل جلي تفوقهم الكبير في هذا الميدان .

ومهما يكن من أمر ، فان اليهود ساهموا يقينا في تنشيط اقتصاد البلاد . ونحن نعلم أيضا أنهم كانوا ذوي خبرات راقية ومتعددة في ميادين الصناعة والتجارة .

ويلاحظ أن عددا كبيرا من اليهود كان قد استقر بالمدن الكبرى التي اشتهرت بالتجارة وبموقعها الجغرافي ، في الجزائر ، وقسنطينة ، ووهران ، قصد الارتزاق . لكن القطاع الذي استهواهم ، بدون منازع ، أكثر من غيره هو قطاع التجارة ، لان التجارة كما هو معروف كانت أكثر الحرف التي تدر على أصحابها الارباح الطائلة . فلا عجب اذا ما طرق اليهود هذا الباب اكثر مما طرقوا غيره ، ولا سيما ان مهارتهم وخبرتهم بالبلاد المسيحية التي تجري معها المبادلات تؤهلهم الى ذلك أكثر من غيرهم .

أ ـ النشاط الصناعي

يحسن بنا ، قبل كل شيء ، الاشارة الى اننا لا نعرف شيئا عن الزراعة عند اليهود خلال هذه الفترة ، وأكبر الظن انهم لم يعملوا بها(١٩) وقد كان معظمهم يشتغل في الصناعات الحرفية والتجارة واعمال اخرى . فقد عمل اليهود في مختلف الحرف، لاسيما الاعمال التي تتطلب المهارة والنشاط ، وتفوقوا بها على سائر أهل البلاد . فلم تكن هناك صنعة الا وزاولوها ، غير أنهم فضلوا ممارسة بعض المهن والصناعات مثل الخياطة والصباغة والغزل والحياكة وصناعة المطرزات(٢٠) كما عملوا في صناعة الزجاج(٢١) ومقابض البنادق(٢٢) ، الى غير ذلك من الصنائع الشائعة في ذلك الحين.

ومن الصناعات المهمة التي ارتبطت بالوجود اليهودي بالجزائر صناعة الذهب والفضة التي برعوا فيها بشكل لا يجاريهم فيه احد ، والتي أصبح لها شارع خاص

بمدينة الجزائر عرف بشارع الصاغة حيث محلات اليهود ، التي اختصت بصناعة الحلي من الذهب والفضة . وفي الوصف الذي خلفه لنا (راهبندر) من القرن الثامن عشر للجماعة اليهودية بمدينة الجزائر ، « نجد ان اليهود كانوا يمارسون الحرف التي تتصل بالمعادن الثمينة ، لاسيما منها التي تتعلق بالذهب والفضة ، وكانت ورشاتهم لمزاولة هذه الصناعة تقع بالقرب من قصر الداي في زقاق ضيق ووسخ ، بالاضافة الى ان معظمهم كان يعمل في سك العملة . . »(٢٣) . وكانت هذه الصناعات التي تتمثل في الحرف ، تمارس في مختلف مدن الإيالة منظمة في هيآت تتولى كل واحدة صناعة نوع محدد من الادوات والملابس التي يحتاج اليها السكان في الحياة اليومية . وقد انحصرت مهام امناء هذه الهيآت او النقابات في الاشراف على أصول المهنة والحرص على جودة البضاعة وتحديد كميتها .

ب ـ النشاط التجاري

كانت التجارة في الفترة التي ندرسها من أبرز مصادر الثروة ، وكان اليهود يعتمدون عليها لكسب رزقهم . فنجد اليهود الذين كانوا يقطنون بمدينة الجزائر يمارسون تجارة القوافل التي تمتد بين الجزائروقسنطينة ، ويعكفون بصفة خاصة على تجارة الحرير والنسيج والاقمشة والمصابيح الاوربية وخردوات اوربا(٢٤). واعتمد اهل البلاد على اليهود اعتمادا كليا لتزويدهم بكل متطلباتهم من السكر والشاي والاقمشة التي اوصلوها عن طريق الباعة المتجولين الى أقصى المناطق النائية في الداخل(٢٥) . فاليهودي بعمله هذا كان اشبه بالدكان المتنقل ، فهو يعرض خدماته ويقدم القروض بفوائد مرتفعة ، وان اضطرته الظروف ذهب الى تخوم الصحراء ليبادل سكانها بما تحمله بغاله من حبوب مقابل ريش النعام والجلود والتبر(٢٦) .

وفضلا عن ذلك ، نجد أغلب اليهود قد حصلوا على ثروات ضخمة نتيجة السمسرة والمرابة والقيام بدور الوساطة في كل العمليات التجارية مهما كانت بسيطة او تافهة حتى اصبح العربي في مدينة الجزائر على حد تعبير (روزى) « لا يستطيع ان يبيع دجاجتين بدون وساطة مأجورةمن أحد اليهود » (٢٧) .

ومن جهة اخرى ، كسب اليهود ثروة طائلة وفوائد جمة من استغلال العبيد أو افتدائهم ، وقد أصبحوا الوسطاء الحقيقيين لهذه الحرفة بفضل تمتعهم بمستوى رفيع من التكوين والتدريب بالاضافة الى مرونة الشخصية ومعرفتهم باللغات السائدة في حوض البحر المتوسط ، والى العلاقات التقليدية التي تربطهم في مختلف البلدان . وكانت الجزائر قد دخلت منذ قرون عديدة في حروب مع الدول الاوروبية ، حيث ظلت هذه الحروب تعد موردا مهما للدولة .. واذا كانت البضائع تباع في كثير من الاحيان بأسعار رخيصة ، فان افتداء العبد كان في اغلب الاوقات له فائدة كبيرة .

وكان العبد لا يطلق سراحه الا بعد ان تدفع عنه قيمة الفدية . وحتى وان حصل الاسير على مبلغ كاف من بلده ليعودالى أهله سالما ، فانه كان يواجه صعوبة كبيرة في ايصال الاموال الى اصحابها الحقيقيين ، لان ارسال الفدية الى العبد او الى سيده كان عرضة للخطر وخوفا كذلك من هذا الاخير الذي ربما يحتفظ بالاسير ومبلغ الفدية معا . ولتلافي ذلك أوجد اليهود في العصور الوسطى نظام (الكمبيالة) .

بذلك تمكن اليهود من احتكار التجارة الخارجية التي كانت بيدهم خلال هذه الفترة ، أكثر من أي وقت مضى ، بفضل المكانة الممتازة التي اكتسبوها بسرعة لدى تجار البيوت التجارية في البلدان الاوربية والافريقية ، فكانوا يستغلون مهارتهم التجارية وفرصة انعدام البنوك في تنشيط التجارة وخلق القروض والضمانات بفوائد خيالية الى ان اصبحوا من كبار الاثرياء ، بسبب الخدمات الجليلة التي قدموها للدايات وكبراء الدولة الذين منحوهم حق الاحتكارات التجارية ، وأوكلوا اليهم تنظيم المدفوعات الخارجية وتقويمها فاصبحوا باستماراتهم التجارية بمثابة البنوك يقومون بالتحويلات النقدية والقرضية والحسابية بين الجزائر وأوربا . وقد ساعد التجار اليهود على تنظيم المدفوعات التجارية من قروض وسندات ونقود ما كان لهم من وكلاء وبيوت تجارية في مختلف المدن التجارية المهمة في أوربا وافريقيا واسيا . والمثال على ذلك ، ان عائلتي بكري وبوشناق كان لهما وكلاء في عديد من المدن في حوض البحر المتوسط مثل قرطاجة ومرسيليا وجنوة وليفورن ونابولي وازمير والاسكندرية وتونس، وبفضل هذا التنظيم الاداري التجاري كان على التاجر سواء كان جزائريا أم اوربيا أن يوفي بدينه لهذه الوكالات اليهودية عن طريق المراسلة دون نقل السبائك الذهبية ،في فترة اشتدت فيها الحروب البحرية ، وهانت فيها النفوس ازاء كل معدن نفيس .

ولقد احتلت المبادلات التجارية مع مدينة ليفورن مكانة كبيرة نظرا لوجود عدد كبير من التجار اليهود فيها ، الذين وجدوا كل التسهيلات التجارية حيث ركزوا الوكلاء والمشرفين على التجارة لتأمين بضائعهم التي كانوا يرسلوها الى شمال افريقيا وأوربا والمشرق(٢٨) .. كان اليهود يستعملون مواني الجزائر ، فيصدرون الى ليفورن مقادير من القمح الصلب لا نستطيع تحديد كميتها لعدم وجود الاحصاءات ، وكذلك كميات من المرجان وريش النعام والجلود والصوف وبعض المنتوجات المحلية الاخرى(٢٩) . وبالمقابل كانوا يستوردون منها بعض المصنوعات والخردوات وكثيرا من الرخام والاقمشة الحريرية والحلي وغيرها(٣٠) ..

من المؤكد ان العلاقات التجارية اليهودية بين الجزائر واوربا كانت قائمة خلال هذه الفترة التي ندرسها ، وكانت تتطور تدريجيا ، غير اننا لا نستطيع تقييمها بدقة لعدم وجود الاحصائيات المضبوطة ، لان اليهود كانوا يهملون الكتابة والقيد لتجنب

الضرائب التي كانت تفرض على البضائع المصدرة والمستوردة . ولكن الامر الذي نعرفه هو أن ليفورن ومرسيليا احتلتا مرتبة ممتازة في استيراد المواد الاولية من الايالة منتفعة بالطائفة اليهودية المحتكرة لثلثي التجارة الخارجية للجزائر(٣١) ..

غير ان الشركة التي تزعمت هذا النشاط هي شركة بكري وبوشناق التي كان لها محلات في عديد من المدن الجزائرية . والمعروف أن احتكار هذه الشركات للتجارة لم يكن مصادفة وانما كان نتيجة تكاتف افرادها وعملهم على استمالة الشخصيات الرسمية والاعيان في البلاد ، بالاضافة الى الوسائل المختلفة التي كانوا يستعملونها ابتداء من الهدايا الثمينة والمساعدات المالية الى التجسس في الداخل والخارج لحسابهم ولحساب الحاكمين الذين يرغبون في استعطافهم .

وبهذه الطريقة تضاعفت رؤوس اموال الشركة اليهودية بسرعة فائقة واستطاعت ان تنفذ بقوة الى المحيط الرسمي ، حيث تمكنت من الاستئثار برعاية اثنين من الشخصيات البارزة آنذاك هما الدايان : بابا حسن (١٧٩٢ — ١٧٩٨) ومصطفى (١٧٩٨ — ١٨٠٥) .

وهناك من يميل الى القول بأن هذين الدايين كانت لهما حصة مما كانت تحصل عليه المؤسسة اليهودية من أرباح طائلة ، ولكننا نعتقد أن هؤلاء اليهود انما تمكنوا من الفوز بثقة السلطات ، لان عيونهم كانت منتشرة في كل انحاء البلاد تزودهم بجميع المعلومات بتحركات القبائل .. وكان المسؤولون المركزيون يحتاجون الى مثل تلك المعلومات لتدعيم اوضاعهم وللحفاظ على مناصبهم ، كما انهم لم يكونوا يخشون من اليهود ان يستولوا على الحكم .

وهذه الثقة التي احرزوها في مختلف المستويات ، كانت سلاحا حادا لهم وعليهم في الوقت نفسه ، اذ بقدر ما كانت تفتح لهم منافذ الثروة واسعة ، كانت كذلك تعرضهم من حين الى اخر لسخط الاجناد والاهالي الذين كانوا يستنكرون تقربهم من الحكم .

اما خارج الإيالة ، فان شركة بكري وبوشناق قد فرضت نفسها في كثير من البلدان الاوربية ولاسيما في فرنسا التي كانت مركزا مهما لنشاط اليهود التجاري والدبلوماسي فكان تنظيم الشركة يقوم على اساس توزيع العمل بين الشركاء . فبينما كان اولاد بكري يقومون بادارة الشؤون المالية والتجارية للشركة ، كان بوشناق يقوم بالعمليات السياسية في قصر الداي ، ويشترك في حبك المؤامرات ، ويوزع الرشوة والحظوة كما يشاء . وقد بلغ من النفوذ درجة جعلته يلقب في الاوساط الدبلوماسية بلقب « ملك الجزائر »(٣٢) ..

وهكذا ، كان لهذا الوضع التجاري الذي سيطر عليه اليهود تأثير خطير على الاوضاع الاقتصادية للبلاد ، زيادة على الاثار السلبية على حياة السكان ، وذلك بفعل مزاحمة اليهود في كل الاعمال التجارية . وبالفعل فقد تسبب هذا الوضع في اعاقة نمو الطبقة التجارية المحلية بعدما آلت كل الصفقات المربحة والمبادلات المهمة الى ايدي التجار اليهود بفضل الامتيازات التي كانوا يحظون بها من البايلك(٣٣) .

دور اليهود في السياسة الخارجية الجزائرية

بعدما احرز اليهود ثقة السلطات الحاكمة ، وتولوا ما يشبه الوصاية على عرش الداي وسيطروا على الحياة الاقتصادية ، أخذوا يوسعون نطاق عملياتهم لتشمل الشؤون الدبلوماسية .

وفي الوقت الذي وجه فيه اليهود نشاطهم نحو أوربا ، كانت المؤسسات الفرنسية في الجزائر تعاني وضعا سيئا بسبب العجز المالي التي كانت تمر به الحكومة الفرنسية آنذاك ، وهذا ما جعلها تستعين بشركة بكري وبوشناق لتموين فرنسا بالحبوب .

وعندما قامت الثورة الفرنسية ، تعرضت فرنسا خلال هذه الفترة لازمات حادة سياسية واقتصادية . بالاضافة الى انها كانت في حالة حرب مع معظم دول اوربا وقد حاولت الحكومة البريطانية الضغط على الداي للحيلولة دون وصول القمح الى فرنسا ، ولكن الداي حسن رفض الطلب البريطاني . وعلى اثر ذلك لجأ قنصلها الى الشركة اليهودية وحاول ان يستعين باليهوديين بكري وبوشناق لمنع وصول شحنات القمح الى فرنسا . غير ان الانتصارات التي احرزتها الجيوش الفرنسية ضد « الحلفاء » لم تلبث ان فتحت اعينهما فسارعا الى المطالبة بمنحهما امتيازا لتموين فرنسا بالقمح ، وحصلا على هذا الامتياز بدون صعوبة .

ولكن علاقات فرنسا والشركة اليهودية سيعتريها بعض الفتور ولفترة قصيرة في أواخر القرن الثامن عشر ، حينما سمعت الحكومة الفرنسية بان الشركة اليهودية تزود الحامية الانجليزية المرابطة في مضيق جبل طارق ، وعلى أثر ذلك عمدت الحكومة الفرنسية الى تجميد ديونها . وفي ٢٦ نيسان ١٧٩٧ كتب « دولاكروا » ، وزير خارجية فرنسا الى زميله وزير المالية رسالة ينصح فيها باتخاذ اجراء التجميد ، جاء فيها قوله : « وباحتفاظنا بالمبالغ المستحقة لليهوديين بهذه الطريقة سنمنعهما من التحول عن مصالحنا ونضطرهما الى التزام تحفظ اكبر في طرق تعاملهما مع الانجليز ، الذين لا يخدمانهم بهذه الحماسة الا لان وجودهم في شمال افريقيا يثير في نفوسهما الامل في تحقيق ارباح اخرى »(٣٤) .

ومثل هذا الاجراء هو الذي جعل الداي حسن في ١٨ ايار ١٧٩٧ يتدخل ، ويكتب الى حكومة فرنسا رسالة حملها اليهودي سيمون فند فيها جميع الاتهامات وأكد « اخلاص اليهوديين بكري وبوشناق لكل ما يخص مصالح الامة الفرنسية»(٣٥). ولكن عندما خرج « دولاكروا » من وزارة الخارجية وحل محله « تاليران » في تموز ١٧٩٧ ، تنفس اليهوديان بكري وبوشناق الصعداء ، وسارعا الى ربط علاقتهما « بالشيطان الاعرج » الذي تحول الى محامي بليغ الحجة وحليف قوي لليهود ، مما جعل يعقوب بكري يكتب الى أخيه ابراهيم بكري قائلا : « ... اذا لم يكن الشيطان الاعرج في يدي ، فانا لن اعتمدعلى شيء في الدنيا بعد الان » (٣٦) .

فمن الواضح ان تاليران في ذلك الحين ، كان يدرك النفوذ الكبير الذي وصل اليه اليهود ، فكان عليه ان يأخذ في الاعتبار مجمل العلاقات الجزائرية الفرنسية ، التي كان اليهوديان مفتاحا لها . وهكذا كانت المسألة بالنسبة الى « تاليران » ، هي كيف يحافظ على استمرار تموين فرنسا بالحبوب ويضمن عدم تحول « عواطف » اليهود ، وبالتالي الداي الى انجلترا .

وبينما كان الصراع على اشد ما يكون بين الجزائر وانجلترا في ١٨٠٠ الذي كان من المحتمل ان يؤدي الى حرب بين البلدين ، تدخل بوشناق في وضع حد لهذا النزاع ، حيث حصل من الداي على قرار يمنح العلم البريطاني مكانة الشرف فيالايالة، وأكثر من ذلك ، فان الداي نفسه ادى التحية للسفينة التي تحمل القنصل الانجليزي السيد فالكان FALCAN في ١١ ايلول ١٨٠٠(٣٧) .

وفي السنة التالية ، اي في سنة ١٨٠١ ، كان لبوشناق شرف استقبال قناصل الدانمارك والسويد وهولندا ، وتسلم منهم باسم الداي الهدايا التي تدفعها دولهمالى السلطات العثمانية في الجزائر .. وكان له الشرف كذلك ان يفاوض في معاهدة الصلح بين الايالة وفرنسا ، وأن يقدم للداي في ١٧ كانون الاول ١٨٠١ ، القنصل الفرنسي الجديد لهذه الامة ، السيد « ديبواتافيل » (٣٨) .

وفي ٢٨ آب ١٨٠٣ استقبل مبعوث البرتغال ، السيد « لازارو جوزيف » ،الذي كلف بالتفاوض بشأن معاهدة السلام ، وقام هذا اليهودي بالمفاوضات بين الجزائر والبرتغال من بدايتها حتى نهايتها ، والتي فشلتبسبب الشروط القاسيةالتي فرضت على البرتغال . وفي ١١ كانون الثاني ١٨٠٤ استقبل بوشناف مبعوث السلطان في الاستانة ، الذي كلف بمهمة صعبة في الجزائر ، فقد اضطر هذا المبعوث الى التحدث مع بوشناق قبل ان يمثل امام الداي ، مما جعل القنصل الاسباني ، الذي لاحظ حالة مماثلة ، ان يطلق على هذا اليهودي بكل بساطة اسم « نائب ملك الجزائر »(٣٩) .

تلك بعض الامثلة لتدخل اليهوديين بكري وبوشناق في نواحي حيوية من سياسة البلد الخارجية .

الثورة على اليهود :

كان السكان خلال سنوات طوال يشاهدون في صبر وتحمل كبير نفوذ اليهود وهو يزداد توغلا مع مرور الزمن في اعمال الحكومة وفي شؤونها الحسابية واسرارها المالية ، وفي الحياة الاقتصادية والسياسية .

يقول « دو غرامون »(٤٠) ان مختلف عناصر السكان وقفت ضد اليهود ، بالاضافة الى الانكشارية والحضر ، كان هناك افراد طائفة البراني واصحاب الحرف البؤساء الذن كانوا يكرهونهم كذلك .. فجميع المظالم والجرائم التي ارتكبها الاتراك كانت تعزى اليهم ، وحتى الموظفين وقفوا ضدهم وكانوا على استعداد للاطاحة بهم .

وهكذا ، فان جميع الفئات تضررت من معاملتهم ، كالمزارعين الذين كان اليهود يشترون منتجاتهم بأبخس الاثمان ويبيعونها باسعار خيالية ، والتجار الذين اقترضوا من اليهود المال بالربا الفاحش ، والاهالي الذين كانوا يشترون من اليهود البضائع الفاسدة المغشوشة . وزيادة على ذلك ، فانهم تسببوا في تجويع الشعب باحتكارهم المواد الغذائية الضرورية لحياة السكان مثل الحبوب ، التي كانوا يرفعون اسعارها ويصدرونها الى الخارج في اوقات القحط والمجاعات ، دون مراعاة لشعور السكان وحاجاتهم الاساسية .

ولقد وقع العديد من المحالات لاغتيال اليهودي بوشناق الذي كان على صلة وثيقة بالدوائر الحاكمة في البلاد ، واشترك مع الداي في تجارة الحبوب ، ومنحه هذا الاخير حق الاحتكار ، ورأينا كيف استطاعهذا اليهودي‌ان يستبد بالحركة الاقتصادية العامة بمختلف الطرق الشرعية وغير الشرعية . وعلى الرغم من كل محاولاتالاغتيال، فان هذا اليهودي مضى في تحديه وفي جرأته وغطرسته ، وجرت محاولتان لاغتياله في الشارع بضربة خنجر ، ونجا في كل مرة دون ان يصاب بأذى . وفي ٢٨ حزيران ١٨٠٥ ، في الساعة السابعة صباحا ، وبينما كان بوشناق خارجا من قصر الداي ، سدد اليه انكشاري يسمى « يحيى » مسدسه وأطلق عليه النار قائلا :« تحية اليك يا ملك الجزائر » وهرع الجند وسيوفهم مسلولة الى مكان الحادث ، وقال لهم يحيى : « لقد قتلت اليهودي .. فهل انتم من كلاب اليهودي » وعند ذلك تركوهوشأنه وخرج ولما عاد الى ثكنته حمله رفقائه على اكتافهم ، وأخذ كل واحد منهم يتلمس طريقة « ليسلم على اليد التي خلصت البلد من المستبد » . واما مصطفى داي الذي أخذ يرتعد خوفا من الخطر ، فبدلا من أن يامر بالقاء القبض على الجاني الذي ارتكب الحادث في قصره ، بعث اليه بسبحته رمزا للعفو عنه (٤١) .

وما ان ذاع خبر اغتيال اليهودي بوشناق في المدينة حتى انفجرت الفتنة بشكل كبير ، وقامت مظاهرة شعبية اشتركت فيها جميع عناصر السكان من الجند والحضر والاندلسيين والقبائليين والبسكريين والاباضيين ، واتجهت الى الحي اليهودي ، حيث راحوا ينتقمون بالقتل والسلب والنهب والاحراق ، ويشجعهم في ذلك النسوة اللواتي كن يشاهدن هذه الاحداث من فوق السطح(٤٢) .

فيما يخص مصير مصطفى داي ، فانه بعدما شعر بالخوف على حياته ، عرض على الانكشارية ان يسمح لهم بنهب المدينة اذا قبلوا ان يتركوه على قيد الحياة . ولما رفضوا طلب اليهم ان يسمحوا له بالسفر الى المشرق ، غير أنهم رفضوا هذا الطلب كذلك ، مما جعله يحاول الهرب مع الخزناجي والتوجه الى ملجأ يحميه من غضبة الجماهير ، ولكنها لحقت به فذبح وسحبت جثته في الشوارع ، ثم رميت عند « باب عزون »، وهكذا مات مصطفى داي والشعب غاضب عليه .

ولأجل تهدئة الانكشارية وعدهم الداي الجديد بطرد جميع اليهود من المدينة ماعدا اصحاب الحرف الذين لايمكن للسكان الاستغناء عنهم .

ومنذ الايام الاولى من وقوع المصيبة التي حلت باليهود اسرعت مجموعة كبيرة من العائلات للهرب خوفا من القتل والنهب . ففي ١ تموز هاجرت نهائيا من مدينة الجزائر ١٠٠ عائلة يهودية الى تونس و ٢٠٠ عائلة اخرى الى ليفورن في ١٠ تموز ١٨٠٥(٤٣) .

ومما يلاحظ انه على الرغم من جميع هذه الانتفاضات العنيفة ، فان الطائفة اليهودية ظلت بعد هذه الاحداث تعيش في سلام ووئام مع السكان العرب .

كما ان الاغلبية منهم كانت بعيدة عن الصراعات والمؤامرات التي جرت بين الاسر اليهودية الليفورنية للسيطرة على أمور الطائفة . وان جميع الاموال التي جمعها هؤلاء اليهود كانت على حساب السكان من يهود وعرب واتراك على السواء .

الخاتمة :

يتأكد لنا من خلال ما تقدم ان اليهود كانوا يؤلفون عنصرا مهما في المجتمع الجزائري زمن العثمانيين . وقد تمتعوا باستقلال ذاتي في الاشراف على امورهم الدينية وادارة مؤسساتهم حسب قوانينهم وعاداتهم ، فازدهرت احوالهم الاجتماعية من جراء نظرة المسلمين المتسامحة .

ولكن ، ومهما كانت تصرفات العثمانيين الشديدة تجاه اليهود ، فانها لم تصل الى حد التعدي على معتقداتهم الدينية كما حدث لهم في اغلب بلاد اوروبا ، حيث كانوا يتعرضون هناك لابشع الاحقاد ، وكانوا يعيشون في عزلة ، وظلوا عرضة للطرد والاضطهاد والتشريد .

وعلى اية حال ، فقد اتيح لليهود في المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة مكانة مرموقة سمحت لهم بالقيام بدور اقتصادي وسياسي كبيرين ، بسبب الثقة التي كانوا يحظون بها من المسؤولين العثمانيين، الذين يسروا لهم السيطرة على شؤون البلاد. وبذلك راحت اطماع اليهود تزداد باستمرار ، كما ازدادت الامتيازات التي اعطيت لهم رسوخا ، واصبح من المستحيل اخضاعهم ، فكانت النتيجة دمار الجزائر وتسهيل احتلالها .

حصل الباحث على شهادة الماجستير في الاداب برسالته : « يهود الجزائر في العهد العثماني من مطلع القرن الثامن عشر حتى ١٨٣٠ » باشراف الدكتور محمد خير فارس .

الهوامش :

(١) Plantet, E.,**Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France,** t.I, Bou Slama, Tunis . 1981, P. XVI.

وكذلك فارس ، محمد خير ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني الى الاحتلال الفرنسي ، مطابع الف باء ـ الاديب ، دمشق ١٩٦٩ ص ٧٠-٧٢و٨١-٨٧ .

(٢) Esquer, G., **La Prise d'Alger 1830,** La Rosse, Paris 1929, P. 20.

(٣) Grammont, H. D . de , **Histoire d' Alger sous la dimination turque (1515-1830)** , E. Leroux, Paris 1887 , pp. 369-370.

(٤) شالر ، وليام ، مذكرات وليام شالر قنصل امريكا في الجزائر (١٨١٦ - ١٨٢٤) ، تعريب وتعليق وتقديم اسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،١٩٨٢ ، ص (٨٩).

(٥) المصدر نفسه ، ص (٨٩) .

(٦) يقول هايدو ان رئيس الطائفة اليهودية في الجزائر كان يعرف باسم قسيس ، الا ان الاسم كان يدل على رئيس الطائفة المسيحية راجع :

Haedo, F. D. de, «Topographie et histoire generale d'Alger», in **Revue Africaine** , 1870, P. 91.

(٧) Trapani, D . , **Alger tell Qu'elle est ou tableau statistique , morale et Politique de cette regence,** Paris 1830, P.21.

(٨) لمزيد من المعلومات حول التنظيم الطائفي راجع :

Cahen, A., **Les Juifs dans l'Afrique septentrionale,** L. Arnolet, Constantine, 1867, pp. 75-88.

(٩) Rozet, M. P., **Voyage dans la regence d'Alger,** A . Bertrand, Paris 1833, t. III, P.83.

(١٠) Pananti, F., **Relation d'un séjour a Alger contenant des observations sur l'état actuel de cette régence,** trad. de. l,anglais par Blanquière, Le Normont, Paris 1820, p. 228.

(١١) Rozet, **Op. Cit.,** t. II, p. 241.

(١٢) Martin, C., **Les Israelies algeriens de 1830 à 1902,** Herakles , Paris 1936, p. 36.

(١٣) شالر ، وليام : المصدر السابق ص (٩٢) .

(١٤) Mainz, E., « Les Juifs d'Alger sous la dimination turque ». in **Journal Asiatique,** TCCXL, 1952, p. 217.

(١٥) Cohen, M., **Le Parler arabe des juifs d'Alger,** Champion, Paris 1912, p. 14.

(١٦) Clausolles , M. P. , **L'Algérie pittoresque ou Histoire de la régense d'Alger,** Paris 1843, p. 96.

(١٧) Haedo, **Op. Cit.,** p. 91.

(١٨) Rozet, **Op. Cit.,** t. II, p. 253.

(١٩) Leynadier, et Clausel, **Histoire de l'Afrique Française,** Paris 1846, p. 153.

(٢٠) Haddey, H. J.M.,**Le Livre d'Or des Israelites algériens,** Alger 1871,p.9.

(٢١) Grammont, **Op. Cit.** p. 44.

(٢٢) Emerit, M., « Les Quartiers commerçants d'Alger à l'epoque turpue» in **Algéria,** Février 1952, p. 12.

(٢٣) Cite par . Eisenbeth, M ., « Les Juifs en Algerie et en Tunisie à l'époque turque » (1516-1830) . in **Revue Africaine** , 1952, p. 334.

(٢٤) Raynal, Gt., **Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des européens dans l'Afrique Septentrionale,** Paris 1826, t. II, p.92.

(٢٥) Boudia,M., **La Formation sociale algerienne précoloniale,** Paris o.p.u., Alger 1981, p. 180.

(٢٦) Emerit, M., « Les Liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord au 17e siécle et au début du 19 e siécle»,in **Travaux de l'Institut de Recherches sahariennes,** No 19, 1954, p. 37.

(٢٧) Rozet, **Op. Cit.,** t. II, pp. 226-227 .

(٢٨) Filippini, J. P., « Livourne et l'Afrique du Nord au 18e siécle» , in **Revue d'Histoire Magrébine** , No7-8 (1977) , p. 145.

(٢٩) Haddey, **Op. Cit.,** p. 42.

(٣٠) **Ibid** , p. 44.

(٣١) Julien, CH. A., **Histoire de l'Afrique du Nord** , Payot , Paris 1964 , p. 240 .

(٣٢) لمزيد من المعلومات حول شركة بكري وبوشناق راجع : الزبيري ، محمد العربي ، التجارةالخارجية للشرق الجزائري قبل الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٩، ص(٢٥٥-٢٨٥).

(٣٣) Perrot, A.M.,**Alger, Esquisse topographique et historique du royaume et de la ville,** Paris 1830, p. 26.

(٣٤) Esquet, **Op. Cit.** , p.24.

(٣٥) Plantet, **Op. Cit.,** p. 463, Note I

(٣٦) Bloch, I., **Inscription tumulaire des anciens cimétières israélites d'Alger,** A. d' Urlancher, Paris 1888, p. III.

(٣٦) **Idib,** p. 96.

(٣٨) **Idib,** p. 96.

(٣٩) **Ibid,** p. 97.

(٤٠) Grammont, **Op. Cit.** p.360.

(٤١) **Ibid,** p. 361.

(٤٢) **Ibid,** p. 361.

(٤٣) Bloch, **Op. Cit.** p. 102.

قضية الموصل
وصداها في الأوساط العراقية

جعفر الحيالي

مقدمـة :

في مجرى الصراع بين الاستعماريين ظهرت قضية الموصل وتحولت في فترة ما الى قضية بالغة الحساسية فبتأثير جملة من العوامل الاقتصادية والسياسية تحولت الموصل الى موضع صراع بين الدول الاستعمارية فيما بينها من جهة ، وموضوع لاستغلال كل من فرنسا وبريطانيا لتثبيت هيمنتها الاستعمارية على المشرق العربي(١).

وترجع بدايات الصراع الاستعماري لاستثمار خيرات الموصل بشكل عام ، والنفطية بشكل خاص ، الى عام ١٨٨٨ ، ففي هذا التاريخ أصدر السلطان عبد الحميد الثاني فرمانا حصر بموجبه حق التفتيش عن النفط واعطاء الامتيازات لاستثماره بميزانيته الخاصة . وقد جاء ذلك نتيجة لتنبه الدولة العثمانية لطبيعة الصراع بين الشركات الغربية حول اكتشاف واستغلال المكامن الطبيعية في ارجاء الدولة العثمانية. لكن هذا الامر يستمر طويلا بسبب ضعف الدولة العثمانية وزيادة تأثير الدول الاوربية على سياستها الداخلية ، ففي عام ١٩٠٤ حصلت شركة سكك حديد الاناضول الالمانية على عقد يبيح لها مسح حقول نفط الموصل واستثمارها ، لكن الحكومة العثمانية الغت عقدها مع الشركة الالمانية عام ١٩٠٦ بتأثير الضغط البريطاني ، ودخلت في مفاوضات مع جماعة (دارسي) الاستثمارية البريطانية لاستثمار حقول النفط . وتعثرت المفاوضات البريطانية العثمانية خلال الازمة السياسية الداخلية للدولة العثمانية عام ١٩٠٨ والتي انتهت باضطرار السلطان الى منح الدستور لارضاء الدول الاوربية. واستؤنفت المفاوضات عام ١٩٠٩ بين الشركة البريطانية ووزارة المالية التركية ، الا انها توقفت هي الاخرى بسبب خلع السلطان عبد الحميد في العام نفسه.

وخلال ذلك ، لم تيأس الحكومة الالمانية من امكانية العودة الى ايجاد موطىء قدم لها في الدولة العثمانية ، ونجحت في ذلك ، حيث عقدت عام ١٩١٤ اتفاقا مع الحكومة البريطانية تم بموجبه التوصل الى تسوية أدت الى تأسيس شركة النفط التركية برأسمال مختلط بريطاني — الماني — انكلوسكسوني(٢). وحصلت هذه الشركة على وعد من الصدر الاعظم في ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩١٤ بالسماح لها بالتنقيب عن النفط في ولايتي الموصل وبغداد . لكن نشوب الحرب العالمية الاولى وانحياز تركيا الى جانب المانيا أدى الى فشل المشروع . وتمسكت بريطانية من ناحيتها بالوعد بسبب معرفتها بوجود كميات كبيرة من النفط في الموصل(٣) .

الموصل موضع نزاع دولي :

خلال السنتين الاوليين من الحرب أدت المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية الى اقصاء الاخيرة عن المطالبة باعتبار الموصل منطقة نفوذ لها ، لكن روسيا القيصرية كانت تميل الى اعطاء الموصل الى فرنسا . وهكذا خضعت بريطانيا لشكل من التسوية نصت عليه فيما بعد اتفاقية سايكس — بيكو المعقودة في عام ١٩١٦ بين الدول الثلاث ، وبموجب هذه التسوية أصبحت الموصل ضمن منطقة النفوذ الفرنسي . وكانت الموصل موضع اهتمام الفرنسيين الشديد ، بسبب قربها من سورية الداخلية التي كانت من حصتها وفق اتفاقية سايكس بيكو(٤) .

وتطور الاهتمام البريطاني بالموصل بعد انتهاء المعارك في العراق ، فاضافة الى النفط الذي يعد عاملا رئيسيا في اجتذاب انتباه البريطانيين للمنطقة ، كانت هناك عوامل أخرى ، أهمها ادراك البريطانيين الاهمية الاستراتيجية للموصل كعازل طبيعي بين قواتهم في العراق وبين تركيا من جهة ، ومن جهة اخرى اقتناعهم ان السيطرة على وسط العراق وجنوبه تتطلب السيطرة على المناطق التي تقع في شماله(٥) . والسيطرة على الموصل تتيح للبريطانيين تسليط سيطرتهم على الحركة الوطنية في العراق وسورية، كما ان وضع الموصل تحت نفوذهم المباشر يعني الاحتياط للمستقبل ازاء أي تطور في سورية والعراق لا يلائم المصالح والاطماع البريطانية في المنطقة.(٦) ويعتبر شهر تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩١٨ التاريخ الحقيقي لظهور ما عرف بقضية الموصل، من النواحي السياسية والحقوقية . ففي هذا التاريخ احتلت القوات البريطانية منطقة الموصل بعد تراجع القوات العثمانية عنها باتجاه اقصى كردستان العراق (لتتخذ منه حصونا منيعة للدفاع عن المنطقة) (٧) .

واثار احتلال بريطانيا للموصل احتجاج تركيا التي كانت ترى ان الموصل هي مفترق طرق مهمة لكافة البلدان والمقاطعات المجاورة . ومن الناحية السياسية تعني السيطرة عليها فرض الاشراف على كردستان العراق ، والمحافظة على وضع

استراتيجي مميز ازاء بقية العراق وسورية . ومن الناحية الاقتصادية كانت لتركيا مطامع بنفط الموصل شبيهة بمطامع فرنسا وبريطانيا(٨) . اما فرنسا فلم يكن امامها الا التسليم بالامر الواقع الذي فرضته عمليات الجيش البريطاني في العراق ، والقبول باعتبار الموصل منطقة نفوذ بريطاني . وهو ما تم رسميا في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٠ ، حيث تم الاتفاق بين فرنسا وبريطانيا على تنازل الاولى عن مطامعها في العراق مقابل اطلاق يدها في سورية ، واعطائها نسبة ٢٥٪ من صافي انتاج النفط الخام في حقوق الموصل ، على ان توافق فرنسا على اعطاء جميع التسهيلات لمرور خطين لانابيب النفط في سورية ولبنان من اجل ايصال النفط العراقي والايراني الى موانىء البحر الابيض المتوسط(٩) وتجسد هذا التنازل في مؤتمر سان ريمو في نيسان (ابريل) عام ١٩٢٠ ، والذي اتفق فيه على وضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني ، وسورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي(١٠) .

لكن الاتراك لم يعترفوا بمقررات مؤتمر سان ريمو ، فيما يتعلق باعتبار الموصل جزءا من الاراضي العراقية . واستمر الجيش التركي بتنظيم العصابات المسلحة للاخلال بالامن على الحدود العراقية ، وهذا ما جعل قضية الموصل من اولى القضايا التي واجهت الدولة العراقية الفتية ، خاصة وان تركيا بعد مجيء (كمال اتاتورك) للحكم نشطت في مطالبتها بالموصل ومزاعمها بانها جزء من الاراضي التركية(١١) . وحولت بريطانيا قضية الموصل الى وسيلة لابتزاز الحكومة العراقية ، من اجل تعديل مدة سريان المعاهدة العراقية ـ البريطانية الاولى من (٤) سنوات الى (٢٥) سنة(١٢)، وتثبت أسس الانتداب على قاعدة اكثر رسوخا ، خاصة وان بريطانية واجهت مصاعب جدية في فرض سيطرتها العسكرية والسياسية على العراق ، وبرز ذلك بشكل خاص منذ ثورة عام ١٩٢٠ ، الامر الذي جعلها تعمل على الايحاء بانها من المدافعين عن المصالح العراقية من خلال دفاعها عن الموصل . وكانت تأمل ان ذلك من شأنه تحسين سمعتها بين اوساط الشعب العراقي وساسته ، ففي هذا الامر كما في بعض الامور الثانوية كانت بريطانية تتصرف وكأنها تحاول ازالة بعض ما علق في اذهان العرب حول دورها في تجزئة البلدان العربية ، واعطاء فلسطين للصهاينة من جهة ، ومن جهة اخرى كانت تبغي احراج موقف الاستعمار الفرنسي في سورية ، في الاطار العام للصراع بين الاستعماريين على المنطقة العربية ، حيث جزأت فرنسا سورية الى دويلات طائفية مما جعلها في مواجهة مباشرة مع الحركة الوطنية فيها(١٣) .

واستمر الحال كما هو عليه الى عام ١٩٢٣ حيث وقعت دول الحلفاء وتركيا على معاهدة لوزان(١٤) التي نصت فيما يتعلق بقضية الموصل على احالة المسألة الى تركيا وبريطانيا من اجل حلها وديا خلال فترة تسعة اشهر ، وفي حال الفشل يرفع النزاع الى مجلس عصبة الامم ، كما نصت على ضرورة المحافظة على الوضع القائم في منطقة

الموصل كما هو عليه وايقاف كل ما من شانه الاخلال بالامن او تغيير طابع المنطقة(١٥). وبالفعل جرت مفاوضات بين تركيا وبريطانيا لم تسفر عن نتيجة مما دفع الطرفين حسب ما نصت عليه معاهدة لوزان الى رفع قضية النزاع حول الموصل الى مجلس عصبة الامم .

بحثت عصبة الامم قضية الموصل في ٢٠ ايلول (ستمبر) عام ١٩٢٤ ، واستمر تباعد موقفي بريطانيا وتركيا ، فأصرت بريطانيا على تعيين خط للحدود بين تركيا والعراق تصبح الموصل بموجبه جزءا من الاراضي العراقية ، في حين اصر الاتراك على التمسك بكافة اجزاء ولاية الموصل ، وتوصلت العصبة الى اتخاذ قرار وافقت عليه بريطانيا وتركيا بنص على تأليف لجنة خاصة مهمتها دراسة وضعية الحدود ورفع تقرير للمجلس حول ما ترتئيه(١٦) .

وصلت لجنة التحقيق الدولية الى الموصل في ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥، وبدأت عملها بالاستماع الى وجهات النظر المختلفة ، وبعد انتهاء شهرين من المشاورات كتبت تقريرها الذي نص على رفض فكرة تقسيم ولاية الموصل . وقد اعتمدت اللجنة على الاحصاءات الاقتصادية والبشرية البريطانية في تقرير ارتباط الموصل اقتصاديا ببغداد وبقية انحاء العراق ، وبان الطابع الديموغرافي لها يؤكد صلتها التاريخية بالعراق ، ومن الوجهة الجغرافية تشكل الموصل حاجزا طبيعيا يقف عائقا امام انتسابها الى تركيا بفضل سلسلة الجبال المعقدة ، التي تفصل الاراضي العراقية عن تركيا وتكون حوض الرافدين .. ومن الناحية السياسية والادارية والروحية فقد كانت الموصل تخضع لادارة الحكومة العراقية من الناحية العملية ، ومشاعر سكانها مع بقائهم جزءا من العراق(١٧) .

والغريب في مقرارات اللجنة انها ربطت بين توصياتها حول الموصل ومسألة الانتداب البريطاني على العراق ، فاشترطت ان يوضع العراق تحت الانتداب البريطاني لمدة ٢٥ سنة ، مما يؤكد ان اللجنة كانت بريطانية اكثر مما هي لجنة دولية . وبعد مداولات عديدة داخل عصبة الامم وافقت الاخيرة على قرار يقضي باعتبار ولاية الموصل عراقية، وذلك بتاريخ ١٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٥ . لكن الاتراك الذن لم يحضروا جلسة مجلس العصبة لم يعترفوا بهذا القرار . وقد ادى هذا فيما بعد الى توتر في العلاقات التركية البريطانية وصل الى حد التهديد بالحرب ، الا ان الحكومة التركية لم تستطع الاستمرار في تحدي عصبة الامم وبريطانيا الى النهاية ، واضطرت الى اجراء مفاوضات انتهت بعقد معاهدة بين العراق وتركيا وبريطانيا تؤكد عائدية الموصل الى العراق . وقد انتهت هذه المعاهدة في ٥ حزيران (يونيو) ١٩٢٦ ، ودخلت حيز التنفيذ يوم ١٨ حزيران (يونيو) من نفس العام(١٩) .

الموقف العراقي الرسمي والشعبي من قضية الموصل

تعد الموصل جزءا متمما للعراق اقتصاديا وسياسيا وبشريا ، ولها أهمية استثنائية في الاقتصاد العراقي ، ففي مصادر المياه تقع روافد نهر دجلة جميعها جنوب مدينة الموصل ، وتروى الاراضي الزراعية من روافد النهر المذكور(٢٠) . واثارت اعمال التنقيب للشركات الاجنبية حول النفط في الموصل ، وصراعها فيما بينها حول الحصول على امتيازات استثماره ، انتباه الساسة العراقيين لاهمية الثروة الجديدة ودورها في الاقتصاد العراقي(٢١) ، والموصل هي واسطة الاتصال الطبيعي والعمراني والثقافي بين وادي الرافدين وبلاد الشام ، وقامت بدور صلة الوصل بين العراق و بلاد الشام. وكانت الصناعات الحرفية والفنون والثقافة والافكار السياسية تتنقل مع حركة التجارة من العراق واليه ، من سورية ، وهذا الواقع لم ينقطع يوما من الايام(٢٢) ، ولو تم سلخها عن الاراضي العراقية ، لاقتصر الاتصال بين العراق وبلاد الشام على طريق البادية الصحراوي ، اضافة الى ان استيلاء الاتراك على ولاية الموصل يجعلهم يزدادون طمعا بالاستيلاء على الاسكندرونة ويمدون أبصارهم الى حلب التي تقع بين الموصل والاسكندرونة ، ويعني ذلك بسط الحكم التركي على القسم الشمالي من اسيا العربية(٢٣) . ورغم حداثة تكوين الدولة العراقية ، عبرت الحكومة العراقية والمجلس التأسيسي بأشكال متعددة عن تمسكهما الشديد بالموصل ، ففي خطاب للملك فيصل القاه في الموصل في ايار (مايو) عام ١٩٢٣ دافع فيه عن عروبة الموصل ، كما دافع ايضا عن عروبة ديار بكر واورفه وماردين ، وسخر من مزاعم الاتراك حول احقيتهم بالموصل المنطلقة من ان هناك جالية تركية صغيرة تقطن فيها ، قائلا ان هذا الزعم يبيح للعرب المطالبة بالمناطق العربية الواقعة تحت السيطرة التركية(٢٤) . وفي خطاب اخر له القاه في مدينة الموصل في شهر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٢٤ اعلن فيه ان ولاية الموصل جزء لا يتجزأ من العراق ، وان الحكومة العراقية لاتستطيع ان تعيش يوما واحدا بدونها ، واشار الى ان مشكلة الموصل على علاقة بالسلام في الشرق الادنى والشرق كله وبين ان الاتراك طامعون بنفط الموصل ومعادنها ، ودعا سكان المدينة الى الدفاع عن استقلال العراق التام ومن ضمنه منطقة الموصل(٢٥) .

وفي اجتماع المجلس التاسيسي العراقي في ربيع عام ١٩٢٤ اخبرت الحكومة العراقية المجلس عن اهتمامها بقضية الموصل ، واعلنت انه اذا لم يحتفظ بالموصل فلن تكون هناك حكومة عراقية ، كما أعلن بعض النواب ، وخاصة نواب الموصل ذاتها وكركوك ، بما فيهم النواب الاكراد ، عن تمسكهم بالموصل بالتاكيد ان (الموصل هي العراق والعراق هو الموصل) . واكد نائب كردي بان الاكراد لا يريدون الانفصال عن العراق وانهم – أي الاكراد – لا يستطيعون العيش خارج اطار الدولة العراقية(٢٦) .

وكان الموقف الشعبي العراقي أشد سخطا على الاتراك ، بسبب مزاعمهم حول

عائدية الموصل ، وانعكس ذلك في مواقف الاحزاب والجمعيات والشخصيات الوطنية والصحافة والجماهير الشعبية . ففي الاول من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٢٤ تأسس حزب الاستقلال العراقي في الموصل . وعرف باتجاهاته القومية(٢٧) ، وكان الهدف الاول لتأسيسه الدفاع عن عروبة الموصل . وقد اذاع الحزب بيانا هاجم فيه الاتراك بشدة وذكر بجرائمهم اثناء حكمهم للمنطقة العربية ، وفند مطالبتهم بالموصل ، ووصم مزاعم الاتراك بالظلم والاستهتار ، واكد ان الموصل عربية عراقية . كما لعب الحزب المذكور دورا في تحريض الشعب على التمسك بعروبة الموصل والدفاع عنها ، وطلب في بيان وزع على الطلبة العراقيين ان يجيبوا عن أي سؤال حول الموصل بانها راس العراق وهي عربية ، ومن يفكر بفصلها عنه فهو خائن لوطنه وامته(٢٨).

أما حزب الامة فقد قدم مذكرة الى لجنة التحقيق الدولية المكلفة بالنظر بقضية الموصل ، دافع فيها عن عروبة الموصل ، واعلن معارضته لمطالبة حكومة انقرة غير العادلة بضم هذه الولاية اليها ، واكد ان أية قوة في العالم لا تستطيع اقتطاع الموصل عن العراق . وجاء في المذكرة بحث تفصيلي في القضية العربية والثورة العربية ضد الاتراك ، مع تدعيمها بالحجج الجغرافية والسياسية والقومية والاقتصادية والعسكرية(٢٩).

واتخذت الجمعيات العراقية مواقف مساندة لمواقف الاحزاب العراقية ، ففي تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٢٤ ارسلت الجمعية الكردية في مدينة السليمانية مذكرة الى مجلس عصبة الامم عارضت فيها المطالب التركية في ولاية الموصل ، واشارت الى عدم وجود اية روابط بين اكراد العراق وتركيا(٣٠) . وفي كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٥ تأسست (جمعية الدفاع الوطني) في الموصل لمساندة حزب الاستقلال في الذود عن عروبة الموصل(٣١) ، وقدمت جمعيتا الاطباء والصيادلة ، بعد دورة اجتماعات في شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٥ ، مذكرة الى لجنة التحقيق الدولية دافعت فيها عن عروبة الموصل ومنطقة كيليكيا التي يحتلها الاتراك(٣٢) .

ومن ابرز الشخصيات الوطنية التي كان لها دور في الدفاع عن عروبة الموصل عبد المحسن السعدون ، رئيس الوزراء ، الذي ادت جهوده الى خلق التفاف وطني عراقي حول قضية الموصل عام ١٩٢٣ ، وكما جاء في احد التقارير البريطانية ان الاجماع الوطني ضم « الشيخ ورجل المدينة والسني والشيعي واعضاء المجالس البلدية والادارية .. وصحفيو بغداد ضموا اصواتهم الى عبد المحسن السعدون.»(٣٣). ويُعد ساطع الحصري من الشخصيات العربية التي قامت بدور بارز في الدعوة لتنبيه الرأي العام العراقي حول خطورة قضية الموصل ، حيث قام بزيارة مدينة النجف والاتصال بالعديد من قادة الرأي العام المحلي ورجال الدين ، من اجل دعوتهم للاهتمام بهذه القضية . وفي بغداد ذاتها حيث كان يقيم كانت له لقاءات عديدة مع الشخصيات السياسية لمناقشة الامر ذاته(٣٤) .

وشنت الصحف العراقية حملة متواصلة ضد مطامع الاتراك ، فنشرت صحيفة (الامل) البغدادية لصاحبها الشاعر معروف الرصافي في عددها الصادر يوم ١١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٣ مقالا تحت عنوان « مطامع الترك في الموصل وحلب » هاجمت فيه دعاوى الاتراك ومطامعهم في المنطقة العربية بشكل عام ، وفي الموصل وحلب بشكل خاص(٣٥) ، ونشرت صحيفة (الموصل) الصادرة في الموصل بتاريخ ١٦ حزيران (يونيو) عام ١٩٢٤ مقالة تحت عنوان « صفحة سوداء من تاريخ الترك في الموصل » فضحت جرائم الاتراك ابان حكمهم للمدينة ، وحذرت الجماهير الشعبية من خطر الاطماع التركية في الموصل(٣٦) .

واهتمت الصحافة السورية في الدفاع عن عروبة الموصل . فعندما زار وفد عصبة الامم الموصل من اجل تحديد الحدود بين العراق وسورية ، نقلت صحيفة المقتبس الدمشقية في عددها الصادر يوم ١٣ شباط (فبراير) ١٩٢٥ صورة دقيقة عن معارضة الشعب لمطامع الاتراك في الموصل وتمسكه ، بعربه واكراده ، بالحقوق العربية واستعداده للتضحية في سبيلها(٣٧) .

وبلغ سخط الراي العام درجة من النضج والتبلور رافقت وصول لجنة التحقيق الدولية ، التي استقبلت بمذكرة موقعة من قبل (٣٠٠) شخصية موصلية من المقيمين في بغداد ، اعلنوا فيها ان الموصل بالنسبة للعراق بمثابة الراس من الجسد(٣٨) . وعند وصول اللجنة الى الموصل استقبلت من الاهالي بالهتافات تردد ان الموصل عربية عراقية(٣٩) .. وابرق رؤساء الطوائف المسيحية في الموصل الى قداسة البابا وكرادلة لندن وبروكسل وفينا وبودابست يحتجون على مطالبة الاتراك بالموصل ويطالبون بالتدخل لدى عصبة الامم لتأييد حق العراق الطبيعي فيها(٤٠) .

خاتمة :

ان ظهور قضية الموصل يؤكد ان الاستعمار الغربي الحديث ، في اندفاعه للسيطرة على المنطقة العربية ، لم يراع سوى مصالحه الاقتصادية والسياسية ، ووضع جانبا الاعتبارات التاريخية والبشرية والاقتصادية والعسكرية وغيرها ، التي تؤكد وحدة المنطقة العربية . ولم يكتف الاستعمار بتجزئة المشرق العربي الى دول ، بل قسم هذه الدول الى دويلات اصغر كما فعل في سورية لخدمة مصالحه . وحين كانت مصالحه تتطلب المحافظة على وحدة دولة عربية ما ، كان ذلك يتم على حساب فكرة توحيد المنطقة العربية ككل ، كما حدث في العراق في قضية الموصل حيث عمل الاستعمار البريطاني على المحافظة على وحدة العراق الجغرافية والسياسية . وكان لتمسك العراقيين بالموصل على انها جزء طبيعي من العراق دوره في اكراه البريطانيين والاتراك

والفرنسيين على الاقرار بهذا الواقع الذي استغل من قبل بريطانيا لتزيز سيطرتها على موطىء قدم افضل ازاء المشرق العربي .. وكان بقاء الموصل على وضعها الطبيعي يعني بالنسبة للبريطانيين وضعها بمكانتها الطبيعية وميزاتها الاستراتيجية تحت سيطرة دولة فتية ضعيفة انذاك هي العراق ، يسهل منها المحافظة على المصالح البريطانيـة لفترات طويلة اكثر مما هو الحال لو كانت الموصل تحت السيطرة التركية .

حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسالته « العلاقات بين سورية والعراق من ١٩٢٠ ـ ١٩٤١ ـ دراسة في العمل القومي المشترك » باشراف الدكتورة خيرية قاسمية .

(١) الحصري ، ساطع ، يوم ميسلون ، دار الاتحاد ، بيروت ١٩٤٥ ص ٦٢.

(٢) حسين ، فاضل ، مشكلة الموصل ، دراسة في الدبلوماسية العراقية ـ الانكليزية ـ التركية وفي الراي العام ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٩٦٧ ص ٣٠٣-٣٠٤ .

(٣) البزاز ، عبد الرحمن ، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ، الطبعة الثالثة ، بغداد ١٩٦٧ ص ١٦٧ .

(٤) الحصري ، المصدر السابق ص ٦٢ .

(٥) شريف ، ابراهيم ، الشرق الاوسط ، دراسة لاتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق ، دار الجمهورية ، بغداد ١٩٦٥ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٦) طبارة ، راشد ، الانتدب وروح السياسة الانكليزية ، مطبعة طبارة ، بيروت ١٩٢٥ ص ١١٢ .

(٧) الحسني ، عبد الرزاق ، تاريخ العراق السياسي الحديث ج٢ ، الطبعة الثانية ، صيدا ١٩٥٧ ص ١٠٢ .

(٨) طبارة ، المصدر السابق ص ١١٣.

(٩) قرقوط ، ذوقان ، تطور الحركة الوطنية في سورية (١٩٢٠ ـ ١٩٣٩) ، دار الطليعة ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧٥ ص ٣٠-٣١ و ٢٠٢.

(١٠) انطونيوس ، جورج ، يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية ، ترجمة د.ناصر الدين الاسد احسان عباس ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية ، بيروت ـ نيويورك ١٩٦٦ ص ٤١٩ .

(١١) الحسني ، المصدر السابق ص ١٠٨.

(١٢) البزاز ، المصدر السابق ص ١٩٥ .

(١٣) الحصري ، المصدر السابق ص ٤١٢.

(١٤) اعتبرت معاهدة لوزان في ٢٤ تموز (يوليو) عام ١٩٢٣ الاتفاقية الرسمية للسلام بين تركيا وجميع دول الحلفاء . وفيما يخص علاقات تركيا مع العراق وسورية فقد نصت المعاهدة على ان تقوم كل من بريطانيا وتركيا بالعمل على تسوية الحدود العراقية ـ التركية ، واعتبار منطقة الاسكندرونة جزءا من الاراضي السورية ، كما تم الاتفاق على تنازل تركيا عن كل الحقوق والملكيات للاراضي الواقعة خارج حدودها .

(١٥) الشريف محمد بديع ، والمحاسني ، زكي ، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، القاهرة، بلا تاريخ ص ٣٢٠ .

(١٦) فوستر ، هنري ، تكوين العراق الحديث ، ترجمة عبد المسيح جويدة ، بغداد ١٩٤٥ص٢٩٠-٢٩١.

(١٧) حسين ، المصادر السابق ص ٦٠-٦١ .

(١٨) البرقاوي ، احمد رفيق ، العلاقات السياسية بين العراق وبريطانيا (١٩٢٢ ـ ١٩٣٢) دار الرشيد ، بغداد ١٩٨٠ ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

(١٩) حسين ـ المصدر السابق ص ١٨٣ ـ ١٨٦ .

(٢٠)

Arnold J.Toynbee, A and Kennethp.
Kirkwood Turkey - London 1926, P. 279.

(٢١) العلوجي ، عبد الحميد ، واللامي ، خضير عباس ، الاصول التاريخية للنفط العراقي – الجزء الثاني ، بغداد ١٩٧٥ ص ٣٢ .

(٢٢) كولان ، جاك ، تاريخ الحركة النقابية اللبنانية (١٩١٩ – ١٩٤٦) ، تعريب نبيل هادي ،بيروت ١٩٧٤ ص ١٨٥ .

(٢٣) الحصري ساطع ، مذكراتي في العراق (١٩٢٧ – ١٩٤١) ، الجزء الثاني ، الطبعة الاولى ،بيروت ١٩٦٨ ص ٤٩٠ – ٤٩١ .

(٢٤) حسين ، المصدر السابق ص ٢٢١.

(٢٥) المصدر نفسه ص ٢٢٥ .

(٢٦) المصدر نفسه ص ٢٢٣ – ٢٢٤ .

(٢٧) جاء في المواد الاولى لبرنامج هذا الحزب « ضرورة العمل على استقلال العراق التام وتنشيط حركة الوحدة العربية في الخارج » . واصدر الحزب جريدة خاصة ناطقة بلسانه اطلق عليها اسم العهد . وصدر العدد الاول منها في ٢٠ يناير / كانون الثاني ١٩٢٥ ، وتولى رئاسة تحريرها عثمان قاسم وهو كاتب سوري هرب الى العراق بسبب ملاحقة السلطات الفرنسية له . بطي ، روفائيل ، الصحافة في العراق ، مطبعة دار الهنا ، مصر ١٩٥٥ ص ١٠٠–١٠١ .

(٢٨) حسين ، المصدر السابق ص ٢٢٦–٢٢٧ .

(٣٠) المصدر نفسه ص ٢٣٠ .

(٣١) الحسني ، المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ٢١٠ .

(٣٢) حسين ، المصدر السابق ص ٢٢٩ .

(٣٣) فرج ، المصدر السابق ص ٧٩ .

(٣٤) الحصري ، مذكراتي ، الجزء الثاني ، ص ٤٩٠–٤٩١ .

(٣٥) حسين ، المصدر السابق ص ٢١ ٢نقلا عن صحيفة الامل (١١ تشرين الاول ١٩٢٣) .

(٣٦) المصدر نفسه ٢٢٥ نقلا عن صحيفة الموصل (١٦ حزيران ١٩٢٤) .

(٣٧) المقتبس السورية ، العدد ٤٢٠٢ ، ١٣ شباط ١٩٢٥ ، وكذلك العدد ٤٢١٧ ، ٣ اذار ١٩٢٥.

(٣٨) حسين ، المصدر السابق ص ٢٢٩ نقلا عن صحيفة العالم العربي (٢٨ كانون الثاني١٩٢٥).

(٣٩) المقتبس ، العدد ٤٢٠٢ ، ١٣ شباط ١٩٢٥ .

(٤٠) حسين ، المصدر السابق ص ٢٣٠ .